أحمد توفيق المدني

المسلمون في جزيرة صقلية

وجنوب إيطاليا



صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007

يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

أحمد توفيق المدني

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا



بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـة

اجل ؛ انها لصفحة شرف وفخار ، من تاريخ حافل مجيد .

تلك هى الصفحة التى كتبها اجدادنا الاكرمون بدمائهم الزكية ، على اديم الارض الصقلية ، وسجلوها بجلائل اعمالهم فى سفر الوجود ، واقتحموا بها وبامثالها ابواب الخلود ٠

ويالها من ذكريات تثيرها فى نفوسنا تلك الصحف المطهرة صحف جهاد الاجداد فى سبيل الفتح الاسلامى ، وفى سبيل العمران والرقى ونشر المعرفة والمدنية الحقـة ٠

انها لذكريات اجداد كرام بررة ، تركوا لنا راسا فى التاريخ عاليا ، وذكرا فى الخافقين مجيدا ، انهم لقوم قهروا فى سبيل الله وسبيل المدنية اشاوس الارض وطغام البحر ، وتغلبوا بقوة ايمانهم ومتانة سواعدهم وشدة شكيمتهم على كل معترض لهم فى طريق حف بالصعاب ورص بالعقبات ، كان رائدهم يومئذ نكران الذات وتضحية النفس فى سبيل المثل الاعلى ؛ على غرار سنة استنها لهم محمد بن عبد الله ، رسول الله ، وخلفاؤه من بعده ؛ فنالهم هنالك الاذى واصابتهم فى طريقهم النكبات فما وهنوا لما اصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين ؛ وما بين مشرق الشمس وبين مغربها ، وما بين جليد الشمال وسعير الجنوب ، رفعوا فوق هام البر وفوق عباب البحر اعلامهم عالية خفاقة ، مرعية الجوار عزيزة الجانب ، وضع النضال حول هامتها هالة من نور الحق وعـزة الانتصار ٠

واننا قوم الشمال الافريقي ، ابناء الاطلس الابرار ، لأحق باحياء هذه الصفحة الصقلية وبنفض ما تراكم فوقها خلال عصور الانحطاط ، من غبار • ذلك لأنها صفحة خاصة باجدادنا في هذا الشمال ، فهم الذين فتحوا هنالك ومدنوا وتغلبوا ، وهم الذين انخذلوا بعد ذلك تحت تاثير عوامل شتى ، وتحت ضربات اعداء الداخل والخارج ، فضاع عنهم ما فتحوه حسا ومعنى بعد طول جــــلاد •

فعلينا ـ ونحن ابناؤهم ـ ان ندرس برورا بهم ، تاريخهم في حالتيه ، لنحيي ذكرهم ، وننصفهم حقهم ، ولنقيم لهم بأقلامنا وفي قلوبنا ، تمثالا خالدا هو عنوان الاجلال والاعتراف بالجميل ، ثم لنستخرج من كل ذلك عظات وعبرا تنير أمامنا جــادة السير في طريق الحياة الحقة حيــاة العمل والجد والسعادة وتحقيق الآمــال •

فهذه الصفحة الطيبة الثرية ، صفحة التاريخ الاسلامي بصقلية لم تكتب بعد ، ولم يقيض الله لها من يفردها بدراسة قيمة ، كما درست من قبل فتوحات المسلمين في سائر الاقطار ، فنحن لا نجد من اخبار صقلية الاسلامية الا ما تناثر في كتب التاريخ بين عربية وغربية ، وخاصة في كتب ابن خلدون وابن الاثير وابن الخطيب وابن جبير ، وبعض امهات الكتب الاخرى ، على ان تلك الاخبار المقتضبة التي كانت تذكر أستطرادا ، لم تكن تهتم الا بكبريات الحوادث الحربية ، وتاريخ تولي الولاة ووفياتهم على اضطراب بينهم في الترتيب • وقل من المؤرخين من تعرض لآثار ذلك الفتح ، وما كان له من ضلع كبير في اشراق انــوار المدنية والمعرفة على ربــوع اوروبا ; وبعبارة اصرح ، مدى مشاركة المسلمين الصقليين في بناء هيكل المدنية الحاضرة ; فيكاد يخيل اليك وانت تتلو كتب التاريخ القديمة ان مقــام المسلمين بصقلية ما كان الا سلسلة من حروب وفتن واضطرابات ، وانه لم يكن وراء تلك الحروب والفتن سوى دماء تسفك ، ومعالم تخرب ، وحرمات تنتهك ؛ وتلك لعمري هفوة من مؤرخينا ، علينــا ان نتداركهــا ، وعلينــا ان نسد هذه الثلمة في هيكــل تــاريخنــا القومي العربي •

نعم ! يجمل بهذه المناسبة ، وفي هذا الميدان ان نذكر وان نعترف بجميل عالمين جليلين ، ومؤرخين مبجلين اولهما السنيور ميكايل عمارى (١) وقد نشر سنة ١٨٥٨ كتابه الحافل (المكتبة العربية الصقلية) وقد جمع فيه اغلب ما تناثر في كتب العرب من اخبار صقلية والصقليين ، ايام دولة المسلمين ؛ والف كتابا حافلا باللغة الطليانية (تاريخ العرب بصقلية) في خمسة اجزاء ضخمة .

وثانيهما صديقي الكبير واستاذي الجليل ، السيد الوزير حسن حسنى عبد الوهاب ، مدرس التاريخ بالخلدونية سابقا ، وعضو مجمع اللغة العربية ؛ حيث قدم للمؤتمر المستشرقين الرابع عشر المنعقد بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ رسالة قيمة باللغة الفرنسية (١) عن مسلمى صقلية وما كان لهم من اثر محمود في ميادين العلم والمدنية .

---

(١) هو صاحب السيف والقلم ، وبطل العلم والسياسة ، واحد كبار المجاهدين في سبيل الامة والوطن ؛ والدرة اللماعة في تاريخ الاستشراق الغربي على الاطلاق ؛ ولد في مدينة بالرمة سنة ١٨٠٦ من عائلة ربما كانت تنحدر من اصل عربي حسبما يدل عليه اسمها ، وحسبما يدل عليه اتجاه هذا البطل العظيم من احياء تاريخ المسلمين بصقلية . وجمع آثارهم والاشادة بما كان لهم من فضل على العلم والمدنية بحيث انه قد عمل وحده في هذا المضمار ما تنوء تحت وقره العصبة القوية من العاملين .

ولقد شب في بيت ثائر ، اذ كان أبوه من رجال الحركة الوطنية الاستقلالية بصقلية ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة ؛ فكان ميكايل متشبعا منذ نشاته بتلك الافكار لكنه اندفع في ميدان العلم فحذق العربية ، مدفوعا لذلك بعاطفة غريزية ولاريب ، واخذ منذ شبابه يدرس تاريخ المسلمين ؛ وعندما حدثت الثورة في سبيل الحرية سنة ١٨٤٨ اندفع صاحبنا في مضمارها وخاض غمارها ، وسمى نائبا عن وطنه في مجلس الامة ؛ وتولى وزارة المالية حيث جاهد جهاد الابطال في سبيل الشعب والمستضعفين ؛ ثم ترك السياسة واعتكف على الدراسة والانتاج الخصب . لكن ثورة غاريبالدى عام ١٨٦٠ اخرجته من جديد لعالم السياسة والجهاد فشارك في الثورة مشاركة محسوسة ، واصبح بعد نجاحها مدير المعارف بمدينة بالرمة ثم وزير المعارف للدولة الطليانية الموحدة سنة ١٨٦٢ .

ثم اعتزل السياسة من جديد ، واخذ يدرس العربية في جامعة فلورنسا ، وتراس بتلك

ثم نشر حفظه الله بمدينة بالرمة سنة ۱۹۱۰ القسم المتعلق بالشمال الافريقى وجزيرة صقلية من كتاب اعمال الاعلام ، لابن الخطيب ، مع هوامش مفيدة باللغة الفرنسية متداركا بذلك ما سها العلامة ميكايل عمارى الآنف الذكر عن حشره ضمن (المكتبة العربية الصقلية) ٠

* *

ولقد كان اهتمامي بموضوع التاريخ الاسلامى بصقلية قديما ، وكانت ولا تزال رغبتى فى اختراق مجاهله اكيدة ; فنشرت فى الجزء الرابع من كتابى تقويم المنصور سنة ١٩٢٦ بحثا وجيزا عن تلك الحقبة من التاريخ ، ولربما كنت قد وفقت يومئذ بعض التوفيق ، فى تعبيد ذلك الطريق ٠

واننى لأعود اليوم الى هذا الموضوع ، مقدما بين يدى الامجاد ، قوم الشمال الافريقى ما اوصلنى اليه جهد البحث والاستقراء عن تاريخ صقلية الاسلامية متوسعا فى ذلك ، حسبما امكننى ان اتحصل عليه من مختلف الوثائق والمعلومات وبين طيات ما وصلت اليه من كتب عربية وافرنجية ; مثبتا على هامش ذلك ، حسب طريقتى ; اهم الاحداث الكبرى ، بالشرق وبالغرب ، حتى

المدينة مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٧٦ ، واستمر عاملا جادا فى سبيل العربية والتاريخ الاسلامى الصحيح الى ان توفى بفلورانسا سنة ١٨٨٩ ، ومن اهم مآثره (تاريخ المسلمين فى صقلية) فى خمسة اجزاء ضخمة ، نشره سنة ١٨٥٤ ، واعيد طبعه من تعليقات مفيدة وكتاب (المكتبة العربية الصقلية) جمع فيه اهم ما كتبه المؤلفون المسلمون عن صقلية ، وكتاب (الآثار العربية المنقوشة على الحجارة بصقلية) وكتاب (مذكرة عن حوادث التاريخ فى القرآن الكريم) وترجم للطليانية كتاب سلوان المطاع لابن ظفر ؛ ورحلة ابن جبير بصقلية وتاريخ ابن خلدون . الخ .

وقد اقام المستشرقون حفلا رائعا بمناسبة مرور مائة عام على ولادته ؛ وبتلك المناسبة نشر استاذنا حسن حسنى القسم المتعلق بصقلية وافريقيا من (اعمال الاعلام) .

وانى لأعتقد انه لا يتسنى للعرب الاطلاع على حقائق ودقائق تاريخ مسلمى صقلية ما لم يقيض الله من بينهم من يترجم للغة الضاد كتاب عمارى الحافل الثرى « تاريخ المسلمين فى صقلية » فهل من مجيب ؟

(1) La domination musulmane en Sicile

يمكن لقارىء كتابي ان يخرج بالتاريخ المحلي عن عزلته ، ويربط الحوادث الصقلية في مختلف ادوارها بمجرى التاريخ العالمي ٠

لكنني — والحمد لله — بعيد عن الغرور وكاذب الادعاء ! فاقول بكل صراحة، ان كتابي هذا لا يجب ان يعتبر الا تمهيدا لدراسة تاريخ المسلمين في صقلية ; فان كنت قد علمت شيئا وسجلته ، فقد غابت عني ولا ريب اشياء ; وان كنت قد ادليت خلال هذه الدراسة التاريخية ببعض آراء وافكار ، فما انا بمقدمها الا لكي تعرض على مجال البحث والمناظرة ، حتى يظهر من الحقائق التاريخية ما اخفته دفات الكتب ، او طمست معالمه حوادث الايام ٠

بل انني ازيد غلوا في الصراحة ، فاقول للعلماء والكتاب والمؤرخين من بني قومي ، انني ما اقدمت على وضع كتابي هذا ، ونشره ، وعرضه على النقادين ، الا لكي استفز منهم المشاعر ، واستحث فيهم الهمم ، علهم يندفعون بهمة وعزيمة وبما آتاهم الله من علم ، في هذا الباب ، يتداركون النقص وياتون بفصل الخطاب ، تلك هي غايتي ، وذلك هو مناي (١) ٠

وانني لأبتهل الى الله ، ان يلهمنا الحق والصدق والصواب ، ويهدينا سواء السبيل ، حتى نخدم تاريخنا الخدمة المثلى ; فنخلد بذلك ذكرى اجدادنا ، ونقدم الامانة سليمة لاحفادنا ٠

وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت ، واليه انيب ٠

الجزائر — ١٢ ربيع الانور ١٣٦٥



(١) من المؤسف حقا ، انه لم يصدر حول هذا الموضوع ، منذ هذا النداء ، الا كتاب واحد لاغير ، الى يومنا هذا ، سنة ١٩٦٨ ، ويكاد يكون قاصرا على ذكر الادب والشعراء والاثر الحضاري .

القسم الاول

وصف جـزيرة صقلية ومناخها وعمرانهـا

معقل طبيعي ، صنعته يد الله في منتصف البحر الابيض المتوسط ، فقسمه الى شطرين شرقي وغربي ، فهيمن على حركة المرور بينهما . وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتي اوربا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، في هيأة تحد ظاهر ، شبه جزيرة قلورية ، كأن كلا منهما يريد ان يمد ذراعه نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون في بعض الاحيان حكما ووسيطا ، ولتكون في كثير من الاحايين جسرا يعبر عليه اهـل الجنوب الى اهل الشمال ، او ينحدر منه اهل الشمال الى اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريبا » اى المثلث يفصله بحرا عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلو مترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، وعـرضه ١٢٠ كيلـومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقـلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقتطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، في اتجاه واحد جبال الابينان ، وتكاد تستانف منها في نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال في الشمال الافـريقي ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلي » ولا يسع الرائي يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واوربا كانتا متصلتين في غـابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقليـة ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما .»

تـرى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هـائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى عنان السماء قمتها ، وينزل الى قـاع البحـر اصلها ، ذلك هو فلقـان « الاتنـا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربى ، وانـه ليثور فى بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه فى اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة ودخانا كثيفا ، فلا يبقى حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن والقرى والدساكر ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضى ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحمأ المسنون ، فكان المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة وبين الانسان ، وكأن الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منها مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات ، والصبر على النائبات .

فاذا نحن أنحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك تتغير هياة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادى « ليريتو » ثم يبرز الى البحر فى جمال رائع ، راس اكروتشى .

ومن ثم نستمر فى انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخى الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخميدس (١) الاغريقى حيث اجتمع العلم والوطنية والتضحية فى ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية العديدة التى تعد فتحا للعنصر البشرى ، تراه يوالى اختراع آلات الدفاع لصد غارة الـرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطغيان بيد احـد الوحوش الرومانيين .

---

(١) من اكبر علماء البشرية على الاطلاق . ولد بسرقوسة وقتل بها (٢٨٧ - ٢١٢ ق.م) من اهم اكتشافاته . الثقل النوعى وان اى جرم شخل فى الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاحه من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الخالدة التى كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستحم ! فاخذه الـوجد بنشوة الاكتشاف وخرج من حمامه عاريا يجرى فى طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة المأثـورة EUREK, EUREKA اى وجدت ، وجدت .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلالى ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهنالك ينتهى الساحل الشرقى من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالى ذلك نحوا من ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبى فى حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهنالك ينصب وادى سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتى ذات الذكر الطويل فى تاريخنا العربى الصقلى ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربى فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعى والمروج ، حيث تقوم مدينة « مرصالا » ، ذات الرحيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ « طرابنة » اللطيف الشهير والذى سيمر بنا ذكره كثيرا اثناء البحث التاريخى ٠

عند راس كستيلا مارى ، تنحنى الجزيرة ويبتدىء الساحل الشمالى على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق ، فنراه ساحلا صخريا جبليا ، ونلاحظ فيه بادىء ذى بدء خليجا تام الاستدارة بهى الشكل ، بديع الاطار ، هو خليج «كستيلا مارى » ومن عجب انه لا يحتوى الا على بليدة « الكانو » الصغيرة وبعض اكواخ لصائدى الاسماك ، فان خرجنا منه وجدنا راس « دى قالو » ومن عليائه نشرف على جون مدينة بالرمة البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ، ومركز ادارتها الى يومنا هذا . ثم نستمر فى سيرنا مع سواحل صخر وجبال حتى نصل مدينة « مسينا » ذات البهاء والجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدأنا سيرنا حول سواحل الجزيرة ٠ فلنتجه الآن بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين فى جبالها وسهولها وانجادها واغوارها ٠

الجبال : ان جبل « الأتنا » ، هو أول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر فى صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ مترا ، من ذلك كان أكبر جبال النار فى أوروبا ٠ ولقد ادركه الهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامته بمشيب سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء ما فى قرارة نفسه

امام العالم حينا بعد حين ؛ اما مساحته فتبلغ نحوا من ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الافـواه الرهيبة التى يخرج منها على الدوام دخان يكون تـارة لطيفا وطورا كثيفا ؛ وتسمع منها زمجرة نـار الله الموقدة وهى تتميز من التغيظ ، فكان الصاعـد هنالك يشرف من عل على جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل ·

وجبل « الاتنـا » لا يكاد يتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى·

فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من الشرق الى الغرب وهى جبال صخرية جرداء قلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهـرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجـارة كلسية ، ومن انـواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهى سد طبيعى يحمى الجزيرة من غارات الشمال ، ويقيها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر ، وهى تعتبر امتدادا من وراء مضيق مسينا لجبـال الأبنين بايطاليـا ، وتعتبر ايضا ، تمهيدا لجبـال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنهـا تتكون بعض جبـال فرعية ، تنحدر من اعـلى الجزيرة الى اسفلها ، اهمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة « قصريانة » ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ مترا ، والجبال التى تنحدر صوب مدينة « جرجنتى »، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا ؛ وفى هذه الجبال ثروة ذريعة من الخزف ، والملح المعدنى ، والجص ·

وما بين هذه الجبال ، تجد وهـادا ونجودا ، وسهولا ضيقة خصبة ، وغـابات قليلة قفـرة · ·

الميـــاه : ان كانت ارض الجـزيرة تختلف بين الشمـال والجنـوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقى القاحل ، لا تكاد تجد به الا اوديـة ضئيلـة غير مستقيمة السير ، ومنها ما لا يبلغ عـرضه اكثر من متر واحد ، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هى تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كباقى الوشم فى ظاهر اليد ؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادى القنطرة ، وقـد احتفظ باسمه العربى هذا ؛ ويبلغ طـوله ١١٦

كيلومترا ؛ ويروى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع .

اما الساحل الجنوبى ؛ فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية : واهم هذه الاودية : وادى سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلومترا وحوضه نحو الالفى (كم) مربع .

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية ، اكبرها شانا بحيرة لنتينى فى مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلومترا مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا وبالتشى .

اما الامطار ، فمعدل نزولها فى السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المطيرة تبلغ ١١٢ يوما فى السنة .

المنـــاخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعية الجبال فيها ، بمناخ جميل ، وهواء معتدل ، وجو صاف ، بحيث انه ليس فى قارة اروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس ولطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهى عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غالبا فى شهر جانفى ؛ وخلال شهرى النمو فى افريل وماية ينزل من السماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكى حركة الزراعة والغراسة .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها هنالك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها ـ ولماذا لا تكون للرياح عادات كعادات البشر ؟ ـ انها تهب فى شهر افريل بصفة خاصة وعند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتى معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة فى بالرمة وسوادها نحو ٣٧ درجة .

أما معدل الطقس فهو فى بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعى هو ٢٦،١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدى » ومن اجل ذلك كانت مستقر

الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة ·

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التى اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Soufre ويوجد غالبا في مقاطعات الجنوب الشرقى ؛ فى « قالطانا سبتا » وجرجنتى و (قطانيا) وكذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلى ذلك فى الاهمية الملح المعدنى المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه ·

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامى ، وقبل ذلك ، مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التى تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة فى بناء السفن والمراكب · الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور ، وترك الحبل يجرى على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها ·

اما الثروة الزراعية فتلك هى نعمة الله الكبرى على الجزيرة ، وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيع ، مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور ·

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقى ، ولا يزال يوجد هنالك وافرا ، النخل الباسق الذى ينتج الرطب الجنى ، واشجار الليمون والنارنج والبرتقال والموز والزيتون ·

والجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطانى والكتان ، وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجى زيت الزيتون ·

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اروبا واجودها ، عند اهل الخبرة ·

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية ، تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع ، يستهلك الاهلون فى طعامهم الكثير منها ؛ ويصبر اغلبها ويوضع فى العلب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك

صناعة ذات بال .

السكان – لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالخرافات وتندمج الحقائق فى الاساطير ؛ لكى نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجرى من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام ، كانت اروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما .

وان كان لى ان ابدى رأيا فى الموضوع ؛ لا يعتمد الا على الحدس والتخمين ، فهو ان سكان المغاور والكهوف الذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية اطيب ، ومراعيها اخصب ، ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقى . وهذا البحث جدير بالاهتمام والدراسة .

انما الذى اثبته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية فى العهد التاريخى كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عمروا الجزيرة التى اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول = صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى .

ثم امت الجزيرة جموع وافرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوها على غرار مدنيتهم اللامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبرأس العالم المنير ؛ فابتعلوا فى بودقتهم كل العناصر الاخرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقى الاصيل او الاغريقى الصيقولى الاصل .

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فوق اديم الارض الصقلية فامتلات الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين

لكــل من الفريقين من عبيد وجند مــرتزق شمل اخلاطا من شعوب البــربر والقــوط والونــدال ٠

ثم ان الفتح الاسلامى قــد طبع البلاد بطابعه الخــاص ؛ فترك بهــا من سلالات العرب والبربر ما لا يمحى اثره ، او تنعدم شمائله ، كما ترك اهل الشمال النرمانيون اثــارهم كذلك بينــة واضحة ، كما تــركها من بعدهم الجرمانيون الذين اسسوا دولة « شواب » هنالك ٠

فالعنصر الصقلى اليوم ، مزيج من شعوب الشرق بين يونان وكنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين ٠ ولا تزال بالجزيرة جماعة لا شك فى اصلها الكنعانى ، تتكلم لسانها العربى المحرف على غرار اهل مــالطة ، ولاتزا لمحافظة على شىء من طقوس من دينها الوثنى القديم ٠

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها ، بله وتنازعها البقاء ثـم تشكل بقاياها فى صفة امة ، قوما اقوياء البنية قصار القامة ، نحيفى الإجسام، لا يــزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و ٦١ فى السواحل وميتر و ٥٠ فى داخــل البــلاد ٠

ولقد تغنى بعض الشعراء بجمال المــرأة الصقلية ، كما ضربت بجمال المــرأة الاسبانية الامثال ٠ انما كلتا المــرأتين لا تتميزان بشىء عن المـــرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا ٠

وليس للرجل الصقلى ما يميزه كثيرا عن الرجــل الاسبانى ، بل انك فى اغلب الجهات تكــاد تجده اسبانيا خالص السحنة : اعين سوداء لمــاعة ، وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى ، وخدود غائرة ، فهو بلاشك اقل جمالا من العربى الصميم ٠

وفى كثير من الجهات تجــد الشعــر الكستناتى والعيون الشهــل ، وتجد احيانا على قلــة الشعر الاشقر والاعين الزرقــاء وذلك فى الاوساط المثــرية الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا النرمان والجرمانيين ٠

والصقلى بصفة عــامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكــاؤه احيانــا دون

المتوسط ، وهو غير ميال لعلم ولا لفن ؛ وكانت الامية تغلب على البلاد بصفة مدهشة قبل الاستقلال الذاتي فهنالك تجد ، الخرافات موطنا خصبا ، والاعتقاد في القوى الطبيعية ومفعول السحر عظيم ؛ والعادات الوثنية قد تركت هنالك اثرا لم تستطع محوه يد الاسلام ولا يد النصرانية ٠

المجتمع : سكان صقلية اليوم يزيدون عن خمسة ملايين نسمة ، يتكلمون نوعا من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ، ويعيش الناس هنالك منقسمين الى طبقات اجتماعية ينفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئا محسوسا ٠ فالسواد الاعظم من الناس كان يعيش هنالك مع السلطة الطليانية الملكية مهضوم الحقوق مهيض الجناح فاقدا كل وسائل الحياة الشريفة ٠ ٠

هنالك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها ، تسرف في الترف وتنعم بملذات الحياة ، وتتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء؛ وترداد الاندية الفاخرة ؛ ثم هي تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعمال فلاحين لهم عليهم اغلب الحقوق التي كانت للامراء الاقطاعيين في القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثناءه ؛ تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيرا ما مد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التي يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقاومة الحكومة ان ارادت اصلاحا لايرضونه ؛ ومن التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة اذا ما تراكمت الضرائب عليهم ؛ وغير ذلك مما يطول ذكره ٠

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية اسموها « لامافيا » انتشرت في انحاءالبلاد ونشرت شرورها وآثامها ؛ وتلطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة لمآرب سافلة وارضاء لمطامع نفسية دنيئة ٠

وتحت هذه الطـائفة فى السلم الاجتماعى : تـوجد طبقـة المـديرين والمحصلين والسماسرة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملـة .

واخيرا فى اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحين وكانت تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرائى لها مثيلا ، الا فى روسيا قبل ثورتها الشيوعية او فى بعض جهـات الشمال الافريقى ايـام الاستعمار الفرنسى الفظيـع .

فالطبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجـر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفى لتمييزها عن بقية الحيـوان ، ثم تراها بعد ذلك ترزح تحت وطأة الضرائب العامة التى تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقلى كان افقر انسان فى رعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعة اضعاف ما يتحمله الطليانى من الاعباء ؛ ثـم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ كان يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ ياتمر طوعا باوامرهم وينتهى بنواهيهم ؛ كانه يعتقد دينيا بان الله خلقه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال فى المناجم والمعـادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حـالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت فى بعض الاحايين لفكرة الشيوعية؛ الى ان ضربتها الفاشستية الهوجاء فسوت بينها وبين بقية العمال فى ايطاليا تحت لـواء طغيانهـا . واستمر انين العمال خـافتا ؛ الى ان افلت شمس الفاشيستية ؛ وهاجمت قوات المتحالفين من انكليز واميركيين ارض الجزيرة، فلم يحرك اهلها ساكنا ، بـل تقبلوا الفاتحين بصدور رحبة ملت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكانهم قالـوا ان ليس فى الامكان اسوأ مما كان ؛ فمرحبا بالقادم الجديد ؛ علّه يصلح ما افسده الاقدمون .

وبعد كفـاح طويل ، نالت الجـزيرة ما كانت تصبو اليه من استقـلال

اداری ، وحکم محلی ، کما ستری فی الموجز التاریخی ، فانکب احرار صقلیة علی اعمال الاصلاح الذی شمل المیادین الاقتصادیة والاجتماعیة • ولا یزال مجال العمل امامهم فسیحا •



القسم الثاني

تـاريخ جزيرة صقلية من اقـدم عصورها الى اليــــوم

الفنيقيـون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد (١) توطن شعب الصيقول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها ، واسس ذلك الشعب المدن والدساكر، واصلح الارض ، ولم يقع اى تصادم بينه وبين رواد المدنية الشرقية بحارة فنيقيا من بني كنعـان ، وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانـوا يدعونها « المصارف » وبـواسطتها كانت اشعة انوار المدنية الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغربية ٠ وان المبادلات التجارية ولتعارف والتئالف حـول تبادل المصالح لأحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتآخيها فى سبيل التقدم الانسانى ، شتان بينهـا وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار ؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نيـر الاستعمار ٠

سلك الفنيقيـون هنالك مسلكهم فى بقية الحـوض الغربى من البحـر المتوسط فاسسوا بالجزيرة مـراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطيـة » وبانورم « بالرمة » و « صلديس » ٠

الاغـريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد ، بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوى المدنية الزاهية الزاهرة ، فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقى الجزيرة فعمروها واسسوا بها مدنا شهيرة مثل «سرقوسة» سنة ٧٣٤ ق م و « قطانية » خمسة اعوام بعد ذلك و «مسينا » حـوالى ذلك التاريخ ، واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتى عام الى سنة ٥٣٦ ق م ٠

---

(١) فى نفس الوقت الذى ابتدات فيه هجـرات الكنعانيين الفنيقيين الى المغـرب العـربى ٠

تدخل قـرطاجنة : تضاءل شان الاغـريق حيث كانت بـلادهم ميدانا للانقسام والتناحر حـول الحكم والمناصب ؛ وما كانوا يتورعون عن ايقـاد نيران الحـرب الاهلية فى ذلـك السبيل ؛ وكانت يومئذ مـدينة قـرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطع بدرا لا معا فى سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة القدم فى بلاد الشمال الافريقى ، تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيدا لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية ، واما أتقـاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ وقد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتى سردينيا وكرسكا .

لقد كان انتزاع يومئذ مستفحما بين الاغـريق والفنيقيين فى صقلية ، واصبح العنصران يتنازعـان هنالك البقـاء · فاغتنمت قـرطاجنة الفرصة وجهزت اسطولها يحمل جندا عتيدا تحت قيادة السبط « مالى »· وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفنيقيين فى الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على لبلاد · لكن السبط مالى اخفق فى انجاز مهمتيه· وتغلب عليه اغـريق الجزيرة فاخـلى ما احتله من البلاد ورجـع خائبـا الى قـرطاجنة ·

لم تكن الخيبات العسكرية تثنى عزم القرطاجنيين عن مداومة الكفـاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعـادة الكرة ، وارادوا قبل ذلـك ان يأمنـوا شر تدخل اجنبى فى الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق فى عزلة سياسية وحربية ، حتى لايجدوا معينا لهم فى البحر المتوسط ، فتعاقدت قرطاجنة مع عدو الاغـريق ، ملك الفرس « اكسرزيس » وتحالفت في نفس الـوقت مـع الرومانيين الذين لم يتالق نجمهم بعد فى سمـاء البحـر المتوسط ؛ ووضـع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم ·

جهزت قرطاجنة حملتهاالثانية تحت امرة «عملكرض بن ماغون » البرقى وارسلت به الى صقلية ، فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان

تصيب هذه الحملة الا كنصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع ؛ اما القائد فقتل ، واما الجند فاسر ، واما الاسطول فدمر ٠

وكانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها ومنعتها فلم يكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك وفي نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين في وقعة سلامين الشهيرة سنة ٤٨٠ ق‌م٠

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فنالته بعد لأي من الملك جيلون الاغريقى الصقلى ، وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدى الصنم ملك ٠٠٠

ولئن كانت الخيبة اليمة ، فقد كانت العزيمة عظيمة ؛ وما عتم القرطاجنيون ان جهزوا حملة ثالثة تحت امرة حنبعل بن عملكرض (هو غير حنبعل الشهير بطل الحرب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدوهم الامل ، وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار ، فنزل حنبعل الجزيرة ، واخترقها بجيوشه الجرارة ، ونكل برجال الاغريق تنكيلا ذريعا فذبح فى المكان الذى قتل فيه ابوه عملكرض ثلاثة الاف من مقاتليهم المأسورين؛ ووطد بعد ذلك سلطانه على نحو الثلث من الجزيرة ، ونال الفنيقيون المتوطنون هنالك فوزا عظيما ٠ ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية دينس اليونانى ، ملك سرقوسة ؛ نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم فى نصف من الجزيرة ٠

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت ؛ فما كانت تنقضى مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؛ وشنها على قرطاجنيين والفنيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرب معالمهم ؛ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا ٠

حاول السبط هملقون محاولة جريئة للأخذ بالثار ؛ وانقاذ ما يمكن انقاذه ، فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق فى عدة مواطن ، وكاد

يستتب له الامر نهائيا ، لو لا ان مددا عظيما جاء الاغريق من بـلاد اليونان ام الـوطن ، فدارت الدائرة من جديد عـلى رجال قرطاجنة وانتحر السبط ـ هملقون ـ بالاقلاع عن الطعام ، وهذه اول مرة فى التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثلا لأضراب الجوع الذى اشتهر فيما بعد فى تاريخنا الحديث باضراب الزعيم الارلاندى « ماكسويلي » شيخ مدينة يـورك وباضرابات زعيم الهند « غـاندى » المتوالية ؛ واضرابات احرار الجزائر الصناديد ايام حرب التحرير ·

وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ قم جميع ما امتلكته فى الجزيرة ، فاحتله الاغريق ·

لكن المحـاولة الخامسة لـم تبطىء كثيرا ؛ فجهزت قـرطاجنة القـائد « ماغـون » وارسلته صحبة جند ضخم واسطول قوى ، فامتلك الكثير من السواحـل الصقلية ، وثبتت هنالك اقـدام القـرطاجنيين الـذين اتصلوا بالقائدين صدربعل وعملكرض مـددا ؛ والقت قرطاجنة يـومئذ فى الميدان الصقلي باحسن ما كان لديها من جند وعتاد · واستمرت الحرب طويـلا فى الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ قم ، حيث استتب لهم الامر بكامل الجـزيرة ؛ لا بواسطة الحـرب والقتار ، بل بواسطة انقـلاب سياسى خطير ، ذلك ان الملك الاغريقى « هيارون » اذ راى نفوذ روما يقوى ويشتد ويتفاقم امره ، دخل تحت حماية قرطاجنة ، وتعاقد معها على دحر كل طارق جـديـد ·

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هى الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار ؛ فرات مثلما رات قرطاجنة من قبل ان امتلاك صقلية ؛ انما هو عمل اساسى من اجل تحقيق امانيها فى التوسع والاستعمار ، وان السلطان الرومانى لن يتحقق فى البحر المتوسط ، ما تم ينصب اعلامه من قبل فـوق اديم الارض الصقلية ؛ ومن ثم شجرت الحروب البونيقية بين روما وقرطاجنة ، فدامت ١١٨ عاما ؛ فى ثلاث دفعـات متوالية ؛ ابتـدات بصقلية سنـة ٢٦٤ وانتهت بتحطيم قـرطاجنة واعدامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ قم ·

كان السبب الظاهرى للحرب البونيقية الاولى ؛ وهي الوحيدة التى يهمنا امرها فى جـزيرة صقلية ، هو ان جماعـة من سكان ايطاليا كانوا يحتلـون مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت ـ حسب التعبير العسكرى الحديث ـ راس جسر مده الطليانيون فى الارض الصقلية ؛ واذ كانت روما قد شبت وترعرعت واصبحت تحلم بالسيادة البحرية ، راى القرطاجنيون ، كما رأى حليفهم الاغريقى ملك سرقوسة ، ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون خطرا يهدد الجـزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملـة داهمت مسينا ؛ فاستنجد اهلها ببنى جلدتهم الرومانين ، وكان هؤلاء لا ينتظرون الامثل هذه الاشارة ، فارسلوا عشرين الفا من خيرة رجالهم ؛ يقودهم القنصل « ابيوس كلوديوس » نزلوا مرسى رجيو ؛ وارغموا القرطاجنيين على فك حصار مسينا واطردهم عن ساحتها ، فاعتصموا ببعض معـاقلهم بعيدا عنهـا ؛ ثم لـوى الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقى هبارون فاضطروه للالتجاء الى معقله فى سرقوسة ، ثم فاوضوه فى نكث عهد القرطاجنيين • وقد راى رأى العين قـوة شكيمة الرومانيين ، وحسن نظامهم ، واقتنع بان الخسران سيكـون نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة ، فقلب لهم ظهر المجن واعلن محالفة رومة واخلص لها الولاء • وذلك سنة ٢٦٣ ق‌م ، ورجع القائد حنون القرطاجنى لوطنه مذموما مدحورا ، فاتهم هنالك بخيانة الوطن واعدم صلبا •

رأت قـرطاجنة يومئذ ، والحق ما رأت ، ان المسالة اصبحت تتعـدى صقلية ، وان الهدف الذى يرمى اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط ، وان الحـرب ان غـادرت الارض الصقلية فلكى تحـل بـويلاتها فى الارض الافريقية • ومن اجـل ذلك قررت وجوب التضحية بكل عـزيز فى سبيل الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية لقرطاجنة وارضها الافريقية ؛ فجهزت من أجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة « اقريجنت » ، وتصادموا حولها مـع جند الرومان تصادما رهيبا ، وما استطاعوا صد رجال رومة عن تلك المدينة،

فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقى من اهلها حيا ، وكانوا زهاء الخمسة والعشرين الفا ·

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بارض صقلية ، فان هذه الدولة التى أظهرت بهذه المناسبة ثباتا عز فى التاريخ نظيره ، ارسلت القائد صدر بعل سنة ٢٥٠ قم ؛ لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولأمداد معاقلها الباقية هنالك بالنجدات اللازمة ؛ فنال أول الامر فوزا وجيزا ، ثم دحره القائد الرومانى « ميتلوس » آخر الامر وكسره شر كسرة وقتل من جنده اكثر من عشرين الف رجل ، ورجع القائد المندحر لقرطاجنة حيث كان ينتظره الاعدام صلبا ·

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك، وقد اعتقد رجالها آخر الامر ، وعندما نضب معينهم ، ان صقلية قد افلتت من ايديهم نهائيا وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكد تخفق المحاولات النهائية اليائسة التى قام بها القائد عملكرض البرقى سنة ٢٤٢ قم ؛ حتى انسحبت قرطاجنة نهائيا من تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاما ، وانتهى بذلك أمر الحرب البونيقية الاولى ·

لقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت فيها تباعا زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومدخراتها ؛ كما كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق لبدر رومة الذى ازداد فيما بعد – طيلة قرون عديدة – نموا ولمعانا ·

الحكم الرومانى – اصبحت الجزيرة يومئذ من ممتلكات روما ، تابعة لها فى حياتيها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها فى ذلك العهد جزءا من تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطورية وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها انحدارها فى مهاوى الانحطاط والانحلال

شاركت صقلية روما فى حروبها الداخلية الفتاكة ، فنالها من جراء ذلك خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية الفظيعة ؛ فتنة

اوكتافيوس وبومباى ؛ حيث خربت المعالم وحطمت المدن ، وعمت النكبة سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لأعادة بناء مدنها وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافاقيين والعبيد •

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من العبيد يعملون هنالك كالانعام لفائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هى الوحشية بعينها ، رمت بهم الى احضان الثورة العنيفة مرارا ؛ فكانت ثورات العبيد الفتاكة ضد سادتهم ، سنوات ١٣٩ و ١٠٤ ق‌م و ٢٥٩ بعده ؛ من اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الرومانى •

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرقية ، ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين ونالها ما نالهم فى عصر الانحطاط والاضطراب ، من فتن فى الداخل ؛ وتدهور فى الاخلاق ، وانحطاط فى النفوس ، واخيرا السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اى الوحشيين •

صقلية الرومية ــ عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقى ؛ ونسفوا باعانة البربر فى سنوات قليلة كل معالم الرومانيين بهذه الارض مادية كانت او معنوية ؛ اصابتهم ممن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتح والتوسع ، فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنصريق ، واستحوذوا عليها دون عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها •

لكن ايام الونداليين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين اعادوا الكرة عليها ، واستخلصها القائد بليزار من ايديهم نهائيا سنة ٥٣٠م (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض البيزنطية ، اصابها اثناءها ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال الافريقى ، من فتن واضطراب ، وفساد فى الادارة ، وفتن ودسائس ؛ حيث اصبحت الرشوة هى القانون العام الذى يخضع له الموظفون واصحاب السلطة والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهى اشبه شىء بالخراب البلقع ، وذلك سنة ٨٢٧م •

صقلية الاسلامية ـ توطد سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتي تفصيله ، وتوالت علي الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ للفتح والسكني والاستعمار ، فبنوا فيها القرى والدساكر ، وعمروا بساتينها ، واحيوا حقولها ، واسسوا المدارس والمساجد ، وانشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة في اوروبا ، وادخلوا فيها كما رأيت في القسم الجغرافي ؛ اشجار الزيتون ولنخيل والليمون ولبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر بك في آخر الكتاب ، رغما عما كان يقع بينهم من فتن دامية واضطرابات ، ورغم الوقائع الحربية التى كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاتحين ممدنين ، مدة ٢٣٣ عاما ، هجرية (٢٢٤ عاما ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هـ.ج. ومن سنة ٨٣٢ الى سنة ١٠٥٦ م.

الا ان نفوذهم بقى عظيما قويا فى الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم عنها ، فكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويدبرون شؤون السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم ، ويشيدون المعالم والمعاهد ؛ والمعاهد فكانوا يومئذ يشتركون فى حكم الجزيرة اشتراكا فعليا ، حتى انه ليكاد يتقرر بان الزهى وازهر عصور المسلمين فى صقلية انما هو العصر الذى عملوا فيه اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون ، وكانوا حديثى عهد بالمدنية ، سيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، وتحلوا باخلاقهم ، وسكنوا مساكنهم ، واستعملوا في دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة يومئذ

---

(١) بعد اربعين عاما ، سنة ٥٧١م ازدان العالم بازدياد سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ ايام حكم كسرى انو شروان بالفرس ، وحينما كان ابرهة ملك الحبشة ، صاحب الفيل ، يحاول فتح مكة لتحطيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللبيت رب يحميه .

دولة نرمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ما ذكرنا سائرة لا محالة فى طريق الضعف والانحطاط والتدلي طيلة ١٩٣ عـاما ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الدينى ، فأخـرج الامبراطور افريدريك الألمـانى المسلمين عامة من الجـزيرة وانزلهم بالسواحل الأفريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او مـاتت هما وكمدا ٠

وهكذا اقام المسلمون من اهل الشمال الافـريقى بالارض الصقلية بين حاكمين ، ومشاركين فى الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاما : تفصيلها بالتاريخ الهجـرى :

مـدة الحكم الاسلامى (٢١٧ ـ ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مـدة الحكم النرمانى (٤٥٠ ـ ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النرمـان ـ النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اى الشمال قوم انحدروا من اعالى اروبا ، وخاصة من قطرى النرويج والدانمارك ، نحو جنوب تلك القارة وشرقها ، فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادى على بـلاد الشرق الاروبى وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تـدعى « روس »

فتوطنوا السهول حـوالى نهر « دنيـابر » وعمروا مـدن سمولنسك وكياف وغيرها من شهيرات المدن التى سارت بذكرها الركبان خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم تـوغلوا فى الارض ميممين شطـر الجنـوب الشرقى ، مقتحمين امبراطورية بيزنطة ، حتى وقفـوا تحت جـدران القسطنطينية ، ثـم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقـدامهم بالشرق الاروبى ، فاصبحت البـلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » ٠

ولقد كان لمقامهم بالغرب الاروبى ، ما كان لمقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب فى جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرساها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخـاصة نهر السين ، وهنالك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنـان من نهب وسلب ، وتخـريب معـالم ، وهتك حرمات ، لا يراعون فى مخلوق الا ولاذمة ؛ وابتدأ ذلك الخطب الوبيل حوالى سنة ٨٠٠ ، عند ما كان الامبراطور

شرلمان يتولى امر امبراطورينه الغربية ، وعند ما كان ابراهيم بن الاغلب يؤسس في افريقيا دولته المستقلة ، ضمن دائرة الخلافة العباسية ٠

واما ملك الانكليز الفريد الكبير ، فقد اوقف تيار هجرة النرمانيين الى بلاده بواسطة معاهدة عقدها مع كبرائهم ، بدل في سبيل تحقيقها غالى الثمن، واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز الى حين ٠

اما شارل الاصلع ملك فرنسا ، فقد أخذ يحدو حذو الانكليز ، ويشترى بالثمن الفاحش مرة بعد اخرى ، انسحاب النرمانيين من بلاده ٠

ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدا من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ مثلا له في حطته ودناءته : سمح لهم مقابل فك الحصار عن باريس بنهب مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة ، ولا تسل عما وقع هنالك من فظائع واهوال ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) ٠

واخيرا تعاقد معهم نهائيا ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف بحر المانش ، وهي التي اتخذت منذ تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « نرمنديا » وهي اليوم من ازهر وابدع جهات فرنسا ، وفي مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالتبعية لملك فرنسا ، فتأقلموا في البلاد وانتهى امر عدوانهم ٠

---

(١) كان من نتائج اعمال النرمان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها هياة « السادة » الاقطاعيين؛ واصبح لهم النفوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛ فاخذ الاغنياء ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاسوار المنيعة والخنادق العميقة ، وكلما تم بناء قصر ؛ امته جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتمت به ، فكان سيد القصر يبذل حمايته لتلك الجموع ويجودها في الحرب مقابل اطاعتها له واذعانها لأوامره ، وازدادت تلك الطاعة مع مرور الزمن حتى اصبحت عبودية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ، ومن جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ وتعاظم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى اصبحوا اشبه شيء بالملوك المستقلين ، ومنهم من نما سلطانه واستقل فعلا وبتر علاقاته مع الملك ، وامتلات القرون الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة الهمج ٠ وكان لهم خلال العدوان الصليبي على بلاد الاسلام شأن كبير ٠

الا ان اغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثرا ؛ هى غزوتهم لجزيرة صقلية ، وغزوتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نرمنديا ، المولود بمدينة فاليز من مدنها التى لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها فى موقعة هاستينق التى كانت اعظم انتصار تحصل عليه النرمان فى تاريخهم ، فبايعه الانكليز ملكا عليهم فى مدينة لندن ، واحاط عرشه بسياج متين من الاشراف واللوردات وكبار الامراء ؛ فطبع بلاد الانكليز بطابعه الخاص الذى لا يزال الى يومنا هذا موجودا، رغم تطور الزمن ٠

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من النرمان فى الجنوب الاوروبى ؛ قد وطدوا ملكهم على انقاض ممتلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفى سنة ١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجى (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق الارض الصقلية لمحاربة المسلمين والقضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتحطيم آخر مقاومة حربية اسلامية ؛ وقد كان حينئذ الامير روبير ، شقيق الملك رجار ؛ قد مد سلطانه فى ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولى ٠

تولى الملك فى صقلية سنة ١١٠١، الملك رجار الثانى الحكيم ، وكان فى اعماله وفى تصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة فى عهده اوج عزها ومنتهى

---

(١) من غرائب الصدف ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان تاريخ ابتداء تلك الحملة الشعواء الهائلة ، التى شنتها المسيحية على الاسلام : والتى تعرف بالحروب الصليبية ٠ فقام المسيحيون فى كامل البلاد الاروبية يحدوهم التعصب الاعمى تحت تأثير بطرس الراهب ؛ والبابا اوريانوس الثانى ، وكانت نتيجة الحملة الاولى من هذه الحرب الوحشية ، احتلال بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان المسلمون قد التجأوا الى مسجدها الاعظم عندما اندحر جيشهم المؤلف من اخلاط الترك والعرب ، فاقتحم الصليبيون المسجد ، وذبحوا فيه وفيما حواليه سبعين الفا من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كالاودية بين الازقة والطرق ٠ وقد استرجع البطل الاسلامى صلاح الدين الايوبى بيت المقدس من الصليبيين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران قرطاجنة . وتحت ضربات المستنصر بالله الحفصى سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر معاقل النصارى فى بلاد الشام بايدى المسلمين ، وبذلك انتهت المطامع الصليبية التى لطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مائتى عام فى ثمان حملات ٠

سؤددها ، ونال من البابا ١١٣٠ لقب ملك « الصقليتين » .

مملكة الصقليتين ـ كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد الطليانية الى شمالى مدينة نابولى ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة كيانها الذاتى ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد الطليانية .

لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفتية الناشئة هو عصر الملك رجار الثانى الآنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين وعلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التى بثت علوم المسلمين فى كل انحاء ايطاليا ، وبقية البلاد الاروبية ، وكانت عن حق اساس النهضة الاروبية الحديثة .

الحكم الجرمانى ـ لكن صقلية النرمانية الاسلامية سقطت سنة ١،١٩٤ تحت سيطرة اباطرة المانيا من عائلة السواب الجرمانية ، واصبحت قسما من تلك الامبراطورية التى تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين . ومن اشهر اباطرة هذه الدولة افريدريك الثانى ، فقد اعاد تنظيم الدولة وأسس لها مؤسسات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اروبية فى عصره (١٢٢٢ ـ ١٢٥٠) وكان بلاطه الملكى فى بالرمة بفضل العرب اشهر بلاط فى بلاد اروبا ، وقد عمر الدولة مدارس ومعالم ، واختط المدن والقرى واكثر العمران ، وكان ميالا للعلوم والفنون والآداب ؛ وسأتيك شيء من تفصيل حياته الغريبة .

اخراج المسلمين ـ الا انه الى جانب ذلك ، جنى جناية على صقلية قاست ـ ولا تزال تقاسى ـ من جرائها الامرين ؛ ذلك انه بعد سيرته الحسنة الطويلة مع المسلمين ، اراد ان يوحدها فى المسيحية ؛ وان يخرج منهاالطائفة الاسلامية القليلة التى بقيت بها فاركب جميع المسلمين البحر ؛ واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرها واشدهم عملا واكثرهم مدنية ؛ (١) واكبر دليل على ذلك ، هو ان الدولة اخذت فى الانحطاط والتدلى عندما تم ذلك الحادث الجلل ؛ واخذت او صالها تتفكك ، وتطاول الادعياء عليها فانهار بنيانها ، واغتنم البابا كليمون الرابع فرصة ذلك الانهيار

فافتك الدولة من ايدى النرمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسى شارل دانجو شقيق الملك لويس التاسع ، المعروف باسم القديس لويس الذى حارب المستنصر بالله الحفصى فى الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة تونس •

وانه لمن رائب الاقدار ، ان دولة النرمانيين ما عاشت فى صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افتكت البلاد منهم ؛ فلما اخرجتهم من البلاد انهار ملكها ودالت دولتها •

مذابح صقلية ـ كان عهد الفرنسيين بمملكة الصقليتين عهدا ثقيل الظل غير مرغوب فيه • فالملك شارل ابتدأ امره جاهلا عادات البلاد وتقاليدها ، فجرح احساس القوم ، واثقل الضرائب بصفة فاحشة ، واخذ يسحوذ ظلما وعدوانا على املاك الرعايا ويوزعها على رفقائه الفرنسيين ، فكانت نتائج كل ذلك ان عمد اهل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين فى وجه الطاغية الظالم وانصاره ، وتلك الثورة تعرف فى التاريخ باسم (صلاة العصر الصقلية) « Vepres Sicilienne » : ذلك

لانها انفجرت يوم عيد الفصح فى سنة ١٢٨٢ (١) وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين هى قرع نواقيس الكنائس ايذانا بصلاة العصر المسيحية ؛ فانقض الصقليون على الافرنسيين وقتلوهم حيثما ثقفوهم ؛ وعلى الاخص فى مدينة بالرمة حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افظع واقسى ما رواه لنا التاريخ • وكان الزعيم يوحنادى ابروتشيدا هو الذى تولى كبر الثورة واشرف على تنظيمها • واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق فى الادب على كل مؤامرة تنتهى بمذبحة عامة •

دام الاضطراب بعد ذلك فى كل جهات الجزيرة ، وعم بها الخراب

---

(١) واقتدى به من بعد ملوك اسبانيا ، بعد سقوط غرناطة ؛ فابعدوا المسلمين كافة (ثلاثة ملايين) خلال قرن ونيف ، وقضوا بذلك على العلم والعمران واوقعوا البلاد فى وهدة الجهل والخراب .

والدمار ، فاستنجد الصقليون عائلة ارغون الحاكمة في بلاد الشرق الاسباني (٢) ، فانجدتهم ضد الفرنسيين ، الذين ثبتوا في الجنوب الايطالي، وكان خلفاء الملك شارل الفرنسي يتخبطون في دياجير الدسائس والفتن والاضطراب ، وذاقت صقلية بعض الراحة تحت حكم الاسبانيين ·

الحكم الاسباني ـ ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة اراغون فيما كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم الارض الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٣) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالي، فمحقوا خيال الحكم الفرنسي فيه ؛ واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما كانت اول مرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء الارض ، ودام ذلك الفساد نحوا من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات ارض الجزيرة وانمحت منها معالم المدنية التي شادها المسلمون هنالك والنرمانيون ·

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين في مملكة الصقليين ، وما قضوا على آثار الاضطراب القديم الا حوالي سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال في صفو نسبي خلال مائتي عام ؛ اخفقت اثناءها دولة النمسا في محاولة نصب سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسباني الا ايام ظلمات لم يقع اثناءها اي اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاولتها بعض ملوك البربون ·

---

(١) سنة ١٢٩٩ · استقل الامير عثمان التركي في قطعة من بلاد آسيا الصغرى وانشا على انقاض المملكة السجلوقية الواهية ، السلطنة العثمانية الكبرى التي شغلت كامل التاريخ الحديث الى سنة ١٩٢٢ ·

(٢) وقع ذلك بمدينة « القالة » على الساحل الشرقي الجزائري ، حيث قام الاسبان باول محاولة لاستعمار المغرب الاوسط ، في القرن الثالث عشر .

(٣) في هذه السنه اعاد السلطان محمد الاول العثماني بناء السلطنة العثمانية بعد ان هد اركانها الطاغية التتري تيمور لنك ، في واقعة انقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ ؛ حيث سقط المجاهد العظيم بايزيد الاول اسيرا ، وتنازع اولاده الامر بعده مدة عشرة اعوام ·

الجمهورية ــ انبثق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهبت نيران الافكار الجديدة ؛ وسرى تيارها فى مختلف البلاد ، وهب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيوبى ، شيخ مدينة نابولى ، واعلنوا اعتناقهم تلك المبادىء السامية الخلابة ، مبادىء اعلان حقوق الانسان ، والتساوى بين عامة البشر ؛ وان لا حكم فى بلاد الا للامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة ٠

انما حركة الرجعيين كانت قوية عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان الكنائس ، امراء الاقطاع ، ورؤساء الطوائف ، امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم وبجاههم وبامتيازاتهم الفاضحة، فتحزبوا زمرا واشتروا باموالهم جماعة من اللفيف والرعاع يخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية فنسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه مؤيدا من قبل الاميرال الانكليزى الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالد ومحطم اسطول بونابرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين ، وارهف سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف راس ، وسجن منهم نحو الثلاثين الفا ونفى من الارض حوالى السبعة آلاف نسمة ٠ تلك كانت اكبر نكبات صقلية فى العصر الحديث ٠

بونابرت ــ تدخل نابليون بونابرت فى المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق فى الغرب الاروبى ؛ فاعلن خلع العائلة الاسبانية التى لم يبق بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه جوزاف ملكا على دولة نابولى ؛ ولقد حاول ملك نابولى الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانيين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولى تحت امرة بونابرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة

---

(١) خلال هذه الحوادث فى ٢٩ من شهر ماية سنة ١٤٥٣ ، وقع الحادث التاريخى الجسيم : استيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح ــ قدس الله روحه ــ على مدينة القسطنطينية العظمى ٠ ودخل الاسلام اروبا من جهة الشرق واستقر بها راسخا متينا الى يومنا هذا والى ان يرث الله الارض ومن عليها . وقد اتفق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابتداء التاريخ المعاصر الحديث . وبعد اربعين سنة من ذلك ، اى سنة ١٤٩٢ ، سقطت مدينة غرناطة بايدى الاسبان ، وانقرضت بذلك دولة الاندلس الزاهرة .

الفرنسية ، بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال .

لكن ايام جوزاف بونابرت لم تدم بمملكة نابولى طويلا ، فاندحار شقيقه نابوليون وانسحابه مرغما من ميدان السياسة الاروبية قد جعل عرشه واهي الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الاعداء ولا الاستنجاد بالنمساويين شيئا ؛ ونادى بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح ، وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فردناند ملك صقلية الى الارض الطليانية واعاد « مملكة الصقلتين » سيرتها الاولى ، وأرجع لأصحاب الكنيسة ورجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالافكار الحديثة ، وقد تركت فكرة الجمهورية فى نفسه اثرا ، فسادت جمعية « الكاربونارى » اى الفحامين السرية ، واخذت تفتك بالظالمين وتبطش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع البرلمان الشعبى لأول مرة فى مدينة نابولى .

عهد الظلمات ــ اغتنم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية ومعقل المستبدين ، فامدته بجند كثيف دخل على رأسه محاربا جنود الحرية فدحرهم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد ، وارسل الى الموت والى التعذيب وبطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بئيسة

---

(١) كان السلطان محمود الثانى العثمانى يقاسى ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهابية ببلاد العرب ، التى اخمدها بشدة طوسون بن محمد على والى مصر (سنة ١٨١٣) ؛ ثم ثورة بلاد البانيا ، وقد حاول السلطان ادخال الاصلاحات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعدم فرق الانكشارية الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد على باشا في مصر واقتحامه بلاد السلطنة حتى قونية ؛ وحرب اليونان ؛ وتحزب فرنسا وانكلتيرا وروسيا ضد تركيا ؛ تحطيم الاسطول الاسلامى فى معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يخفق فى كل اعماله ؛ واخذ تدهور السلطنة العثمانية يتفاقم امره تحت معاول اوربا ، وبمساعدة سائر العناصر المسيحية فى البلاد .

دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل ، وايام ابنه الذى خلفه في الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ ـ ١٨٣٠) (١) وكذلك ايام فرديناند الثانى بن فرنسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده فى محاربة الحرية والاحرار ، وبطش بطش الجبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١ ـ ١٨٣٧ ؛ فقمع حركتهم وشتت شملهم ·

انما ـ هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل المدوى ؟ فكانت نتيجة هذا الطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (١) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعلنت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وفظاعتها متوالية ؛ وخراباتها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم ·

غاريبالدى ـ ما مآل الظالمين الا السقوط والانهيار ، فان رجال الثورة الاحرار؛ هبوا من جديد يحدوهم الامل فى نسف قلاع الاستبداد؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفظاعة الاستعباد ومرارة التنكيل والاضطهاد ·

ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب فى طريق الحرية ، هو غاريبالدى الشهير ، فدحر الثائرون الاحرار جنود الملك فرنسوا الثانى ، حتى الجأوه للفرار صحبة آله وذويه ·

وكانت ايطاليا يومئذ قد وحدت صفوفها وجمعت كلمتها تحت امرة الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيها الاكبر « كافور »

(١) كان يتولى ملك فرنسا يومئذ الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن فى خنق الحرية وضيق على الناس ، حتى اخذت بوادر الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربى يستطيع الثبات ؛ فارسل جندا وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (٥ يولية عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . لكن ذلك النصر لم يغن عنه شيئا ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة فى ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة الماجدة » وذلك بعد اربعين يوما من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(١) فى ٢٤ فيفرى من هذه السنة ؛ اسقط الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التى ما عتمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية . نظرا لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجاع امبراطورية نابوليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث .

دولة فتية ، فامدت الثوار الغاريبالديين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبثت في البلاد دعاية نشيطة في سبيل الانظمام للوحة الطليانية ، ففي اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اى بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقع في صقلية استفتاء شعبي كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها في الانضمام للوحدة الطليانية ٠

الحكم الطلياني ـ انما لم تكن صقلية سعيدة الحظ في وقت من الاوقات وهي قابعة تحت السيادة الطليانية الجديدة ٠ فالضرائب الثقيلة والاتاوات الباهضة حطمت جهود الشعب ، واضطرته لاعلان الثورة مرارا ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم الثوار مراكز جمع الضرائب واوقدوا فيها النيران؛ ثم نكلت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطلياني؛ وضاقت على الصقليين الارض بما رحبت ، فلجأوا الى الهجرة افواجا نحو البلاد التونسية او اميركا الجنوبية وغيرها من البلاد . وشارك الصقليون الطليانيين في اعتدائهم الاول على بلاد النجاشي منيليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذى انتهى بكارثة « عدوة » المخجلة ؛ كما شاركوهم في اعتدائهم الاثيم على ولايتي طرابلس وبرقة العثمانيتين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرات ، وشاركوهم في الحرب العامة الاولى ، وفي الاعتداء الثاني على بلاد الجبشة ، وفي الحرب الاثيمة العالمية الثانية ٠

انما لم تنل صقلية اثناء كل ذلك ، سواء خلال الحكم الدستوري او الحكم الفاشيستي ، اى اصلاح جوهري يغير نظامها الاقتصادى الاقطاعي ويجعل للفلاح وللعامل فيها مركزا اجتماعيا معقولا بتمكين الاول من الارض وتثبيت الثاني في المصنع ، فكان الصقليون يتأففون من الحكم الطلياني انما يعجزون عن خلع نيره والثورة في وجهه ٠

فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الالمان والطليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان والطليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل تقبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد وربقة الاستعباد • وما كاد ينهار الحكم الفاشيستى البغيض فى ايطاليا حتى ابتدأ رجال صقلية الاحرار يفكرون فى مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال ادارى واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسؤددها ايام المسلمين والنرمان •

وحركتهم هذه سائرة فى طريق النجاح ، اذ اعترفت الحكومة الطليانية لهم فى اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقع توسيعها فى العشرين من نفامبر ١٩٤٥ حتى اصبحت شبه استقلال داخلى •

وان حبنا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذى ذاق مرارة الاضطهاد قرونا مديدة ، والذى تربطنا به ذكريات عديدة ، عهدا جديدا كله حرية وسعادة ومحق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لعزيز الآمال •

واننا بهذه المناسبة لنقول فى كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه هيهات ان يستقر فى العالم السلام وان تنتهى الشحناء والاحن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قويها وضعيفها كبيرها وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون فى ميادين الثقافة والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب •

القسم الثالث

امهات المدن والقرى بصقلية
ومعالمها آثارها

بالرمة

من امهات المدن قديما وحديثا ؛ ومن اجل واجمل الحواضر فى كل الاقطار والامصار ؛ جمال في المناظر ، واعتدال فى الطقس ، ومياه دافقة ، وحدائق وخمائل ، ومروج وبساتين ، وقصور شاهقة ، ودور فسيحة الرحاب ، وآثار باقية مما تركه السلف للخلف ·

كان اسمها اليونانى « بانرموس » وكانت مدينة كنعانية قرطاجنية حسا ومعنى ؛ ولقد رأينا فى المقدمة التاريخية مدى ما بذلته قرطاجنة من جهد عنيف للاحتفاظ بالجزيرة وجوهرتها الفريدة · لكن بالرمة وقد استحوذت عليها روما لعدة قرون ، قد احتفظت بمركزها الممتاز واصبحت من المع دور التاج الرومانى · انما قد بلغت بالرمة اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ، عندما اتخذت منها الامراء المسلمون ثم ملوك بني المحسن ، عاصمة لملكهم ؛ واصبحت مركزا من اهم مراكز الحضارة والنور بالبحر المتوسط ، وارتفعت بتجارتها وصناعتها وعلومها الى مصاف عواصم الاسلام الكبرى ·

يسكن هذه المدينة اليوم نحو من ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ؛ حول مرسى هو من اهم مراسى ايطاليا · وقسمه القديم يدعى الى يومنا هذا « القلعة » la Cala على مقربة من آثار القصر العربى القديم « قصر العمارة » Castellammare

ولم تبق حادثات الايام والحروب المتوالية على كثير من آثار الكنعانيين القرطاجنيين ، ولا من آثار الرومان والعهد الاسلامى ، الا ان آثار النرمانيين وهى من انشاء العرب قد بقيت قائمة الى يومنا هذا شاهدة بعظمة وحسن ذوق منشئيها · وفى بالرمة العتيقة لا تزال حارات عديدة تحمل الطابع

الافريقي على شكل مدننا الاسلامية بهذا الشمال ، ولا تزال هنالك حارة تدعى «Attarini» كانت بلا ريب حارة او سوق العطارين ٠

قصر الفوارة - هو من اهم آثار بالرمة الاسلامية ؛ ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمان بن ابى العباس حينما يقول :

فوارة البحرين جامعة المنى * عيش يطيب ومنظر يستعظم

يقع هذا القصر الشامخ الذرى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاث ، ولقد شاده وبالغ في زخرفته الامير جعفر ؛ من ملوك بنى الحسن ، فيما بين سنتى ٩٩٧ و ١٠١٩ ميلادية ، واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقرا للترف والتنعيم ٠

وعندما ضرب الدهر بضرباته وتحطم سلطان المسلمين هنالك ، اصبح قصر الفوارة مقر اللهو واللعب والخلاعة لملوك النرمانيين ومن تبعهم ؛ ثم اخنى الدهر على هذا القصر عندما اصبحت الجزيرة العوبة بين ايدى الغاصبين من ملوك اوروبا فلم يبق منه اليوم الا الخرابات وكنيسة صغيرة شادها المسلمون للملك رجار وبعض اقبية وغرف ؛ وحوالى القصر لا تزال ترى البناء الذى يحيط بالبركة الصناعية ليحبس بها الماء ، ولا تزال ترى الحنايا الاسلامية الثلاثة التى كان الماء يجلب عليها للبركة المذكورة ٠

قصر العزيز - ويدعوه الأروبيون لازيزا la Ziza شاده ليتخذ منه مقرا لملكه وسلطانه ، الملك غليام الاول فيما بين سنتى ١١٥٤ و ١١٦٦ م ، بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعمارى الاسلامي ، ولقد ابقت الايام على اكثره ، ولم يحل به ما حل بقصر الفوارة من التخريب ، وهنالك ماشئت من باهر الاقواس الهندسية وبديع النقوش الخلابة والكتابة الكوفية على النمط الهندسى حول الابواب والعقود ، وعيون جارية تغذى فوارة فى وسط البهو الاكبر ثم يتكون من ذلك سيل لطيف من الماء يخترق القاعة ثم يختفى تحت ابوابها ٠

قصر القبــة ــ هو بناء على شاكلة قصر العزيز ، اتـم صنعه البناؤون المسلمون حوالى سنة ١١٨٠ م ، ولقد تحطم اكثره ويالللاسف ، ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد ، وعلى بعض الجدران ترى آثار الفسيفساء البديعة التنسيق ، وكتابة على النمط الكوفى ذات جمال خلاب ، ونقوش مدهشة على قواعد الرخام ، ومن اجمل ما ابقت عليه عوادى الايــام بهذا القصر قاعة القبة ، وهى حسبنما يـدل عليه اسمها قاعة فسيحة الارجاء تعلوها قبة منمقة بنقوش خلابة من الرخام الصناعى ٠

الكنيسة الكاتدرائية الكبرى ــ هى من اهم بدائع الفن والجمال ببالرمة شيدت سنــة ١١٨٥ على يــد صناع من المسلمين ؛ وكانت خليطــا من الفن العربى والفن الغربى ، انما تغلبت عليها الصبغة العربية ٠ على ان قسما منها شيد على انقاض مسجد جامع لا تزال هيأته على حالها تقريبا ٠ وعلى ابوابها وبين اقواسها وسمت بالجص آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى ٠

القصر الملكــى ــ آيــة خالدة من آيــات الفن والجمال ، انشأه الملــوك المسلمون فكان مقر الدولة والامارة ، ثم استقر به ملوك النرمان بعد ذلك ، فزادوا فى مساحته ، واضافوا اليه بواسطة البنائين المسلمين اقساما اخرى، ولا يزال قائم الذات يذكر الخلف الغافل، بعظمة تاريخ السلف الحافل.ومن روائع ولا يزال قائم الذات يذكر الخلف الغافل ، بعظمة تاريخ السلف الحافل ٠ ومن اقسام هذا القصر الملكى : الكنيسة الصغرى التى ابتناها العمال المسلمون بامر الملك رجار الثانى ، فيما بين سنتى ١١٣٢ ــ ١١٤٠ ، فهى درة وضاءة وسط عقد الآثار الاسلامية الخلابة ، ومن ابدع ما يراه قاصدوا بالرمة ، تشد اليها رحال السائحين من كل قطر ؛ ومن اغرب ما يراه المشاهد هنالك سقف بديع الشكل يخلب الابصار ، وهندسة غريبة فى بناء النوافذ ، تكسب النور حينما ينعكس بعضه عــلى بعض رونــق الموسيقى وروعــة الشعر الرقيق ، ولا سبيل للاطناب فى وصف ما هنالك من نقوش على الجص : (نقش حديدة) وفسيفساء خلابة الالوان ٠

ومن جملة البدائع المحفوظة بهذه الكنيسة الفنية ضمن ذخائرها الغنية

صندوق من صنع المسلمين كله قطعة من عاج منقوش ؛ وعلى مقربة من القصر الملكي وكنيسته توجد كنيسة القديس يوحنا ، وقد بناها الصناع المسلمون كذلك بامر الملك رجار الثاني ؛ على النمط العربي الخالص ، وضمن هذه الكنيسة يوجد مسجد اسلامي قديم دخل في صلب الكنيسة وبقي على حاله غير متنافي في هندسته مع ما اضيف اليه ·

المتحف الكبير ـ من أجل ما يرى ايضا بباترمة متحفها الاثري الرائع الذي جمع فاوعى : قيمة فنية كبرى ، وجمال عرض وبديع تنسيق ، وفيه قاعة اسلامية عربية عرضت فيها بدائع ما تركه الصناع المسلمون هنالك من تحف نادرة وطرائف ثمينة من اواني وزخارف حديدية وبدائع من الخزف والبلور والرخام وغير ذلك من ادوات المنازل وكماليات الترف والنعيم .

هذا علاوة على ما في المتحف المذكور من آثار الكنعانيين والقرطاجنيين ومن آثار الاغريق والرومان والنرمان وغيرهم ·

وفي بالرمة ، دون ذلك ، عدة من متاحف اخرى تتعلق بالتاريخ الصقلي ؛ وفيها المكتبة البلدية التي تشمل ما يزيد عن مايتي الف مجلد ، منها نحو الثلاثة آلاف مخطوط ·

ضواحي بالرمة ـ على نحو ستة اميال من بالرمة توجد مدينة القاموق الاسلامية الاصل والتي احتفظت باسمها فهي تدعى اليوم Alcamo وسكانها يتجاوزون الخمسين الفا ، وحاراتها القديمة تذكر بايام المسلمين ؛ وعلى نحو الخمسين ميلا من بالرمة توجد مدينة الزقاق ، وقد احتفظت باسمها كذلك فهي اليوم Siacca وهي من اهم المدن الاثرية الصقلية ، لا يزال اغلبها على حاله كما كان ايام دولة المسلمين ودولة النرمان ·

مسينا

من اهم المدن الصقلية واجملها موقعا ؛ يسكنها اليوم ما يزيد عن نسمة ؛ ومرساها من اوسع مراسي البحر الابيض المتوسط واكثرها حركة ،

وتحيط المدينة بالمرسى في استدارة بديعة ؛ حيث ترى عقدا ثمينا من القصور الخلابة الجمال يحيط بجيد حسناء فاتنة • لكن نكبة مؤلمة اصابت المدينة سنة ١٩٠٨ (٢٨ دسامبر) حيث اغتالها زلزال رهيب دام ٣٢ ثانية ، فحطمها تحطيما فظيعا وفتك باهلها فتكا ذريعا ؛ فمات فيها وحواليها ما يزيد عن المائة الف نسمة ؛ ثم استرجع الانسان حقوق حياته ، فاعاد بناء المدينة على انقاض الخرابات ، واصبحت مسينا الحديثة تكاد تعادل مسينا العتيقة بهاء ورونقا وجمالا ، ولهذه الحادثة يشير شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله حيث يقول في وصف المدن الصقلية الطليانية :

ارضها جنة ، وحور ، وولدا * ن ، واستبرق ، وملك كبير
تحتها والعياذ بالله نار * وسعير ومنكر ونكير

وليس في مسينا ما يدل على انها بقيت بعض قرون مركزا من اهم مراكزالعمران الاسلامي بصقلية ، ولعل الحروب المتوالية فيها وفيما حواليها بين المسلمين والروم ؛ وبينهم وبين الايطاليين ، ثم النرمانيين قد جعل آثار المسلمين هنالك منعدمة الوجود •

من اعجب ما في مسينا ؛ مقبرة ضحايا الزلزال اوذكور آنفا ، فقد جعلت هذه المقبرة في ابدع مكان مشرف على المدينة ، يرى منه منظر قد اتفق الباحثون على انه من اجمل مناظر ايطاليا وصقلية معا ، وغرست فيها حديقة جمعت في تناسق بديع كل انواع الاشجار والزهور والرياحين •

ومن اهم ما يرى بها متحفها الفني الفني ؛ وليس به الا القليل النادر من آثار المسلمين ومنها في الصالة رقم ٥ صندوق بديع الصنع حسن التركيب •

شيفالو

اما سيفالو ؛ فهي مدينة صغيرة يسكنها جماعة من الصيادين ، لا يتجاوز عدد سكانها ، انما تمتاز بوجود كنيسة كتدرائية هي بلا ريب اجمل واقدم كتدرائيات صقلية ، امر ببنائها الملك رجار سنة ١١٣١ ، وابتناها كما ابتنى

غيرها في ذلك العهد البناؤون المسلمون ، وبالغوا في زخرفتها وتنميقها ، وفيها اقدم واجمل فسيفساء بالارض الصقلية • وتجاه الكنيسة متحف صغير بديع فيه مجموعة كاملة من النقود الصقلية في مختلف العصور ؛ ومن بينها بل ومن اهمها النقود الاسلامية • وعلى نحو ميل من المدينة وفوق صخرة ترتفع ٣٦٩ مترا توجد آثار قصر وصهريج من آثار المسلمين •

ترميني

واما مدينة ترميني ولا تبعد عن بالرمة الا ١٩٦ ميلا فهي تكاد تكون مدينة اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها وطريقة العيش فيها ، كثيرة الحركة فيها حمامات حارة وفيها متحف بلدى يضم كثيرا من الآثار والنقوش والنقود الاسلامية •

مازرة

ولم يبق بها ما يكشف الستار عن ماضيها الاسلامي الحافل لو لا ما يدل على مشاركة البنائين المسلمين في اقامة هيكل الكاتدرائية وبعض الكنائس الصغرى التي أنشىء اكثرها على انقاض المساجد الاسلامية عندما دالت دولة المسلمين هنالك •

مرسى على

كانت هذه المدينة ايام المسلمين من اكثر المراسي حركة واكبرها تجارة لانها كانت نقطة الاتصال بين صقلية والبلاد الافريقية وقد فقدت المدينة اهميتها منذ انقطعت الصلات بين القطرين ، التونسي والصقلي ، فلم تبق لمرسى على الا اهميتها الخمرية ، وذكرياتها التاريخية •

تجاه مرسى على ، وعلى بعد نحو ٨ كيلومترات منها توجد جزيرة معطية القرطاجنية التي سبق ذكرها في المقدمة التاريخية وكان المسلمون يدعون

هذه الجزيرة « المعزية » ولقد اجريت حفريات في هذه الجزيرة ووقع اكتشاف الكثير من آثارها القرطاجينية ومرساها العتيق ٠

اطـرابنش

تستدير هذه المدينة حول مرساها في شكل هلال ؛ وليست بها حركـة تذكر كما انـه لم يبق بهـا مـا يذكر بايام المسلمين ، لولا ما هو مـوجود بمتحفها من قطع النقود الاسلامية وبعض اقمشة من صنع المسلمين ٠

قلعـة النساء

لـم يبق لها من القـديم الا الاسـم ، اشتهـرت اليوم بتجـارة الكبريت لايشتغلون سكـانهـا الا بذلـك وبمـا يمت لـه من صناعـة ٠ وبالمـدينة متحـف صغيـر فيـه بعض آثـار اسـلاميـة ليست بـذات اهميـة ، والى جانب المدينة توجد آثار القلعة الاسلامية التي تدعى اليوم قصر بياترا روسا ؛ ومن هذه القلعة يشرف الانسان على قصر يانا التي لم يبق بها اليوم شيء من آثار المسلمين ، انما على مقربة منها (٣ كيلومتر) تـوجد « قلعـة السبت » Calta Cibetta ويمكـن اعتبـار هـذه المـدينـة اقـدم مـدن صقليـه.اليوم من حيث بنـاؤهـا الـذي بقى على اصلـه منـذ القـرون الـوسطى ومـن حيث لباس اهلها وتقاليدهم التي بقيت في معزل عن الحياة الحاضرة ٠

طبرمين وضواحيها

اذا استثنينا جمالها الطبيعي ومركزها الممتاز بالنسبة للمستوحين فاننا لا نجـد في طبرمين اهمية من نـاحية التأريخ الاسلامي ؛ ولعلك تـذكر ان المسلمين لم يحتلوا مدة طويلة هذه المدينة التي كانت باستمرار معقل المقاومة البزنطية ، حتى اذا تمكن المسلمون من ناصيتها نهـائيا سنة ٩٠٢ ميلاديـة

دكوها دكا كي يقطعوا آخر امل للروم فيها ؛ وقد بقيت بها للآن آثار قصر قديم ، يدعي « قصر المولى » Mola يشرف على المدينة وضواحيها .

ومن المدينة ، يسير الانسان نحو قرية لا تزال عربية اسما هي « القنطرة » Alcantara على مجرى الوادى المدعو بالقنطرة ايضا ، وهنالك في تلك الضواحي مدينة لا تزال كذلك تحمل اسما عربيا وتكاد ديارها تحمل الطابع العربي الاسلامي ايضا وهي قرية « الزعفرانة »

قطانية

ان كانت هذه المدينة تعتبر اليوم ثاني مدن صقلية بعد بالرمة ، وان كانت بناءاتها الضخمة وعماراتها البديعة تجعلها في مصاف المدن الكبرى ؛ فانها رغم كل ذلك لاتشبع نهم الباحث العربي لانها لا تحوى شيئا يذكر من آثار المسلمين ، وذلك لانها علاوة على التخريب الذى لحقها كما لحق كل مدن صقلية من جراء حوادث الاحتلال النرماني قد اصابها زلزال عنيف حطمها تحطيما ذريعا سنة ١٦٩٣ ؛ فلم يبق بها عمرانا واهلك فيها ١٦٠٠٠ نسمة .

اهم ما يراه الباحث فيها اليوم متحفها الذى جمع فيه القطانيون كثيرا من آثار صقلية ومجموعة ثرية من الصور والرسوم ؛ ومكتبة فيها نحو الخمسين الف مجلد منها نحو الخمسمائة مخطوط نفيس والفي رق فيها الكثير من اوائل العهد النرماني .

سرقوسة

روعة وجمال ، وبهاء وجلال ؛ هي مهد الذكريات الاغريقية والقرطاجنية، يهيمن عليها خيال ارخميدس العظيم وآثارها السابقة للعهد الاسلامي غنية ثرية ؛ وبها متحف يكاد يكون مختصا

بدراسة آثار ومدنية شعب الصيقول ، وبدائع من صنع المدنية الاغريقية والفنيقية ؛ انما ليس بها ما يشبع نهم الباحث عن التاريخ الاسلامي ، واهم آثارها على الاطلاق هو المسرح اليوناني الشهير الذى ابتناه الملك هيارون حورين سنة ٤٧٠ ق٠م ؛ وهو اهم ما تركته لنا ايدى الزمان من مسارح الاغريق وتبلغ دائرته ١٣٨ ٠

نوطس

كانت اثناء التاريخ الاسلامي مركز ولاية ، وكانت ذات اهمية كبرى اسسها الصيقوليون ووسع دائرتها المسلمون ، واستمرت مدينة اسلامية فى جميع مظاهرها الى سنة ١٦٩٣ حيث تحطمت بصفة تامة وهجرها سكانها فابتنوا على مقربة منها مدينة جديدة ؛ انما فى آثارها رسم هيأتها الاسلامية السابقة ، واما المدينة الجديدة فليست من الناحية الاثرية بذات اهمية ٠

القسم الرابـع

الحكـم الاسـلامى

ايام الدولة الاغلبية

نشأة الدولة الاغلبية ـ وقل جاء الحـق وزهق الباطل ان الباطـل كان زهـوقـا ٠

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتلو هذه الآية الكريمة يـوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخـل البيت الحرام ، واضعا بذلك حـدا فاصلا بين هدى الاسلام وضلال الجاهلية ، فاتحا بذلك عهدا جديدا في تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ؛ عهد تحرير الفرد والجماعة من ربقـة الذل والعبودية لغير الخالق ؛ عهد تحرير العقول من الاوهام والاباطيل ؛ عهد التساوى الحق الذى لم ير له العالم قبل ذالك ولا بعد ذلك مثيلا ٠

التهبت يومئذ نيران الثورة العالمية في سبيل التحرير والمعرفة ، يحمل رايتها رفيعة وهاجـة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جـاء به من الهدى ودين الحـق فتدفقوا سيلا نورانيا جـارفا يكتسحون الظلمات ، ويـدكـون اسس القيصرية والكسروية ، ويقيمون عـلى تلك الانقاض البالية عـدل الاسلام ، وحرية الاسلام ، واخوة الاسلام ٠

وانه لم تكد تنقضى ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلا عن بـلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقى حتى امواج المحيط الاطلسى ٠

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراسا ؛ كان بلا ريب فتح اقطار هذا الشمال الافريقى ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية ، بالمدينة كان او بدمشق او ببغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر

والنهى ، وبين هذه البلاد النائية ، ولأنها من جهة اخرى كانت تسكنها امـة البربـر الأمازيغية الأبية ؛ وهى مجموعة اقوام ما وهنت امام جبروت الظالمين ومـا ضعفت قواها تجاه ارهابهم وبطشهم الشديد ؛ ومـا استكانت لسلطان الاستعباد ايـا كان مصدره ؛ وسواء جـاءت من رومـة اغـلاله او صبت فى بيزنطـة قيـوده .

فالبربر على تفرق شلهم ، كانوا اكثر الناس استماتة فى سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الـوندالى يمسكون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مـع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لأنفسهم بهذه الديار ، من معالم وآثار ، ثـم كانوا طيلة العهد البيزنطى الحرب يباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكرى والادارة الاسمية والرسمية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غـزوة عبد الله بن ابى سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حـوالى سنة ٩٠ هجرى (١) .

فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة ، واستنزف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كمعاوية بن خـديج ، وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان ، وحسان بن النعمان قاهر الكاهنة ، وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضض ؛ فلا تكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد في الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين فى اكثر الاحيان .

---

(١) فى سنة ٩٦ توفى بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية : تم خلالها فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك ، وفتح القائد محمد بن القاسم الثقفى اكثر بلاد الهند .

بقيت الحالة كذلك بين صفو وكدر ، وامن وانتفاض ، طيلة ايام الامويين واوائل عهد العباسيين ٠

وانه لمن اكبر نكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء في اول العهد الاسلامي، أو في غيره من العهود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم واحد منهم فيدرس حالته ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه وامعه ، وياخذ باسباب العمران والانشاء والتكوين ، حتى تلعب في مركز الدولة البعيد الدسائس والفتن وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او العصبية ألاعيبها الخبيثة ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون في الكثير من الاحيان عدو العامل القديم فيفد على البلاد يحدوه حب الانتقام ، ويسفر ذلك عن وقائع تسيل فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ، فتكون الثورة ويكون الانتقاض (١) ٠

انما الى جانب هذا الاضطراب في السياسة كان الدين الاسلامي على يد رواده الامجاد يستقر استقرارا متينا في البلاد ، وينتشر انتشارا عظيما ٠

ولقد فهم البربر اخيرا ؛ بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين واللغة عنهم ، ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثل الذين سبقوهم من الفاتحين ، فسمو اخلاقهم ونبل عواطفهم وبساطة عيشهم وسهولة دينهم الفطرى ؛ كل ذلك يجعل بونا شاسعا بين هؤلاء واولئك ؛ ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر تحت راية الاسلام المسوية ، وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان، ولم يتحصل عليه قبل ذلك ؛ تحقق له الاستقرار الديني الذى دام منذ ذلك العهد الى يومنا هذا والى الأبد ، رغم ما وقع من شنان سببه خلافات مذهبية قد استعملت في اكثر الاحيان وسيلة سياسية يراد بها الوصول الى الحكم .

وما عتم ذلك الاستقرار الديني ان اسفر عن استقرار سياسي ، بصفة اعلان القطر المغربي الاسلامي استقالة عن مركز الخلافة الاسلامية ؛ وادارة اموره

---

(١) انظر كتابنا « قرطاجنة في اربعة عصور » طبع تونس ١٩٢٧

المحلية بواسطة الانجاب من بنيه .

لقد كان المغرب الاوسط ـ قطر الجزائر ـ اسبق جهات المغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية ؛ على يد كرام بررة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباض رضى الله عنه ، وقد كان اول مذهب اسلامى انتشر فى بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقى والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بكبر تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية القاضى عبد الرحمان بن رستم الفارسى سنة ١٦٠ (١) فحكمت البلاد حكما اسلاميا يذكر فى كل عصر ويشكر ، وسجلت في تاريخها صفحات نبل وفخار لا تعتدى على ذكراها الطيبة الايام .

واذا كان العقد قد انتثر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولاتها بالقيروان دولة بنى رستم في تيهرت . فلم تعتم جهات المغرب ان اقتفت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قريش ، هو ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن ابى طالب ، وذلك بمدينة مليلى سنة ١٧١ هجرى (٢) (٧٨٧ ميلادية) .

فما كادت تنتهي ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان ؛ سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب ؛ اى القسم الشرقى من قطر الجزائر الحالى ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالى الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير، اثر حوادث كثيرة واضطراب ، حتي رأى، ورأى وجوه

---

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق ، بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هجـ (٧٥٠) وقامت الدولة العباسية مقامها معتمدة على الفرس حاكمة ببغداد .

(٢) بعد سنة ، اى عام ١٧٢ ، مات بالاندلس صقر قريش عبد الرحمان الداخل الاموى ، الذى استقل ببلاد الاندلس ، وانشأ فيها دولة اموية جديدة موحدة دامت هنالك زهاء ٢٩٠ عاما ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشا بقرطبة التى اتخذها دار ملكه المسجد الاعظم الذى هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الاداري عن بغداد ، والاستقلال بامور البلاد ، فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد في ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمركز الخلافة سنة ١٨٤ (٨٠٠ ميلادية) وتعاقد الفريقات على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية ؛ وان تدفع خراجا سنويا لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار ، متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لأبراهيم ابن الاغلب ، واصبح في البلاد ملكا مستقلا ، مصلحا معمرا ساهرا على امور مملكته باسطا العدل والامن بين كل طبقات رعيته ؛ والتف حوله في تضامن اسلامي « ووطني » بديع رجال العرب والبربر ، فتوطدت اسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال ؛ والناس على دين ملوكهم . وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة ؛ واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان ، امتها رسل الامبراطور شارلمان مهنئة (١) وامتلات قصورا وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى جهات المملكة ، وازدهرت المدنية ، وانتشرت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم تنقض ايام ابراهيم الكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثاني زيادة الله حتى كانت دولة بني الاغلب من ازهى ممالك المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم (نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب) .

ولا نقلن لك في خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكي في كتابه « مدنيات شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية . قال : « لقد سار الامراء الاغالبة سيرة قسط وعدل ، محترمين للحقوق ، مظهرين جميل الاستعداد

---

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهنئة بالملك والاستقلال راجية من ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهدائها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية . فاقتبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالا منعدم النظير واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين ؛ ثم ارسل ابن الاغلب حسبما تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من لدنه ترد زيارة شارلمان ، فاقتبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا ؛ اقتبالا لائقا فاخرا.

للقيام بجلائل الاعمال لفائدة الامة ٠

« من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نورا غريبا على المجتمع فى ذلك العصر فلقد نصبوا فى كل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية (حماية الشعب ضد عدوان الكبراء) « صاحب المظالم » وهيهات ان يجد مجتمعنا العصرى عبارة اجمل من هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل فى آن واحد : احترام العدالة واحترام حقوق الانسان ٠

« ولقد اشتغل امراء الاغالبة بالمنشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا من العمران والتجميل بمدينتي سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد ابن محمد بن احمد) بحفر وبناء الصهريج العظيم بمدينة القيروان (فسقية الاغالبة) حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلاص ، ودائرة هذا الصهريج تبلغ ١٢٨ مترا ولا يزال مستعملا الى يومنا هذا ؛ وان المسافر لتأخذ منه الروعة كل مأخذ عندما تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة فى وسط بيداء جرداء يخيل للناظر ان لا حد لها ٠

« يقع هذا الصهريج اليوم شمالى سور القيروان ، بعيدا عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يعطيك فكرة عن اهمية مدينة القيروان التى كانت فى ذلك العصر آهلة غنية .

« والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبة قواد جنود لا تنكر مهارتهم الفائقة فى الحروب ، فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طبعها الشغب والهرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربى فى البلاد الى حد بعيد ٠

« انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ، ينهمكون فى الملذات والشهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك باقسى الاعمال التى يدفع اليها جبروت ليس له من حد (١)٠»

المحاولات الأولى لفتح صقلية ـ ان كانت بلاد المغرب العربى مطمح انظار كل من استقرت له قدم فى جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح

انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر ٠

ولقد فصلنا في مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجنية في صقلية وما قامت به من جهود عنيفة في سبيل فتحها وفي سبيل الاستقرار بها ٠

فما كادت طلائـع الفتح الاسلامي تبسط الويتها الظافرة فـوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا للعروبة والاسلام ، حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون الى قارة أروبا ، السابحة في الهمجية التائهة في بيداء الوحشية والظلمات ٠

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية ٠ وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكر موسى بن نصير القرشي ، وقد اقر الله على يده الكريمة امـر الاسلام بهذه الديار المغربية ، ووطد بهـا اركان الفتح العربى ، وتمت تلك الاخوة الاسلامية العظمى التى لم ير العالم لها من مثيل ، اخـوة العرب والبربر ، لحمتها الدين الحنيف الذى سوى بين الناس ، وما جعل من فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ؛ وسداها المصلحة المشتركة ٠

اراد موسى فى بادىء الامر ان يعبر الى القـارة الاروبية ، ممتطيا صهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح فى الناس أن حيى على الجهاد فلبى الناس داعى الجهاد فى سبيل الله افواجا ولـم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعيت هذه الغزوة غـزوة الاشراف ، وعقد موسى لواءها لأبنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغانم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتمام فتحها ، فاكتفى بما ناله وقفل باسطوله الى البلاد الافريقية ٠

ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وصعوبة ارسال المدد الى الغزات من جراء ذلك هو الذى جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ، ويعقد

---

(١) وهذا فى الحقيقة من اهم اسباب انهيار الدول العربية الاسلامية السالفة ، فى كل مكان .

العزم على مهاجمة اروبا من ناحية اخرى تكاد تتصل فيها بالارض الافريقية ؛ وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذى اصبح يعرف فيما بعد والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق ، وهو طارق بن زياد الليثى الذى اتم الله على يده ذلك الفتح المبين ٠

ولى الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن الحبحاب ، فرأى ان يقتفى اثر موسي بن نصير وان يدخل اروبا من صقلية بعد ان توطد فتح الامدلس ، فارسل فى اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا للروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهزمت مراكب الروم وولت الادبار ، الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنتا ، واسر الروم منهم قبل انهزامهم عددا من رجالهم ، من جملتهم العالم الشهير الشيخ عبد الرحمان بن زياد الذى بقى فى الاسر الى سنة ١٢١ (١) ثم رجعت مراكب المسلمين بما غنمته من الروم ٠

لكن ابن الحبحاب لم يصبر على هذه الخيبة وصمم على انفاذ السهم فى صقلية فجهز من جديد حملة عظيمة وضع على رأسها القائد حبيب بن ابى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ومعه ابنه القائد الجسور عبد الله بن حبيب ،

---

(1) قبل ستة اعوام (٧٣٢ م) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء ؛ وبهر اوقف شارل مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر اللوار وقتل اميرهم البطل عبد الرحمان الغافقى ، وقد كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة 720 واحتلوا مدن نربون وقرقشنة ونيم ثم استولوا على افنيون سنة ٧٣٠ وبوردو سنة ٧٣٢ ووضعوا جاليات اسلامية بهاتيك الديار ؛ فبعد معركة ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب حيث استقروا امدا طويلا فى البلاد المواجهة لجبال البيرانات الفاصلة بين فرانسا واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون في جنوب فرنسا الشرقى ملبين دعوة الاهالى لهم وكان من آثار المسلمين هنالك تأسيس جامعة « مونبيلي » وبعد :نجلاء المسلمين جرد ملك فرنسا (بيبان البريف) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهالى جنوب فرنسا الشرقى فامعن فيهم مدة ٢٥ سنة قتلا ونهبا وتعذيبا .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون فى البلاد حسب التقارير السرية التى كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا يومئذ جوسسة واسعة النطاق لفائدة الفاتحين المسلمين ؛ سعيا منهم فى الخروج بواسطتهم عن احكام المسيحية الجائرة القاسية التى كانت تمعن فيهم اضطهادا وفتكا وتعذيبا .

وسار الاسطـول الاسلامى من دار صناعـة تونس سنـة ١٢٢ فنزل الارض الصقلية وقـاتل من اعترضه وهـزم من قـاتلـه حتى وصل تحت جـدران سرقـوسة الشهيرة ونصب عليهـا الحصار وضيقـه وضرب بـاب المـدينة ضربة رمزية بسيفه فاثرت فيه ، واذعن الروم والاغريق للصلح وبذلوا فى سبيله جزية ذريعة ، وعزم حبيب وابنه عبد الله عـلى البقاء بصقلية وانجـاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه • الا ان الحـالة ساءت بافريقيا اذ وقعت ثورة فى ناحية طنجة قام بها البربر (١) فارسل ابن الحبحاب عليهم القـائد خالد ابن ابى حبيب الفهرى ومعه وجوه القـوم واشراف قريش ، وكانه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمى وبطريقة الاقناع والاذعان للحق على يد قوم لهم مكانة عـالية فى الدين وفي المجتمع • الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والتقى الثوار بـرسل الامير وكانوا جماعة غفيرة فقتلوهم عن آخرهم وكـاد امر الفتنة يستفحل ؛ فبادر عبد الله باستدعاء الجند الاسلامى من صقلية مقدما الأهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاخلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية •

رأى عبيد الله بن الحبحاب خيبة أمله المزدوجة ، وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق فى جمادى الاولى ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ • ومن آثاره العظيمة الخالدة الجامع الاعظم بتونس ، جامع الزيتونة العامر منبع النور والهدى بالشمال الافريقى زاده الله رفعـة وسموا • وينسب لـه بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعا ونشاطا، لان مـوسى بن نصير كان قـد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهـز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا •

ثم فى ايام الوالى عبد الرحمان بن حبيب الفهرى اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قـد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لايقصدون بـه

---

(١) سبب هذه الثورة عسف العامل عـلى طنجة من قبل ابن الحبحاب ، واسرافه فى الظلم والعدوان ، مخالفا بذلك احكام القرآن ، وتعاليم الاسلام .

الدفاع فحسب ، بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الاثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين اخذوه بما فيه.

اشتعلت نيران الحرب بين الاسطولين ؛ وحطم ابن حبيب الكثير من مراكب الاعداء ؛ ودك حصونهم . ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة ، فتركها بعد ان صالحه الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم.

الفتح الاغلبى وأسبابه ـ نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا فى عزة وكرامة وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس ، فقامت بمأثرتها الخالدة على صفحات الوجود الا وهى فتح صقلية ، وموالاة الجهاد بها ، ونصب الوية الاسلام والعروبة فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بصفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح البلاد الاروبية ومهاجمتها من الوسط ، حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية الشرق عند جدران القسطنطينية ، وأخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب فى سهول مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثانى الرئيسى لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية الرومية وقد اتخذت صقلية كما أسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الفينة بعد الفينة على الارض الافريقية فتخرب الثغور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا ان لم تبادر الدولة الاسلامية بدفع الفدية عنهم .

زد على هذين السببين الرئيسين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلبى فى قطع دابر الفتن الداخلية والثورات التى كانت تجتاح البلاد مثل وافدةاخطر من الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بامر الجهاد فى سبيل الله فوق اديم ارض اجنبية ، ينسيهم فتنهم الداخلية ويلهيهم عن محاربة بعضهم بعضا . ولقد تخلص الملك الاغلبى بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة فى الجند العربى ، والتى اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الثائر منصور بن نصر امير المحمدية الى شافة القبر ، وما

امكن التغلب عليها الا بجهد جبار وتدبير حكيم ·

وقد نجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ونجح بلاط القيروان الزاهر فى عهد الاستقلال الذهبى ، حيث اخفقت محاولة الولاة فى عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة ·

العزم على الفتح ـ تكاثر عدد المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فعقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقى منهم احدا بارض الجزيرة ·

وكانت الحالة يومئذ فى صقلية على أسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شداد ، ديدنهم الارتشاء ، ودينهم مصلحة الذات، وسيرتهم الجور والعسف ، وسريرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشعب المسكين يئن من جراء ذلك انينا منكرا ، وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين·

كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم فى القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين ، جمع الله فيه ما تفرق فى بنى قومه من فساد السيرة وخلال السوء · وكان على الاسطول الرومى بالجزيرة امير البحر اوفيمياس Euphémias (ويسميه مؤرخو العرب فيمى) فلم يكن احسن من زميله سيرة ولا اطهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكما بين الرجلين بصفة فظيعة فسعى الوالى لدى الامبراطور البيزنطى ميحائيل الثانى ، واستصدر منه امرا بالقاء القبض على امير البحر ، وكان لهذا انصار واتباع يسيرون تحت لوائه وينتفعون منه ، فثاروا على الوالى ، ونبذوا دعوة الامبراطور ، واعلنوا فى الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكما بامره هنالك ·

لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يمكث فى الملك طويلا ، حتى ثار عليه احد قواده ، بلاطة ، وهزمه فى معارك عديدة واعلن رجوع البلاد لطاعة الامبراطور ·

ضاقت الاسباب بوفيمياس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجدا بلاطها ضد خصمه ·

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ فى مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القيروان انه لم يزل بين ايدى الروم هنالك جماعة من المسلمين · وان العقد الذى عقده الملك مع والى الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدال يومئذ محتدما حول ذلك ؛ وهل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضى الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخبر رسلهم ؛ يعنى (جماعة اوفيمياس) فاننا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطة الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين ·

اوتى بالرسل يومئذ فسئلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين فى حالة رق واستعباد ·

اذاك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة · ونادى زيادة الله بالجهاد فى سبيل الله ؛ فلبى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامى بمدينة سوسة ، مرسى القيروان ؛ وكان يجمعماية مركب تحمل كل مركب منها نحوا من ماية وعشرة من المقاتلين مع الزاد والعتاد والخيل ، فكان الجيش الفاتح مؤلفا من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضى الجماعة اسد بن الفرات ·

اسد بن الفرات — وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء فى تاريخ الشمال الافريقى ، لا تدانى منزلته العالية فى العالم ، الا همته الشماء وعلو كعبه فى الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم ·

وانه لمن واجبنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية الطافحة بجلائل الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله فى صقلية·

اعجمى الاصل ، ولد بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع

---

(١) راجع عن ترجمته باسهاب ؛ مقالا ممتعا للاستاذ العلامة الشيخ احمد المهدى النيفر نشرته مجلة الثريا التونسية فى العددين السابع والثامن من سنتها الاولى .

والده وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجند الاسلامى القادم مع الوالى محمد بن الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا

تلقى في مدينة القيروان مبادىء علـومه مدة خمس سنوات ، وارتحل فى العاشرة من عمره الى مـدينة تونس فانقطع فيها للعلم نحوا من التسعـة اعوام تعلم فيها القرآن وعلومه ، وروى فيها مـوطأ الامـام مالك عن عـلامة افريقيا يومئذ وبحرها الطامى الشيخ على بن زياد (١) ·

وكان اسد رحمه الله يقول مفاخـرا ومداعبـا اقرانه : انا اسد والاسد خير الوحوش ، وابى الفرات والفرات خير الماء ؛ وجدى سنان والسنان خير السـلاح ·

ولم يكفه ما روى به غلته من العلم فى مـدينة تونس ؛ فامتطى صهوة العزيمة والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذى كان يزهو ويزدهر يومئذ بما فيه من مصابيح العلم وائمة الهدى ·

ام بادىء ذى بـدء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنالك سمع عن مالك ابن أنس رضى الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد ؛ ثم غـادر المدينة مـزودا بعلم مالك الغزير ودعـائه الصالح ووصيته يوم الوداع : اوصيك بتقوى الله تعالى ؛ والقرآن ؛ والنصيحة لهذه الامـة ، وام العراق فلقى جماعـة من اصحاب ابى حنيفـة النعمان ؛ اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشىء الكثير من علم ابى حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراءه · ثم انتقل الى مصر وفيها جماعـة كبرى من اصحاب مالك والناسجين عـلى منواله ، فصحب منهم الامام عبد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن فى

---

(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضى الله عنه بالمدينة ؛ واخذه عنه الامام سحنون صاحب المدونة ؛ عرضت عليه الدولة مرارا تولى القضاء ، فرفض وابى تورعا منه ، وحبا للانقطاع للعلم ، حتى توفاه الله سنة ١٨١ ، ودفن بتونس حيث لايزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احياء لذكراه واعترافا بجلائل اعماله .

سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد فى السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية » ٠

وبعد عشرة اعوام مضت في جهاد عنيف واجهاد نفسي عن نظيره في سبيل العلم والمعرفة ، رجع الى وطنه الافريقى حاملا فى صدره علما غزيرا ، وفي وطابه كتابا عزيزا هو الاسدية ، وتصدى للعلم والنفع ، فاشتهر امره وذاع صيته ٠

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الاشهر « المدونة » ثم رجع به الى القيروان وانتصب للاقراء والنفع والتدريس ؛ ولم تكن المدونة على وفاق تام مع الأسدية ، فهنالك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم فى الامر فرجح كفة المدونة على كفة الاسدية ، وأمر أسدا بان يصحح كتابه على المدونة فترك أسد رحمه الله اسديته وفقه مالك ؛ وأقبل على مذهب أبى حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه للخاصة والعامة ٠

ثم ولى قضاء القيروان سنة ٢٠٤ مشتركا فى ذلك مع القاضى أبى محرز الكنانى ؛ وكان بينهما شنآن كبير وخلاف عظيم ٠

وعندما وقع الخوض فى مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين ، كان من رأى القاضى ابى محرز الكنانى التأنى الى ان يتأكد الخبر ؛ ولو أنه كان عائشا فى عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » ٠ اما اسد فكان رأيه الأسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل صالحناهم، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين ورجح هذا الرأى كما رأيت ، ونادى منادى الجهاد ، واجتمع الاسطول في سوسة ٠

عندئذ طلب القاضي اسد بن الفرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامى حتى ينال شرف الجهاد او شرف الاستشهاد ، فلبى زيادة الله طلب القاضى الذى كان يومئذ فى العقد السابع من عمره ،

واولاه امارة الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واها يا مولاى ! اتعزلنى عن القضاء لكى تولينى الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك امارة الجيش مع القضاء .

وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامى فى موكب حافل ومهرجان مشهود فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والاندلسيين، والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابوبكر بن محمد المالكى فى كتابه « رياض النفوس » : فلما رأى (اسد بن الفرات) جمع الناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، وقد صهلت الخيول وضربت الطبول ، ونشرت البنود قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولى لى اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

المعارك الاولى — اقلع الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة ؛ يوم الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٢١٢ (١١ جوان ٨٢٧م) ووصل سواحل صقلية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور ؛ قاطعا فى ثلاثة ايام ، ثلاثمائة كيلو مترا تفصل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال امور الروم ، وزهد اهل البلاد فى الدفاع عنها لفائدة الغاصبين ، فاتم المسلمون تفريغ الاسطول وانزلوا الى الارض ما اتوا به من معدات الفتح والكفاح .

عندئذ قدم القائد بلاطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف مقاتل ، اى عشرة اضعاف الجند الاسلامى ؛ اما امير البحر اوفيمياس الخائن فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمى بالمهاجمين الى البحر ،

والتقى الجمعان على مقـربة من مازرة • قـال ابن ابى الفضل وكان حـاضر المعركة « ورايت اسد بن الفـرات وبيده اللواء وهو يزمزم ؛ فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس ؛ فلما فرغ منها قال للناس : هـؤلاء عجم الساحل ••• هؤلاء عبيدكم ••• لا تهابوهم ؛ وحمل باللـواء وحمل الناس معه ؛ فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد رأيت والله الدم قد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع ابطه » •

ومعنى قول أسد : هؤلاء عجم الساحل ، اى هؤلاء الذين هربوا امامكم من السواحل الافريقية •

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلول الجيش الرومى نحو الجهة الشرقية معتصمة بمدينة سرقوسة ؛ ورأى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير، فسار بجيشه يقتفى اثـر المنهزمين ، ففتح كامـل الجنوب الصقلى فى مـدة وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قـاطعا مسافـة مائتى كيلوميتر الفاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة فى وقت وجيز .

كان أمير البحر أوفيمياس قد ندم على فعلته وخيانته ، اذ رأى أن المسلمين يفتحون الجـزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومى مهما كان شأنه ، فراسل أهـل سرقوسة يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج جماعـة من البطارقة والرهبان يسالون الامـان لاهل المدينة ويطاولون فى المذاكرة ، وكان ذلك منهم خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت ، وزيادة تحصين المركز ، واخفاء ما به من كنوز ونفائس •

أراد المسلمون أن يقتحموا المدينة فاخفقوا ، وأراد أهل المدينة أن يبعدوا المسلمين عن أسوارها فاخفقـوا كذلك • وأصبحت الحـرب حـرب مـراكز لا حـرب حركـة •

وقع المسلمون فى مخمصة عند ذلك وأصاب الجند جوع كبير حتى أكلوا الخيول ، فخاطبوا القايد ابن قادم فى الامـر وسألوه التوسط لهم عند أسد ليامرهم بالرحيل الى افـريقيا ؛ قال ابن القادم لأسد : ارجع بنا الى افـريقيا

فان حياة مسلم واحد أحب الينا من جميع المشركين ، فقال أسد : مـا كنت لأكسر غـزوة عـلى المسلمين ، وفى المسلمين خير كثير ؛ هنالك اخذ دعـاة الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة ، وبـدرت من ابن القـادم الذى تزعمهم كلمة سيئة ، فقال اسد : على اقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛ ثم تناوله وضربه ثلاثة او اربعة اسواط ، وكانه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، ونصر فكرة المقـاومة الثبات والصبر ، فتم له ما اراد ، وعـادت العزيمة القوية الى الانفس التى تعبت بها حينا ما دعوة النكوص على الاعقاب.

وأذ كان المسلمون قـد احتلوا كامـل الجنوب الصقلى ؛ فقد سهلوا عـلى انفسهم امر تموين الجند ووصول النجدات اليه من الارض الافريقية ، ووصلت النجدات والاقوت والمؤن فعلا للمسلمين ؛ ووصلت للروم فى سرقوسة مثل ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجالا حـول سرقوسة ، وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيما يمنع خروج حاميتها للمهاجمة .

كان اسد رحمه الله ورضى عنه يباشر امر الحصار بنفسه ، ويضيق عـلى المدينة ، لكن ذلك الجهد الحـربى الذى بذله منذ نزل مازرة نـال من جسمه البالى فاصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة، ولبى داعى ربه فى ربيع الثانى سنة ٢١٣ اى بعد جهاد متواصل عنيف دام ١٣ شهرا ودفن رحمه الله بمقر استشهاده تحت اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين إنه دفن بمدينة قصريانة ، وذلك غلط لأن تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك يقول بعضهم غلطا انه دفن فى بالرمة التى لم تفتح الا عدة سنوات بعد ذلك .

محمد بن ابى الجـوارى

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن الفرا تالى الرفيق الاعلى ؛ وولـوا عليهم محمد بن ابى الجوارى . وكانت النفوس قد ضعفت والعزائم قد وهنت، فأستقـر رأى الامير محمد بن ابى الجـوارى على اخلاء الجزيرة ، والرجـوع بالمسلمين الى افريقيا .

غلطة الروم ، توطد الفتح ـ ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛ واقلعوا ، وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم من القسطنطينية نجدة لاهل سرقوسة ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول الرومى ، وهو اوفر عددا واقوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها والصبر على شدة الحرب الى ان ياتى الله بامره ٠

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البر فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكى يقطعوا كل امل لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم، الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين فى ذلك بما فعله من قبل طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر او النصر ؛ وبهذا الحادث الرمزى ، توطد امر المسلمين فى الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية٠

ابن فرغلوش الاندلسى ـ وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواتها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريبا ٠

فى تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، كما جاءت سفن المدد من افريقيا ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول قرصان المجاهدين المسلمين بالاندلس ، يقوده اصبغ بن وكيل المشتهر باسم « ابن فرغلوش » وكان الاسطول سائرا فى سبيل الغزو والمغامرة ٠ فتجمع من العمارتين نحو الثلاثمائة سفينة (١) ٠

تم الاتفاق بين مسلمى الجزيرة وقرصان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون الجزيرة لنصرة جندها ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها ، وعلى ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن فرغلوش (٢) ٠

نزل الاندلسيون البر واشتد بهم ساعد أهل افريقيا ، وسار المسلمون

أقوياء العزائم فى طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة مينا بعد حصار ثلاثة أيـام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوهـا قسرا وساروا بعدئذ نحو معقـل « قصر يانة » الذى كان أكبر صياصى الروم بالبلاد .

كان امير البحر اوفيمياس الخائن لا يزال يطمع فى تـولى الامر بعد أن يمهد له المسلمون السبيل رغم مساعيه السالفة الذكر ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه قصر يانة ، وكان أهلها أشداء متفانين فى الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم فى تولية اوفيمياس أمرهم ، وما كان ذلك منهم الا مكيدة فتمكنوا من الخائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا فى مدينتهم أثـر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

الـوبـاء – فى سنة ٢١٦ (٨٣١) أصاب المسلمين وباء شديد فتـك بهم فتكا ذريعا ، وكان القائد المجاهد ابن فـرغلوش من جملة من استشهد بذلك ، ومات فى تلك السنة نفسها الوالى محمد بن ابى الجوارى ، واضطرب امر المسلمين ، فتولى امرهم مؤقتا عثمان بن قهرب الى ان جاء من القيروان ابو فهر محمد بن عبد الله التميمى سنة ٢١٧ (١) فنفر ابن فهرب عنها ولـم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقى حيا من رجاله الى الاسبانيا .

زهـير بن عـــوف

أرسل زيادة الله الاغلبى ، زهير بن عوف عاملا عـلى الجزيرة ، على ان يستمر فيها الجهاد ويتم فتح البـلاد ؛ وارسل معه جندا عظيما يبلغ عـدده ٣٠ الفـا ؛ (٢) فاشتد ساعـد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوالون الفتـح ويسيرون من نصر الى نصر .

---

(١) هذا ما يذكره ابن خلدون . وارى فى العدد مبالغة لا ريب فيها .

(٢) هذا يعنى – لو صحت الرواية – انفصالهم عن الدولة الاغلبية ؛ وهو لا يتفق مع ورود النجدات الافريقية . ولا مع بقية سير الحوادث . فالرواية فيها نظر .

فتح بالرمة ـ والقد كان ملاك عمل ابن عوف رحمه الله فتح بالرمة عاصمة الجزيرة ودرتها اللامعة ؛ فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامي بعد ان توطد الفتح في الناحية الجنوبية كلها ؛ وكان الروم ومن لف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا في العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد •

وقف المسلمون تحت الاسوار المنيعة ، وارسل ابن عوف الانذار الشرعى لرجال الحامية فرفضوا الانذار ، وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد ، عزيمة المسلمين التى استقرت على وجوب الفتح ودك الاسوار ، وتحطيم كل مقاومة تقف في سبيل انجاز المهمة الكبرى ؛ وعزيمة الروم التى توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفى الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة باسره ؛ فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقاض المدينة •

نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الخناق من جميع اطرافها • ومهما ازداد شدة في تضييق الحصار الا وازداد المدافعون تصلبا فى المقاومة واستماتة فى الدفاع ؛ وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة ، وان نتيجتها ستكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية فيها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين •

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل أمل تهم فى النصر ، ولم يبق امامهم الا حد الطريقين : طريق الموت

---

(١) فى السنة الموالية ؛ ٢١٨ هجرية ، توفى امير المؤمنين الخليفة العباسى المامون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلف بتعريبها جماعة من مهرة التراجمة ، وقد كان كثير التشيع لآل البيت حتى انه اوصى بولاية العهد لعلى الرضا بن موسى الكاظم ؛ وفى ايامه تجسمت فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها ؛ وقد كان مغرما بالتجسس والاطلاع على كل الاحوال ، فعين ١٧٠٠ عجوز يجسن خلال الديار ويطلعنه على مختلف الاسرار .

(٢) فى هذا العدد مبالغة فاضحة ، ولعلها من غلطات الوراقين . ولربما كان الصحيح هو ثلاثة آلاف .

والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا في ميدان الشرف مجندلين تحت انقاض مدينتهم بين السنة اللهيب ، او طريق الاستسلام والانسحاب • ولقد كان هذا هو الذي استقر عليه الوالى الرومي ومن بقى معه من رجال المسيحية ، فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بحرا بماله واهلـه ، ومن اراد اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقـديرا منه للبطولة التى اظهرها اولئك القـوم فى الدفاع ؛ وابحر الروم تاركين المـدينة مفتوحة امام المسلمين فدخلوها فى رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٥) ، ولـم يجدوا بها حسب رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧٠ الفا •

اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة لملكهم ، كما كانت عاصمة الذين سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا فى ميدان الاصلاح والعمران والترميم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جـدرانها ويوسعون دائرتها ، فما عتمت غير قليل حتى اصبحت تختال فى ثوب قشيب من المدنية والعمران ؛ وامتلات قصورا ومساجد ودواوين وحمامـات واسواقـا وحدائق وبساتين ، وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الإسلامي ومدنيته اللامعـة الخلابة وعلومه وفنونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العـالم الغـربى •

استمرار الفتح ـ احتلال مسينا ـ اثناء حصار بالـرمة ، نـال المسلمون نصرا عظيما وطد قدمهم فى ناحية الشمال الصقلى ؛ وذلك باحتـلال مدينـة مسينا ، سنة ٢١٩ (٨٣٤) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية من صقلية حـوالى مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجـزيرة الا مثلثا يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربى من مسينا الى قصر يانة ، ثم يرجع من قصر يانة نحو الجنوب الشرقى الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربى الذى كان يتضا ل شيئا فشيئا ، كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين ، وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين •

هاجـم المسلمون الخط من وسطه مـرتين ، خـلال سنتى ٢١٩ و ٢٢٠

محاولين احتـلال معقل قصر يـانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان ينالوا منه منالا ، فاكتفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ، لكنها تصلبت في الدفـاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين عـلى الرجوع الى مراكزهم . لكن هذه الخيبة انقلبت نصرا مبينا ، ذلك أن جنـد الروم رأى أن يقطـع عن المسلمين خط الـرجعة ويصدهـم عن الرجـوع الى مراكزهم ، فاعترض لهم في الطريق ، وانقلبت محاولته تلك وبـالا عليه ؛ عليه ؛ اذ أن المسلمين ركنوا الى غابة كثيفة هناك حجبتهم عن انظار المتتبعين ، وكمنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومي فمزقوه شر ممزق، وقتلوا البطريق قائده ، وغنموا زاده وعتاده ، ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبد الله على رأس كتيبة ، فناجز مدينة طبرمين القتال ولم يدخلها مكتفيا بالاستطلاع وبما نـاله من غنائم واسلاب ، وأخيرا احتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

ابن ابي محرز القاضي – في هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان عالم من جملة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هو ابن ابي محرز قاضي صقلية؛ وقد ضربت بنزاهته وعدله وبتقواه وورعه الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته الوفاة ، اوصى اخـاه عمر ابن ابي محرز ان يكتم خبر موته خـوفا ان يكفنه ويدفنه زيادة الله الاغلبي ، وينفق ذلك عليه من بيت مـال المسلمين ، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نبأ ذلك الامير ، ارسل بفتـاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعـة كان النعش

---

(١) في هذه السنة اشتدت بالعراق محنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة المعتصم بالله ، وكان قد تشبه بملوك الاعاجم ، وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم في ادارة الدولة ؛ وبلغ غلمانه من الترك ١٨ الفا ، البسهم اطواق الذهب والـديباج ، وبنى مـدينة « سر من راى » وانتقل اليها ، وقد حارب الـروم واثخن فيهم ، وكان من ضحايا القول بخلق القرآن ، الامـام احمد بن حنبل ؛ الذي امتنع من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثـة

خارجا نحو المقبرة ، فنثر خلف المسك على جدث القاضي ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيرا لما اخرج ابن ابى محرز من بين اظهركم » .

وفي نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفي زهير بن عوف امير صقلية وقد سجل اسمه على صفحات المجد بجلائل اعماله .

ابو الاغلب ابراهيم بن عبد الله بن الاغلب

ولى امارة صقلية عند موت زهير بن عوف ، وامر المسلمين في نمو ، وسلطانهم في تمكين وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يزالون متحصنين في الخط الدفاعي الذي اسلفنا ذكره ؛ فكانت همة الوالي الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نفسه ، حتى يصفوا امر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع.

الحرب البحرية ـ رأى ابن الاغلب ان الروم يعتمدون على البحر اكبر الاعتماد ، والنجدات ترد اليهم تباعا على متن الامواج فايقن ان القضاء النهائي على المقاومة الرومية لا يقع الا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقهر الاسطول الرومي والسفن التي تعمل على انجادهم .

لذلك كانت اعمال ابي الاغلب الاولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقي هنالك اسرابا من سفن الروم فنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كثير ضمه الى عمارته؛ واصبح للاسطول الاسلامي الصقلي اثر هذه الوقائع سمعة ادخلت الرعب في قلوب الاعداء .

ايام ؛ وضرب ضربا مبرحا الى ان اغمي عليه وهو صائم ، ومات رضي الله عنه شهيدا من جراء ذلك . ثم استعمل المعتصم بالله خمسين الفا من الاتراك لاجل المحافظة على العثور ، ففقدت الدولة بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذي ادى فيما بعد لهلاكها ، اذ استبد بالحكم فيها الاتراك ولم يتركوا للخليفة الا الاسم ؛ وانتشرت دولهم بعد ذلك في كل بلاد العرب بآسيا ، كما سترى في تعليق آخر .

ولقد اغتنم ابو الاغلب فرصة تغلبه البحرى فانزل كتائب من الجند الاسلامى تحتل اغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مكامن للروم ومراكزهم لتموينهم ٠

وقائع قصريانة ـ فى سنة ٢٢٢ (٨٣٦ م) ، فتح القائد الفضل بن يعقوب حصن مندار Tindars تكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو، وعلى يمينهم معقل كمعقل قصريانة ، يقض مضاجعهم ويهدد امنهم بصفة مستمرة ؛ فكانت الجهود تبذل من جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصريانة ، كلفهم ذلك ما كلفهم من جزيل التضحيات ٠

ولقد كان الروم وكانت الجموع المسيحية تعرف اهمية قصريانة ، وتدرك قيمتها الحربية ؛ وهى اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية، وتدرك فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهى تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيك الديار ٠

هاجم المسلمون مرارا قصريانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مرارا ؛ وما صدهم الاخفاق عن موالات الهجوم ، ولم تثن عزيمة المسلمين هنالك عزيمة الروم ؛ فمهما اشتد اولئك فى الهجوم العنيف اشتد هؤلاء فى المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة صحائف فخر لا تبليها الايام٠

ولقد احتل المسلمون قصريانة احتلالا موقتا له قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك أن ثلة من الجند الاسلامى كانت مرابطة تجاه المدينة لاهى تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها ٠ ففى ليلة من الليالى كان أحد المسلمين يغامر منفردا تحت جدران المدينة يطوف حولها واذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم ، فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالامر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة

---

(١) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب الكبير بعدما

والروم في غفلة ، وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد تصاعدت الى عنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض البروج وتحصنوا بهـا ، وأمن المسلمون سكان المدينة عـلى انفسهم واموالهم ؛ ثـم انسحبوا منها بعـد حين ، نظرا لقلة عددهم ولكثرة الروم المحيطين بهـا ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم للتحصن بها من جديد ٠

المسلمون في ايطاليا الجنوبية ـ وفي سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجرى هذه الوقائع في داخل الارض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة القـارة الاوروبية من الوسط ٠ فان ابا الاغلب ارسل باسطوله العتيد نحو بلاد قلورية يحمل جندا مدربا ، فهزم الاسطول ما لقيه في طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامي في جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من اغرب صفحات التاريخ لاسلامي بالارض الاروبية ٠

لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص للوثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية عـلى انقاض ظلمات القرون الوسطى ٠

وفي هاتيك الاثناء كانت مملكة نابولي الطليانية تحارب امـارة بينفـان Bénévent جارتها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابـولي ، فارسل ملكها رسلا الى بالرمة يستنجدون ابـا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سنحت للتدخل في سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجنـد الاسلامي اشتركت مع جند نابولي في محاربة امارة بينفان ؛ الى ان غلبت هذه الامـارة ؛ ورضخت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفـاء لمملكة نابـولي ، ورأى رجال هذه الـدولة ما للمسلمين من قيمة في ميدان العلـم

وطـد سلطان الدولة على اسس متينة بافـريقيا وصقلية ونظم دولته فاحسن تنظيمها ، وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

والعمران ، علاوة عما كان لهم من قيمة في ميدان الحرب والطعان ؛ فانفتحت في وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة ، وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلـوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس في تكـوين عصر النهضة باروبـا (La Renaissance)

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قلـورية بالجنوب الطلياني سنة ٢١٩ (٨٣٤) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مـركزا لأعمالهم ، ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو في شمال ايطاليا ، وانتظم ومنذ امـرهم بالبلاد واتخذوا مدينة باري عاصمة لأمـارتهم التابعة راسا لبلاط القيروان ، وجهزوا اسرابا برا وبحرا لفتح مدينة رومـة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها في آخر الامـر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم ·

امـارة بـاري المستقلـة

وفي سنة ٢٣٨ (٨٥٣) ، اثر هذا الاخفـاق ، اعلن مفـرج ابن سليمان عامل الاغـالبة ، استقلاله بالجنوب الطلياني في مـدينة « باري » وحـارب الامارات الطليانية المحيطة بامارته فدحرها ووسع املاكه ، واتخذ من مملكة نابولي حليفا وفيا ، وكانت مراكبه قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجـاع البلاد واضطرته للرجوع على اعقابه ، ثم احتل مـدينة اوترنت Otrente ومدينة كالياري Carigliari ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار عـلى مدينة قابو Capoue انما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لأمارة مفرج بن سليمان حول مدينة باري كامل البلاد الطليانية الجنوبية (١)·

فتـح مسينـا ـ كان الروم قـد استرجعوا مسينا من يـد المسلمين ، وكانت هذه المـدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الـروم من البقاء بها معناه انقطاع الصلة بين شطري الـواجهة الاسلامية ، لذلك سار

---

(١) انظر الفصل : استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا ، فيما يلي .

القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عتيد ، فحاصر مسينا وثبتت امامه ثباتا عجيبا ؛ وكان يقاتلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكنت منها واحتلت معاقلها ، فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا ٠

فتح لسى — سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصدا مدينة لسى ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامى استصرخوا بطريق قصريانة طالبين منه النجدة فراسلهم يقول انه منجدهم بمدد وانهم متى رأوا نارا اوقدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها فى وجه النجدة القادمة لنصرتهم ٠

هل وقع الرسول والرسالة فى يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبا ؟ الامر المحقق هو انه علم جلية الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل نارا ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا لملاقات النجدة فما راعهم الا والجند الاسلامى يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولى على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (٨٤٦ م) (١) ٠

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهمة عالية ويوالى اعماله بين قطبى السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٦ ؛ وقد كان شهما كريما جوادا وهو ابن اخى الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام قصة ترينا مثالا من جهوده وشهامته ، قال :٠

« يحكى من اخبار كرمه انه اشرف يوما من دار الامارة فرأى امرأة قد هيأت فرخين ونظفتهما وطبختهما طبخا محكما ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت

---

(١) انتهت ببغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله فى آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اى نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابى عبد الرحمان الاسدى ؛ شيخ ابى داود والكسائى ؛ اثر مجلس مناظرة شهير. وان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول القرآن فقد سودها بوضعه فى بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك البسه بيده التاج وجعل له الحكم المطلق ؛ فنسف بذلك سلطة بنى العباس . بل نسف سلطان العرب الى قرون عديدة ، بصفة فعلية ، وكان الواثق اعلم

دعـا بعض فتيانه وراه الدار وقال اذهب فاجعل القدر في قفـة وجئني بها ، ففعل واكل منها • ثم امر بغسل القدر فغسلت ؛ وامر بكيس دنانير ففرغ في القدر حتي امتلات • وقال للغـلام امض بها فاجعلها في يد المرأة ولا تقـل لها شيئا ففعل وارادت المـرأة ان تطبخ بها شيئا آخـر فكشفتها فاذا هي مملوءة دنـانيـر » •

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

ويعرف بابن بربر

كان في صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقـام الاول اثناء ولاية الامير السالف الذكر ، اى الاغلب ابراهيم •

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار ربه ، حتى اجمع اهل صقلية امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفـدا منهم الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار . ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاغلبى على ولاية صقليـة •

فتح قصر يـانة ـ كانت همة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص البقية الباقية من جزيرة صقلية بايدى الـروم والمسيحيين ؛ وهيهات لن يتم ذلك ما دام هؤلاء يعتزون بصياصيهم في قصريانة ، ويتحدون من تلك الاعالي سلطـان المسلمين •

كانت قصر يانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكأن الله كتب للمسلمين ان يفتحوها نهائيا كما فتحوها اول مرة بواسطة التسلل من ثغرة

الخلفاء بالغناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغاني ». فهذا الانغماس في الترف والرفاهية وحياة النعيم في القصور ، بين الجـوارى وكؤوس النبيذ وآلات الطرب ، ووضع الالحـان ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الـدولة التركية على انقاضها ، في كل ربوع الشرق .

الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عددا من الاسرى ، ورأت ضرب اعناقهم، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقوني وان لاميركم عندي نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جلية الامر ، وكانت النتيجة ان الخائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامي ليريه طريقا سريا يمكن منه ولوج المدينة دون انتباه الحراس •

بادر العباس بارسال كتيبة من المقاتلة ، تحت امرة عمه ، والعلج الخائن يدلهم على الطريق ، حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ، ثم انثنوا الى الابواب فاعملوا السيوف في رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامي مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، ورأى المدافعون عن المدينة ان المقاومة اصبحت لا تجدي نفعا فاستسلموا للاسر ، والقوا بالسلاح بين ايدي الغالبين، وكان ذلك في منتصف شوال سنة ٢٤٤ (٨٥٨)؛ وجاء العباس بنفسه الى قصريانة فاسكن بها المسلمين وأمر ببناء مسجدها ، وحضر افتتاحه وأدى به فريضة الجمعة •

محاولة فتح رومة — رأى العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع الناس عليه أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحيه الضربة الحاسمة وانجاز العمل الذى فشل فيه المسلمون منذ سنة ، الا وهو فتح رومة •

ففي سنة ٢٣٩ ؛ جهز العباس اسطولا ضخما يحمل جندا عتيدا وسيره لانجاز ذلك العمل فنزل الجند الاسلامي عند مصب نهر التيبر ؛ واحتل

وكان الواثق اعلم الخلفاء بالغناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو الفرج الاصفهاني كتابه الشهير « الاغاني » . فهذا الانغماس في الترف والرفاهية وحياة النعيم في القصور ، بين الجواري وكؤوس النبيذ وآلات الطرب ، ووضع الالحان ، كان من اعظم اسباب انهيار الدولة العربية ؛ وقيام الدول التركية على انقاضها ، في كل ربوع الشرق .

مدينة اوستى واخذ يستعد للهجوم النهائى .

الا ان المسيحية التى شاهدت الخطر منذ سنة ؛ وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لا محالة ؛ كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحى قويا عتيدا ؛ فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت فى الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابه ؛ وانها لا تنجو من كارثة وبيلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامى بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بمهارة غريبة النجاة من العدو المحدق بها اذ تسللت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت ــ سار الاسطول الاسلامى تحت امرة اخى العباس يؤم سواحل المتوسط الشرقى ، ليبسط سلطانه على انقاض سلطان القسطنطينية وليفتك امنها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالى جزيرة اقريطش وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقى الصدمة ؛ فاكتفى الاسطول الاسلامى الصقلى بضربات اصاب بها اسطول العدو ، ورجع لصقلية عائدا بغنائم واسلاب .

انهزام الروم فى البحر ــ كان لانتصار المسلمين بقصر يانة واندفاعهم الجريئ فى غمار البحر المتوسط اثر عظيم فى نفوس الروم ؛ وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تقض على هذه الدولة الناشئة فى صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربى ؛ لذلك جهز الروم

---

(١) نوع من السفن النقالة يدعى بالفرنسية Chaland وقد استعمل العرب هذه الكلمة وجاءت بلفظها فى كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما .

اسطولا يجمع ثلاثمائة شلنـدى (١) يحمل نجدات قوية ، وارسلت بـه مددا لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غـارات المسلمين ؛ وليمكن الـروم من اعـادة الكرة واسترجاع البـلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدى المسيحيين الى ايدى المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصمد الاسطول الاسلامي لاسطول الروم وابدى كـل من الفريقين اقصى ما لديه من مهـارة المناورة ، وانتهت المعركة بنصر اسلامي مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لـم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة رجـال فقط اصيبوا بالنشاب ؛ عـلى انني ألاحظ ان في هذا الخبر مبالغة لا تخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائـة سفينة وانهزام مائتين اخريين لا يخسر المنتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء.

بعـد هذا النصر العظيم عزم العباس فتح سرقوسة وتحطيم آخر امـل للروم في البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامي ؛ لكن المـرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها في ذي الحجة من سنة ٢٤٧ (٨٦١ م) (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد في سبيل التوسع والنور والمدنية ؛ ودفـن بموقـع استشهاده ، فنبش الـروم قبـره واخرجوا جثته واحرقوها تشفيا وانتقاما .

عبد الله بن العبـاس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ عـلى تولية ابنه عبد الله ، كما اجمعـوا من

---

(١) في هذه السنة قتل في بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك (بغـا) مع وزيره الفتح ابن خاقان (غير صاحب كتاب قلائد العقيان) ؛ وقد اصبح الترك يومئذ اصحاب القول المطلق في بغداد . وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

خليفـة في قفص　　بين بغي و (بغـا)
يقول ما قـالا لـه　　كما تقـول الببغـاء

قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله زمام الحكم من يد الامة وقد كان في حياة ابيه العظيم معوانا له في حروبه واداراته . وأخذ يستعد لأخضاع سرقوسة وينازل قلاع الاعداء .

على ان الوفد الذى سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يلق بها النجاح الذى من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تسمية العباس بن الفضل

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصد الصقليين ، وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامرهم تحت امارة عائلة ابن الفضل ، يتوارثونها خلفا عن سلف وبذلك تتقلص سلطة القيروان شيئا فشيئا ؛ فامتنع عن المصادقة ، واصدر امره لعبد الله بترك الولاية ، بعد ان شغل مركزها السامى خمسة اشهر ، سائرا فيها سيرة ابيه وجده ، مواليا الجهاد ، ساهرا على امور الرعية فصدع بالامر عن غير مضض ، واصبح اكبر انصار الوالى الجديد .

خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ (٨٦٢ م) ، وكان شهما عالى الهمة طويل الباع فى السياسة وفى الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ، عضدا متينا يخضد به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سياسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية فى الناحية التى بقيت بيد المسيحيين فى شرق الجزيرة ؛ باحتلال مدينة نوطس (نوتو) مضيقا بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التى كانت رافعة علم المقاومة بتلك الديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين فى استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المرأة فى السياسة ـ لم تقم المرأة المسلمة بدور مباشر كبير فى السياسة العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هى بسط السلطان على قصور الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ

المطلق وتوجيه السياسة العامة حسب ما يتراءى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ ضنين بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها ٠

تكن من نوادر المسلمين في جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية في عمل سياسي كبير ، وارسلت في سفارة ومهمة شاقة ٠

كان أهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين ، وكانت معاقلهم من امنع المعاقل واشدها مراسا ٠ ولقد حاول المسلمون مرارا أن يدكوا اسس هاتيك الصياصي فما استطاعوا لذلك سبيلا ٠ واخيرا أظهر المسيحيون هنالك جنوحا للمسالمة والتسليم ، وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وفد يفاوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام فارسل اليهم امرأته واحد ابنائه ٠ ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسير بمثل هذه المهمة فتخترق صياصي الاعداء ومعاقلهم وتفاوضهم في عقر دارهم تطلب اليهم الاذعان والاستسلام لهي من مفاخر الجنس اللطيف وهي من كرائم السيدات المسلمات اللاتي يجب ان يحفظ التاريخ ذكرهن العاطر الحسن ٠ وهي مع ذلك عنوان ازدهار المدنية ، وبلوغها اوج القمة ، ودليل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا في المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية ٠

نجحت السفارة نجاحا كبيرا ٠ وكأن القوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذي احتوى عليه ارسال سيدة جبلت على الخير والاحسان والعطف ، فلبوا دعوتها واذعنوا لامرها ، وسلموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صلحا ٠

لكن قضى الله ان تهلك المدينة على يد اشرارها ٠ فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا واوصدوا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقي منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلاع ٠

رأى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الخديعة يعد ضعفا وهوانا ٠ وانه ان ترك الامر بدون انتقام فهو يوشك ان يتخذه القوم نموذجا للانتقاض في كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على راس كتيبة من المسلمين

شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسرا وسبى اهلها ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ٠

مقاومة سرقوسة ـ كانت سرقوسة كما اسلفنا قتوية منيعة ؛ وكانت محط آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت القسطنطينية توالى انجادها بالمدد رغم ما اصابها في ذلك الطريق من نكبات بحرية ؛ فاتجهت همة الامير خفاجة لقهر سرقوسة واخماد جذوة المقاومة فيها فرماها بفلذة كبده محمد ؛ على رأس جند قوى ، واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالا سجل لهم صفحة من العزة والمجد ٠

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الالف فارس الشهيرة سنة ٢٥١ (٨٦٥ م) وتفصيلها ان الامير محمدا هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشراكا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه ، وخرجوا من معاقلهم يتتبعون الجند الاسلامى الذى اظهر الانهزام ؛ وكان الكمين الاسلامى يكتنف الطرق ، فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكامنهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارس من الروم ٠

وفي سنة ٢٥٤ (٨٦٨ م) ، سار محمد بقوته بحرا لمنازلة سرقوسة . كما كانت قوته البرية تضيق عليها الخناق ، فالتقى فى مياه المدينة بعمارة كبيرة ارسل بها امبراطور الروم نجدة للمحصورين ، وكان الاسطول الاسلامى الصقلى قد تعود قهر اسطول الروم حيثما ثقفه ، فاختلطت صوارى المسلمين بصوارى النصارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايدى المسلمين ، وفرت المراكب السليمة راجعة على اعقابها خاسرة ٠

وهكذا فت فى عضد الدفاع السرقوسى بحرا كما فت فى عضده برا ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات فى الميدان طويلا ٠ لكنها صممت بصفة بطولية على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خفاجة وابنه محمد٠

حادثـة طبـرمين – كانت هذه المـدينة من جملة قـلاع النصارى التى صعب على المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حـولها ، وكان دفاعها دفاع المستميت ·

جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماه حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية فى سبيله ، فخان امته واصبح دليـلا للمسلمين ، يسير بهم فى معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتحمت نيران المعركة هنالك ·

راى المسلمون ان الامير محمدا لـم يدخل المدينة ولـم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قـد حيل بينه وبين الدخـول وانهم اصبحوا مهـددين بالحصر فانهزموا ورجعوا من حيث اتـوا ، وكانت الفرقة التى يقـودها الامير محمد بنفسه قادمة حينئذ لنجدة الذين دخلـوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهـم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير · واثناء ذلك الارتبـاك ، وقبل ان يعلم الفريقان المسلمان ان فى الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوصدوا ابوابهم واعتصموا باسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح·

فتـح مـالطة – كانت جزيرة مالطة معقلا من معاقل الروم فى البحـر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم فى الشرق ومطامعهم فى الغرب ·

والجزيرة تمسح ٢٥٠ كيلومترا مربعا ، جيدة الهواء خصبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامي كنعـاني لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القـدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القـرطاجنى الطويل بطابع خـاص دام معهم الى يـومنا هذا ·

---

(١) فى هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان مملوكا تركستانيا اسر ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المامون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ، وعندما ولى احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بني العباس ؛ ورای حالة مصر من جراء اضطراب الولاة وهوجهم ؛ اعلن استقلاله في البلاد ومنع الخـراج عن بنى العباس ؛ واستمرت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن ماثره مسجد ابن طولون العظيم .

فالامير خفاجة راى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيا عن صقلية وقطع آمالهم منها وقهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانه ، ومالك مـالطة منذ قديم الازمان مهيمن على البحر المتوسط باسره ٠

سار الامير حمد على راس اسطول عتيد وجند عنيد ، فنزل مالطة ٢٥٦ (٨٦٩ م) (١) ، واتـم استيلاءه عليهـا تلك السنة ، بعد ان دحـر مقاومـة الاسطول الرومى ومقاومة الحامية الرومية ، ووجد المسلمون الافارقة والصقليون انفسهم هنالك بين قـوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ؛ واستمر سلطان المسلمين هنالك تابعا لأمارة صقلية ، مائتين وعشرين عاما (٨٧٠ ـ ١٠٩٠) الى ان استخلصها منهم غزات النرمان عندما دحروا آخر مقـاومة اسلامية فى جـزيرة صقلية ٠

وفى السنة الموالية ، اى سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الـرومى اسطولا ضخما يحاول بـه استرجاع مـالطة ، وقـد ادرك مدى الكارثة التى اصابت الروم بفقدها ، فجـاء الاسطول الـرومى يتباهى بقوته ومنعته ونصب حـول الجـزيرة حصارا ، واخـذ يستعد لانـزال جنـد يـرفع فـوقها اديمها علـم القسطنطينية ٠

حينئذ جمع الاسطول الاسلامى الصقلى رجـاله وسفنه وسار نجـدة الى جزيرة مالطة ؛ ولقد علم الـروم من قبل انهم مالقـوا اسطولا لمسلمى صقلية الا وارتدوا امامه خاسرين ، وقـد القى ذلك الاسطول الاسلامى الـرعب فى قلـوبهم واصبح منظره يكفى لهزم اعـدائه قبل استعمـال ناره واسلحته ؛ وهكذا كان ٠ فانه لم يكد اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه ، حتى نشر شراعاته واعمل مجاذيفه ، ولاذ بالفرار نحو الشرق ٠ وصفا حكم مـالطة لامراء المسلمين ٠

محمـد بن خفـاجـة

اثناء هذه المعـارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفـاجة يسير مع جنده

واتباعه في طريق سرقوسة فاغتاله غدرا احد الجند • ولا ندري ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام ، او دسيسة من الاعــداء ، فقضى نحبه رحمه لله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهــاد في سبيل الاسلام والمعــرفة والمــدنيــة •

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكانه ولقد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه • وسار وفد الى القيروان يطلب الى الملك الاغلبي محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية فلبى الطلب واصدر امره باسناد امارة صقلية الى محمد بن خفــاجة لانجاز ما كان قائما بــه من جــلائل الاعمال •

وقد داولاه المسلمون امرهم في رجب سنة ٢٥٥ ووردت اليه الخلعة والعهد من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة (٨٦٨)•

وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعداده ويجهز المسلمين للقضاء عــلى مــا بقي من صقلية بايدى الروم وخاصة مــدينة سرقوسة التى كانت مطمح انظــاره •

لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدعا عظيما في صفوف المسلمين، ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتمهيد الراحة بــدل التوجه بكليته لانجــاز الفتح • وما كادت تنقضي سنتان عــلى ولايته حتى اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه في رجب سنة ٢٥٧ • ولقد انفتحت بمقتل الشهيدين خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت في الجــزيرة داء عياء كان اكبر اسباب انهيارها •

احمــد بن عمــر يحيى

وهو من رجالات العائلة الاغلبية • اولاه الامير ابــراهيم بن احمد بن الاغلب امر صقلية ، فكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما أحدثه مقتل الأميرين محمد وأبيه خفاجة من جزع ومن ارتباك ، ومن

تشتتت شمل ٠

لا ريب ان الامير احمد قد لقى نجاحا كبيرا فى مهمته تلك فلم يسجل التاريخ في ايامه ارتباكا او اضطرابا ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعا بذلك كلمة المسلمين حول راية الله ٠

ذهب فى صائفة تلك السنة غازيا نحو سرقوسة فاثخن فى الروم ، انما لم يستطع فتح المدينة ، ولا نصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكتفى بما غنمه من اطرافها ورجع الى قصر حكمه فى بالرمة ٠

ثم خرج بنفسه فى غزوة على رأس المسلمين ، فلقى جندا من فرسان العدو عند مكان يدعوه ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك الفرسان قد انقضوا فى بعض الجهات على المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه فى القتال مع الجند المسيحى ، فنكل به تنكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع ما غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا ٠

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة دولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبى يقاسى يومئذ ازمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الآنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من الهستريا الدموية ، يعيش تحت رحمة ماليخوليا مستمرة ؛ وسيأتيك فيما يلى شىء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصيها ودانيها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون فى المياه العكرة يعملون اعمالهم وينصبون حبائلهم ، واصبحت امارة صقلية خلال تلك الايام النحسة كرة تتلقفها الايدى وتتلاعب بها الغايات ٠

جعفر بن محمد بن بربر

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمر ؛ واستقر به المقام

فى بالرمة ، واخذ يعيد النظام لبلاد تسربت اليها الفوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال ، من جراء الانقسامات ، واحياء الخلافات العنصرية والقبلية٠

فى هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما اسلفنا سائدا فى بلاد القيروان ، وكان ابراهيم الطاغية يقاسى ازمة عنيفة في داخل نفسه وفى بلاطه وبين آله وذويه ، وكانه قد آنس من عائلته ميلا للتخلص منه ، فالقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابى عبد الله ؛ ووجههم الى صقلية مبعدين فحبسوا فى دار الامارة عند جعفر بن محمد ٠

ولقد كان احمد بن ابى عبد الله اكثر الاغالبة المحبوسين مكرا ودهاء ، واقدمهم على الاندفاع فى طريق المغامرة ، فصانع هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمعوهم بالمال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة ؛ واستولى احمد بن ابى عبد الله على كرسى الحكم ، مصطنعا للرجال ، متغلبا على الامر ٠

احمد بن ابى عبد الله الاغلبى

ويلقب فى عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقداما ، وسجل اسمه على صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التى توصل بها الى الحكم ، وكانت له فى الجهاد وانجاز الفتح اعمال باهرة ٠

فتح سرقوسة ـ اتم تجهيز الجند الاسلامى ؛ وسار على رأسه نحو مدينة سرقوسة ، وقد عقد العزم على افتكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التى كيلت لها من لدن الامراء السالفين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكانوا يوالون ارسال النجدات والمدد ٠ وما باءوا بانكسار وانهزم لهم اسطول الا واعادوا الكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد

الى اذهاننا جهود قرطاجنة الجبارة التى ضاعت سدى في تلك الجزيرة •

سار أحمد بن الاغلب بقوته العتيدة فخيم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الخناق • وعلم اهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت ، فقاموا للدفاع البائس المستميت يتفانون في الذود عن مدينة كانت فى انظارهم تمثل الوطن ، وتمثل الدين ، وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؛ ويالله ! ما اروع البطولة وما اجمل ذكراها ايا كان مصدرها وأنى كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة اشهر من اوائل المحرم الحرام الى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٧) (١) ، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عقيرتهم بندائهم الحربى الذى يسمو بهم الى عالم الارواح فى الملأ الأعلى : الله أكبر : والتحمت نيران معركة ربما كانت اكبر معارك صقلية وأكثرها هولا : فما انتهت الا بعد ان دكت الأسوار ، وسقطت القلاع ، وجندل من الابطال المدافعين ما يزيد عن الأربعة آلاف كميت ، وركب الباقون البحر مغامرين فرارا من الاسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهللين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب فى اعمال الاعلام : « وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد فى مدينة من مدن الشرك » •

بهذا النصر الباهر ، لم يبق للمسيحيين بصقلية الا الناحية الشرقية ، فى شريط من الارض يمتد من شمال طبرمين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا (جبل النار) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحرا من بلاد الروم •

---

(١) فى هذه السنة ، استقر الاتراك فى بلاد الصين ، وتدخلوا فى شؤونها وتوطد سلطانهم فى كثير من الجهات التى هى الى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك أن مغامرا صينيا، (هوانتشاو) اعلن الثورة ، وتمكن من اغلب البلاد ، من بكين الى كنطون ، فاستعان امبراطور الصين ، بخان الترك اليسع ينغ فانجده بقوة كبيرة ، مهدت أمر البلاد ، ودحرت الثائر ؛ واستلم الخان التركي ، مكافاة له على اعانته للامبراطور ، مقاطعة شانسى . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوثان ونشأت هنالك امارات تركية ، طبعت البلاد بطابعها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون اغلبية سكان البلاد ، ومنهم بقايا الترك ، ومن اسلم تبعا لهم من الصينيين .

وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربي من الجزيرة حول مدينتي طرابنة ومرسلا . وقد اهمل المسلمون شأنهـا ، ولم يعيروهـا كبير اهمية ، موجهين اكثر عنايتهم للناحية الشرقية . فلما فتحوا سرقوسة وجهوا أنظارهم نحو الناحية الغربية كما سيمر بك فيما بعد .

اقام احمد بن الاغلب بسرقوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشير عليه بتهديمها ، كما امر حسان بن النعمان من قبل بتهديم ما بقي من قرطاجنة، حتى ينقطع آخر امل للـروم بتلك الديار ولا يجدوا معقلا ياويهم ان حـاولوا النزول للبر ؛ ثم رجع لبالرمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصاره بسرقوسة شيئا ، فان اهل بالرمة اعنى كبار القوم واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يـد احمد وعمه الاغلب ومن معهما ما جعلهم يقبضون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك عـلى يـد النمر المتعطش للدمـاء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطـع ؟

اضطـراب الامـر

اضطراب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غريبا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولى ويعزل حسب اهوائه وشهواته ، او حسبما تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفـاجة ، قد انفوا نوعا من الفـوضى ، واصبحوا يريدون التحكم فى الولاة ويريدون ان يسير اولئك الـولاة حسب اهوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاة لا يستطيعون فى الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فالبعض منهم كان يثور به الصقليون فيرجعونه الى القيروان ؛ والبعض الآخر كان يعزله ابراهيم ويرسل غيره مكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبا من الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثانى قد اصابت الدولة فى مقاتلها ، فاستمر امرهـا يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر

من وثبات فى سبيل الحياة هى اشبه شىء برجفة المحتضر •

الحسن بن رباح

من اجدر هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ، ونازل مدينة طبرمين ، رائما بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فاثخن فى اهل المدينة وقتل البطريق الرومى الذى كان يحكمها ويقود حاميتها •

نكبة بحرية – ولقد سرى داء الانحلال فى الجسم الاسلامى بصقلية ، فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جمرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحية التى كانت اساس انتصارهم ومبعث الرعب فى قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان منى الاسطول الاسلامى بصقلية بنكبة كانت وحيدة فى بابها •

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فلقى اسطولا للروم مؤلفا من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديدا بين الطائفتين ، فتغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا عن طريق البر منهزمين الى صقلية .

الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقيروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين فى قطانية وطبرمين ؛ ولم ينجح فى ذلك كثيرا ، اذ ان الروم اغتنموا فرصة الانحلال الذى ظهرت آثاره جلية فى الادارة الاسلامية فاصبحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضيق على المسلمين كثيرا ؛ وتغنم منهم المتاع والاسلاب والاسرى •

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تمهيد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح فى ذلك خلال السنة التى بقى فيها على رأس الادارة

الاسلامية نجاحا كبيرا •

ابـو الحسن محمد بن الفضل

ولى الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تمهدت بفضل جهود الحسين ابن العباس ؛ فاخذ الوالى الجديد يستعد لدحر قوى الروم التى كانت تعيث فى الارض فسادا عندما آنست من المسلمين ضعفا وافتراق كلمة•

اتجه على رأس القوة الاسلامية ، يريد جموع الـروم فى معقلهم الجديد (قلعة الملك) وكان ذلك المعقل هو الذى يقض مضاجع المسلمين ، ويثخن فيهم حينا بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل ، وكانت طمأنينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امـام الاعداء واشتد مـراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجـداثهم فوق ميدان القتـال ثم سار المسلمون نحو (قلعـة الملك) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتـركوا بها حـامية قوية ، ثم رجعوا لبالرمة تخفق على رؤوسهم اعلام النصر •

ثم فى سنة ٢٦٩ سار عـلى راس الجند الاسلامى يريد تحطيم مـراكز الروم فى الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق فى بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منهما منالا ، واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ، ورجع لبالرمة فى ذى الحجة من تلك السنة • وقضى بقية ايامه ساهرا على امـور البلاد مدبرا سياسة الملك ، ممعنا فى اعمال العمران والرقى المادى الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ فى ربيع الاول • وكان عزله نكبة على صقلية •

سوادة بن محمـد بن خفـاجـة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والى صقلية الطيب الذكر ، وقد ارسل بـه

ابراهيم ابن الاغلب واليا فى منتصف شوال سنة ٢٧١ بعد ما عزل عنها على بن ابى الفوارس الذى لم تطل ايامه اكثر من ستة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيرا ولا شرا ٠

عـودة الـرم ـ اهم حدث سجله التاريخ فى هذه الايام ، هو عودة الروم بقوة للميدان ، والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كان الروم قد رأوا من اختلال الادارة فى بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب فى سياسة البلاط الاغلبى نحو صقلية وتوارد الولاة وعـزلهم حسب الاهواء والمصالح والاغـراض ، راوا فى ذلك مـا جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين ٠

ابتدأت هذه الحملة الرومية الجـديدة ، بعقد هدنة مـع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة حربية ماهرة ؛ وكان المسلمون قـد ارتكبوا غلطة فادحـة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين فى سبيل ذلك الصلح الموقت ؛ وما كان ذلك الا استعدادا منهم لامر عظيم ؛ فما كانت تنتهى الثلاثة اشهر ، حتى كانوا قد رتبوا امرهم بعد اختلال ، وحصنوا مـراكزهم بعد ضعف ، وجاءهم المـدد العظيم من القسطنطينية تحت امـرة البطريق مجفـور (Nicefors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقى اعتـراضا من اسطول المسلمين ؛ وتقدم فى جموع وفيرة العدد كاملـة العدة ، فاستخلص من المسلمين مـدينة سبرينة Santa Severina ومـدينة منتية Amantéa واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وبمجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم اذا ما توالت نجداتهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة ٠

رأى اهل صقلية ان سوادة بن محمد ليس بالرجـل الذى يصلح لادارة الملك والحرب فى مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ ٠

والذى تجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع اميـر انقيادا لمصلحة عامة او اندفاعا مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله

الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء وليحاسبه على اعماله ؛ فكانت هذه الطريقة تدل على مبلغ ما كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سفك دم احد الولاة الا نادرا وعلى يد اوغاد من الدهماء ٠

ابو مالك احمد بن عمر حبشي

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة ؛ وكان عمدة فى البلاط الاغلبي ؛ ارسل به الملك ابراهيم الثاني عاملا على صقلية ، كأنه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليرجع الى النفوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة ٠

ولقد نجحت المهمة نجاحا كبيرا ، فهدأت الثائرة واطمأنت الافكار ؛ وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، فى صورة مدد جسيم يفد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لأمر عظيم ٠

وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته فى السياسة وفى الحرب ، وكما املوا على يديه من انقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومى ، وقد اعتقدوا ان الوالد لا يعزل ولده فى مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان ٠

ابو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

ممثل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابى العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة ؛ لاننا ان تصفحنا كل كتب التاريخ التى اوردت لنا

الاحاديث عن صقلية ، وخاصة ابن الخطيب فى اعمال الاعلام ، وابن الاثير ، وغيرهما رأينا ان الولاية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابى العباس محمد بن الفضل وقد كان عزل سنة (٢٧١) (١) والحسن بن احمد بن نافد ، فكان الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم : نائب الملك او المندوب السامى • فالاعمال التى ستراها مبينة اثناء ولاية هذين العاملين كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابى العباس عبد الله •

الاضطهاد البحرى - ابتدأ هذا العصر الجديد يظهر آثاره ، وقد كانت الحاجة ماسة لاظهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف، من جهة ؛ وامام المتزعمين ودعاة الشغب من جهة اخرى • فاول شيء اتجهت اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر فى امر الاسطول وتجهيزه من جديد بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكته ؛ فبذل فى سبيل ذلك همة عالية ، واظهر مراسا شديدا فبدت النتائج الحسنة بعد حين •

ذلك أن الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات قوة وباس شديد ؛ وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية•

لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه فى المرة السالفة ؛ كانوا مستعدين يقظين متنبهين ؛ فما كادت بوادر الاسطول الرومى تظهر ، وما كادت عملية انزال الجند الى البر تبتدىء حتى التحمت فوق اديم الارض وفوق عباب البحر معركة هائلة عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها ؛ وكانت تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريقى الموت والحياة ،

---

(١) من اغرب ما وقع لبنى العباس اثناء ضعفهم وانحلالهم ان الزنوج العبيد هاجموا مدينة البصرة واحتلوها ، ثم تدفقوا على اعمالها ، فامعنوا فى الحرق والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ؛ وقاتلهم العباسيون والجند التركي مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم فى هذه السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا ؛ وقد كان يدعى انه نبى مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه ويمعن فى سب عثمان وعلى ومعاوية وطلحة والزبير ؛ فلما قتل وانتهى امر الزنوج ، زينوا بغداد وطافوا برأس يهودا على رمح . وسبب هذه الفتنة هو بؤس العبيد الزنج وكثرة عددهم فى المزارع وحرمانهم ، فدعاهم للانتقاض من يخفى المطامع السياسية تحت ستار الدين .

وكانوا يعلمون علم اليقين انهم ان خسروها فسلام على صقلية ، وسلام على ملك وعمران وحضارة زاهية بها ٠

دامت المعركة أياما ، وثبت المسلمون ثباتا مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز ، وكانت كارثة الروم هائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة آلاف قتيل ؛ وعندما رأوا مدى الكارثة ، ولاذوا بالفرار الى ما بقى باسطا جناحى شراعاته من مراكبهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو الخمسة آلاف ؛ فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاخلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة ٠ وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله ٠ وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥ (١) (٨٨٩ م) ٠

قلورية ـ كان الروم قد تحصنوا فى ارض قلورية التى يفصلها عن صقلية مجاز مسينا ٠ وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين فى الجنوب الطليانى وأن يقطعوا الصلة بين مسلمى صقلية ومسلمى ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولامداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها ٠

فالمسلمون اغتنموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم ، واغتنموا فرصة الفزع الذى ساد اوساط المنهزمين ، فجمعوا الاسطول والجند وهاجموا قلورية من وراء المجاز ، فاثبتوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجموع المسيحيين ٠

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا للمرة الثانية فى الثانى من صفر سنة ٢٧٩ ٠

---

(١) فى هذه السنة اكمل الامير اسماعيل زعيم بنى سامان الفرس استقلال بلاد ما وراء النهر عن الدولة العباسية ، اذ ابتدأ امره بالتمركز فى بخارى وسمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاكمة تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادى (٩٠٠ – ١٠٠٠)

وكانت الاعمال مستمرة على التوالى فى شبه جزيرة قلورية الى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مداها اربعون شهرا يحتفظ اثناءها كل من الفريقين بمراكزه على ان يطلق الروم سبيل ا ف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر ·

فتنة عمياء – ولى الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ ؛ الحسن ابن احمد ابن ناقد ، تحت اشراف نائب الملك المذكور حسبما اسلفنا ؛ وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية ونار النعرة العنصرية · فلأمر ما نسى المسلمون الاخوة الاسلامية ؛ ونسوا عدوا يترقب بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدوة ؛ وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة ، واظهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية ، فانغمس المسلمون فى حمأة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب ؛ وهذا هو نفس الداء الذى اصاب بلاد الأندلس ، فقضى عليها مع مرور الزمن ، كما قضى على صقلية·

ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابى العباس ، وجمع اليه كما يقول ابن الخطيب ، جياد الرجال واشداءهم فنزل الجند ارض صقلية فى جمادى الاخيرة من سنة ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذارا مؤداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ما عدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولداه وعبد الله الحضرمى ·

حارب رجال السلطة الثائرين والمفسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سما، وكانت بيده لا بيد عمرو ؛ واما الباقون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار الى النار ؛ ودخل الجند الحكومى مدينة بالرمة بعد اخماد الفتنة فى

العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وامن الناس واستتب الهـدوء من جـديد الى حيـن ٠

ولقد اراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحـو الجزيرة ، لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجى ، اذ صمدت فـرق من اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ؛ وغنمت منهم ثلاثين سفينة ٠

ابـراهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب في اعلام الاعـلام :

وفى سنة ٨٩ عظم المرار والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد وتخلى لابنه الوالى بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعـاهم الى الجهاد ، وفـرق الامـوال وكـان وصوله الى بالـرم من صقلية لليلتين من رجب من السنـة فـرحل الخ ..

نعم ــ لقد عظم به المرار والوسواس ، او بالاحرى عظمت به النوبات الجنونية الهسترية التى تسلطت عليه طيلة ايام ملكه ؛ فرأى ان يخوض فى بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته؛ فاظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ، ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش القيروان الذى خضبت اركانه بدماء الابرياء ، والذى اخذت تـزعزعه عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثـم سار ابراهيم ليقضى بقية ايامـه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر لـه ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على رأس جند قوى ، فنزل بالرمة وباشر هجومه العنيف ٠

(١) اعتقد ان الروم البيزنطيين لم يكونوا وحدهم خـلال هذه الحروب الطويلة ، بل كانت معهم ولا ريب جماعات من الصقليين الذين آثروا الدفاع عن المسيحية ، معتمدين على الروم . وفى مقابل ذلك كانت جماعات من الصقليين والمولدين قد انضوت تحت لواء الاسلام وبقى جمع كبير على نصرانيته تحت حماية الاسلام العادلة الرحيمة . كما سترى

احتلال طبرمين — كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم (١) واعز قلاعهم بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يوالون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوما ما مبعث الموجة المقدسة التى ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطينى الرومى ·

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتحم مع رجال الروم فى معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لا عهد للفريقين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى فى الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ريح الفشل تهب بين صفوفهم ، لكن ابراهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرأ القارئ بين يديه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ؛ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق · ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ، يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ؛ ولباسهم فيها حرير ، وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد » فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النارية ، وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتتبعونهم بين وهاد الاودية واعالى الجبال ، فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر ، واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع ، فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين ، وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد للقتال ·

ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل المنيع اسوأ وقع فى العالم المسيحى، اهتزت له البلاد الرومية باسرها ، واعلن الامبراطور فى القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك ·

فتح رمطة — لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر نكبة طبرمين ، فسار توا يقصد مدينة رمطة ، وهى معقل آخر للروم

شرقي الجزيرة ، يقـع جنوبي طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقى للروم في تلك الانحاء ·

هاجم المسلمون رمطة ، والروم لا يزالون يألمون من ضربة طبرمين ، فلم يستطيعوا بهذه المـدينة ثباتا وانهارت سريعا ، فـدخلها ابراهيم ومن معـه وغنموا كل ما فيها من مال ومتاع ·

في ايطاليا – لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم ، فجمع جموعه القوية ، وركب البحر مجتازا الى ارض قلـورية ، وكان يقصد يومئذ الصعود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة نابـولى ؛ فاخترق بجموعـه شبه الجزيرة القلورية ؛ ووصل في شمالها الى الحد الذى يفصل بينها وبين ممتلكات نابولى ؛ وكانت هنالك قلعة كسنتة Cosenza المنيعة فخيم حولها ونصب عليها الحصار ؛ وامعن في التضييق عليها ·

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لخـالقها ؛ يوم السبت ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ (اكتوبر ٩٠٢) ·

لم يعلم اهـل كسنتة بموت الامير ؛ فارسلوا وقـد ضاق عليهم الخناق يطلبون الامان والتسليم ، فامنوا ؛ وقبل استسلامهم ، ونقلت جثـة الامير ابراهيم الى بانرمة فدفن هنالك وبنى على قبره قصر ·

سيرة ابراهيم بن الاغلب – ولى ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من العمر الا ١٤ عاما ؛ ومات مجاهدا في ايطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مـدة ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثناءهـا من الفظائـع والآثام ما قضى بـه على الملك الاغلبى ، وكان اعظم ممهد للسبيل في وجه الدعوة الفاطمية الناشئة ·

ازى ، وقد ازفت الساعة التى ستنهار فيها الدولة الاغلبية ، ويتغير وجه الخريطة السياسية في الشمال الافريقي وفي صقلية ؛ ان انقل لك صفحة عن سيرة هذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يمحو الظلم آثار الدول ، وكيف تعمى القلوب التى في الصدور ، فتسير مـع اغراضها وشهواتها غير حاسبة حسابا لما يحدق بها من اخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتدأ ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املاكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات » •

هذه الصورة غـالطة لا تمثل لك شيئا من ابـراهيم الجبار الذى كـان السبب الاصلى فى انهيار الملك الاغلبى ؛ اما ما اتفق عليه المـؤرخون فى شأنه فقد لخصه تلخيصنا بليغه المـؤرخ التونسى الكبير احمد بن ابى الضيـاف ، مستمدا معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره ؛ واليك ما يقوله ابن ابى الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتدأ امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الخلال الحميدة شأن الـدول قبيل الانقراض ، فساءت ظنونه وتغيرت اخلاقه وفسد فكره واسرف فى القتل ؛ وفى سنة ٢٦٨ فتك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحاقهم فى الحفـر ؛ وفى سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فما تحـرك ولا نطق بكلمة ثـم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حـوله : لا تظنوا انى افزع من الموت ووعدهم انه سيفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقُه ؛ ففعل • الخ

« وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثرا منهم القاضى عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيـان عزله وحبسه ثم سمه ؛ ومنهـم اسحـاق بن عمـران المحتسب قتله وصلبه ؛ ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات ؛ ومنهم فتيانه من انصقالبة ، وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقـوال المنجمين والمتخرصين على الغيب ، وكانوا يقولون له انه يقتله رجل ناقص وانه يمكن ان يكون فتى ، فكان اذا رأى احدا من فتيانه فيه نشاط وحدة يتقلد سيفـا قال هذا صاحبى فيقتله ، ولمـا قتل منهم جماعة خافهم وافضى به ذلـك لقتل جميعهم ، واستخدم عـوضهم فتيان السودان • ثم عرض له منهم ما عـرض

للفتيان الصقالبة فقتلهم اجمعين ؛ وقتـل ابنه المكنى بـابى الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نمي اليه ان محمد المنجم قـال لأبنه انه يـلى الملك ، ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته وكانوا ثمانية ، ومن هناته انه افتقد منديلا كان يمسح به فمه ، وقد سقط من يد بعض جـواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ؛ ومنها انه كان يقتل بناته ، فكانت امـه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفتها وربتها حتى اجتمع عندهـا منهن ستة عشر جويرية فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدى قد ربيت لك وصائف قـال نعم ؛ قالت اتـراهن فقـال نعـم ؛ فزينتهن وادخلتهن اليـه فاستحسنهن ؛ فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى اتت على آخرهن ، فلما خرج قال لخادم له اسود كان سياقا يقال له ميمون : امض وجئنى الآن برؤوسهن فتوقف استعظاما لذلك ؛ فقال لـه امض ويلـك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ؛ فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقفن على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياف يا سيدى ومـا الذى اذنبنا اما ترحمنا فلم يغن ذلـك شيئا ، فقطـع رؤوسهن ، ينظر بعضهن الى بعض وجاء اليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يـديه (١) . قال لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : قلت اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يتعقبه رضاك ولاتمنحه رحمتك ، اهـ. وكان من كتابه الأديب البارع العالم احمد القديدى ، فقربه وجعل اليه اموره كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخاطبه من محبسه برسالة بديعة تلين القلوب القاسية (هنا ذكـر ابن ابى الضياف

---

(١) من المحتمل ان تكون الدعاية العبيدية الفاطمية قد بالغت فى وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فاضافت لها اساطير لتسود نهائيا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته . والا ، فالعقل لا يكاد يصدق ان ملكا مهما كان هستريا ، يستطيع ان يصل الى هذه الدرجة من الموبقات والآثام . كما لا يتصور الانسان خضوع الشعب المسلم واستكانته ، وسكوت علمائه ورجاله ، امام هذا الطغيان الاجرامى المنافى لكل احكام وتعاليم الاسلام .

نصها ، وهي طويلة ، لا موجب لذكرها ، وان كانت من آيات الفن ، ختمهـا بقـولـه :

هبني اسأت فاين العفـو والكرم | قد قادني نحوك الاذعـان والنـدم
ياخير من مـدت الايدي اليه امـا | تـرثي لمن قـد بكاه عندك القلـم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر | ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فوقع بجهله وطغيانه تحتها · ان الملوك اذا ما استرحموا قتلوا · ووضعه في تابوت حتى مات جوعا وعطشا ·

« وبقي ابراهيم في تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، ونار الداعي الى الـدولة العلـوية العبيدية تاكل اطراف مملكته · وكان قـد اتخذ جنـد بلزمة (١) ، واصطفى من ابطالهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم في حراسته ، ثم بعث اليهم ابنه في جند وقتلهم بتمامهم · وكان ذلك اقـوى الاسباب في انقراض دولة بني الاغلب ، وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجند الداخلين الى افريقيا عند افتتاحها ، واكثرهم من قيس ؛ وكانوا شجى في حلق كتامة من البربر القائمين بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتامة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة بني الاغلب ؛ ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراى اشد المحاربين ·

« وثار على ابـراهيم اهل تـونس والجزائر والاربص وباجـة وقمودة ، وقدموا على انفسهم رجـلا من الجند ؛ فانتقل ابراهيم الى رقـادة وحصنها ؛ والجرأة على سفك الـدم ، انذار بـزوال الملك » انتهى ما نقلناه عن ابن ابى الضياف رحمه الله ·

الدعـوة الشيعية ـ في هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح في بحر من الدماء البريئة ، قدم من المشرق ، داعي الشيعة الاسماعلية ابـو عبد الله الحسين بن احمد ونزل بفرجيوة من ارض كتامة ؛ واخذ ينشر الدعوة للمهدى

---

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا في الشمال الغربي من مدينة باتنة بالاوراس .

المنتظر من ابناء فاطمة البتول ، ويبشر الناس بقرب ظهور المهدى الذى يملا الارض عدلا بعد ما ملئت جورا ؛ فالتفت حوله كتامة المتعطشة للحكم الناقمة على الدول انهرمة التى كانت تقتسم يومئذ ارض الشمال الافريقى : دولة الاغالبة فى الشرق ودولة الرستميين فى الوسط ودولة بني ادريس فى الغرب ، واخذ يدعو جهارا لعبيد الله المهدى ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعلية انعلوية ؛ فلقيت هذه الدعوة نجاحا يفوق حد التصور ، كأن البلاد كانت تنتظر الحاكم الحقيقى ، المنقذ ، الذى يوحد صفوفها ، ويجمع كلمتها ، ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه ؛ وخاصة ان الدعوة لآل على وابناء فاطمة كانت تصادف هوى فى النفوس ، وكان الناس يأملون على يد احفاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال المؤرخ الكبير احمد بن ابى الضياف فى شان الشيعة الفاطمية : ولا يظن فى القوم انهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضى الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل على على الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جدهم سيدنا على ؛ حيث قبل جارية من سبى عمر وهى الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون فى هذا التفضيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزعات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب على وآله يستوى فى ذلك عالمهم وجاهلهم، جبلة فى طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا على . الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض فى شىء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة فى القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله الشافعى اذ يقول :

ان كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان انى رافضى »

كان عبيد الله المهدى قد وقع بين يدى الاغالبة فسجن ، وكان عبد الله بن الحسن الصنعانى يجمع الجموع ويجيش الجيوش ويستولى على اطراف البلاد

معتمدا على سواعد كتامة وحرابهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للوثبة النهائية ، وتحطيم دولة الاغالبة التي حطمها ابراهيم الآنف الذكر قبل ان يحطمها اعداؤه .

انهيار الدولة الاغلبية ـ خلف ابراهيم السفاح ابنه الذى كان كما اسلفنا يمثله فى صقلية ، فكان شهما عالى الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما امعن ابوه فى فتقه . ولقد كان ينجح وكادت الحالة تستقيم ، لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقى ، كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التي تختم صفحة ناصعة ؛ ذلك هو زيادة الله الحقير .

تسولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله فى صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؛ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والخراب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشرأبت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيعا كل حزب بما لديهم فرحون . أما زيادة الله الخبيث ، فقد كان قابل كل ذلك بمجالس لهو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره فى بالرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فالقى به مسجونا مقيداً داخل داره .

اخذ هذا الشقى يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منهما ، ترصدا لابيه حتى نام ، وهما على حراسته ، فاحتزا رأسه ، وذهبا به داميا فرميا به بين يدى الابن النذل ، وفكا قيوده ، فنادى بنفسه ملكا وأخذ البيعة العامة في شعبان سنة ٢٩٠ وبادر بالغلامين قاتلي ابيه فمثل بهما وقتلهما شر قتلة دفعا لتهمة التواطىء معهما على ذلك .

وقد رأى ان الخرق الفاطمى قد اتسع على الراقع ، وعلم ان لا قبل له بدفع تلك الكارثة الا باعتماد الخليفة العباسى المكتفى بالله عله يرسل له جندا يعينه على دحر قوى الصنعانى المخيمة على اطراف المملكة . فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منهما عشرة آلاف دينار زنة الواحد منها

عشرة مثاقيل وقد كتب على وجهيها :

يا سائرا نحـو الخليفة قل لـه	ان قـد كفـاك الله امرك كلـه
بـزيـادة الله بن عبد الله سيـ	ف الله من دون الخليفـة سلـه
ما ينبرى لـك بالشقاق منافق	الا استبـاح حـريمـهُ واذلـه
من لا يـرى لك طاعة فالله قـد	اعماه عن سبل الهـوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب اتغزير جندا ، واصطنع بـه رجـالا ، لكان ذلك اجدى لملكه وانفع لأن انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لـم تجده نفعا ، فان عبد الله الصنعاني قد وثبت وثبته النهـائية فكانت معركة الاربص الهائلة التى تفرق فيها جيش الاغالبة بعد ان مـات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠فجمع زيادة الله ، او نقصان الله ما استطاع جمعه من مال ومتاع ؛ وشد رحاله الى المشرق تاركا ملك الاغلب يبكى من بناه ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذ عامل مصر اوامر الخليفه ولـم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا • فبعد ايام قضاهـا زيادة الله فى القدس الشريف يلهو ويلعب ويعبث ويطرب قبض الله زوجه الشيقة بالرمة سنة ٣٠٣ (١) .

وهكذا انهارت دولة بنى الاغلب العظيمة التى كانت من اغرب ممالك العـرب والمسلمين ، واكثرها مدنية ونظاما ، واحسنها جهـادا ، وامعنهـا عمـرانـا (١) •

قال فيكتور بيكى فى كتابه الآنف الذكر : مدنيات الشمال الافـريقى « لولا ان الاغالبة جمعوا الى جـانب خلالهم العسكرية الانهماك فى الملـذات

---

(١) كانت الحرب حامية الوطيس فى بـلاد الاندلس بين الملك اردونيو ؛ الذى جمـع شتات البـلاد المسيحية هنالك وتصدى لحـرب المسلمين ، وبين الخليفة عبد الرحمان الثالث ؛ فاندحـر عبد الرحمان اول الامر ثم اعـاد الكرة فانتصر واحتل طليطلة ثم انكسر ثانيا سنة ٣٠٦ وعقد هدنة لثلاثة اعوام ؛ فلما انقضى اجلها وكان قد جمع جندا عتيدا هاجم المملكة الاسبانية فشتت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال البيرنات فى فرنسا .

والشهوات لاستطاعوا ان يمدوا في اجل تفوق العنصر العربي بهذه الديار ؛ لكنهم سقطوا تحت عنف الضربات البربرية الواردة من ناحية المغرب ، وكان بسقوط الاغالبة سقوط النفوذ العربي ، وانهيار السنة تحت موجة الشيعة الظافرة ·»

العبيديون بالقيروان ـ دخل ابو عبد الله الصنعاني مدينة القيروان ظافرا منصورا ، وكان عبيد الله سجينا مع ابنه ابي القاسم في مدينة سجلماسة عند اميرها ·فخرج علماء القيروان واهل العقد والحل فيها للقاء الصنعاني وهنؤوه بالنصر والفوز وسالوه لمن يخطبون في صلاة الجمعة فلم يعين لهم احدا لانه لم يكن يعلم مال عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر الدين · واعلن ابو عبد الله الامان العام للناس في اموالهم واعراضهم وحرياتهم ، انما صادر اموال زيادة الله الاغلبي الهارب ، وحفظ سلاحه وجواريه ، ثم نقش على النقود من وجهها الايمن : بلغت حجة الله · ومن وجهها الآخر : تفرق اعداء الله ونقش على الاسلحة : عدة في سبيل الله · ووسم الخليل : الملك لله ·

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض في وثبة جريئة الى سجلماسة بالمغرب الاقصى ، فاخرج من السجن الشريف عبيد الله ، وجاء به مبجلا مكرما وهو يمشي بين يديه حتى ادخله القيروان ، ثم سار به الى قرية رقادة التي كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغلبي الذي كان آية من ايات الفن والجمال · وهنالك في ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء وخاصة الناس وعامتهم ، وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق يبلغ من العمر ٣٧ سنة ، مهيب الطلعة عالما شجاعا كانه خلق ليكون رأس دولة وزعيم ملك ، وكل ميسر لما خلق له .

---

(١) والحقيقة ان جرائم ابراهيم ، وحفيده زيادة الله ، كانت قد حكمت على هذه الدولة بالتلف والانهيار ، نتيجة تفرق العصبة وسخط الرأي العام . فلو لم تقض عليها الحركة الشيعية ، لقضت عليها لا محالة حركة اخرى ، من الداخل او من الخارج .

تأسيس المهدية – لم يطب المقام لعبيد الله المهدى بقصر رقادة . ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصلح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدامها الثابتة ، ورمت الى المشرق بانظارها الطامعة ، وقد رأت من اختلال امر الدولة العباسية ومن وهن امرائها بمصر الذين يطيعونها اسما ويستبدون بالامر فعلا ، ما جعلها تستعد وتمعن في الاستعداد للوثوب على تلك الاصقاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامى من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بنى فاطمة ؛ كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبر تحطيم الدولة الاموية ، لجمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بنى العباس .

طاف المهدى بنفسه على رأس حاشية مختارة ، كل السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختار الموقع البديع في الساحل الذى امر بان تبنى فيه المدينة الجديدة التى تحمل الى الابد اسمه « المهدية » فابتدأ البناؤون في العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدوله واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين .

محمد السرقوسى

بعد هذه البسطة الوجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسنرى آثار هذا الانقلاب العظيم في جزيرة صقلية ؛ نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب .

---

(١) في هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمان الناصر ، وهو اول من لقب بالخليفة هنالك ، واندفع في ميدان الانشاء والتكوين ؛ فاختط مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه ؛ وانشأ في قرطبة وغيرها عددا جسيما من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة ؛ واصبحت في ايامه قرطبة كعبة العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع .

بعد موت ابراهيم بن الاغلب المجنون ، محاصرا مدينة كسنته ، استولى ابنه وممثله بصقلية ، ابـو العباس ملك القيروان ، فارسل ابنه زيـادة الله ممثلا له بالجزيرة فخلا الى اللهو والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وحبسه وكان من امره ما رأيت في الصفحات السالفة اذ قتل اباه وانتصب في القيروان ملكا ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بنى الاغلب على يديه .

كان محمد السرقوسى ابـرز ولاة هذا العهد المضطرب ، وقد حـاول ، ونجح فى بعض الاحيان ، تسكين الثائرة وتهدئة الخواطر وجمع الكلمة ريثما تسفر حالة افريقيا عن امر ؛ وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

عـلى بن محمـد بن ابى الفـوارس

واحمد بن ابى الحسين بن رباح

أولى الناس فى صقلية امرهم على بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجـوا ان يتمكن من انجـاز عمـل محمد السرقوسى فى تمهيد الامن وجمع الكلمـة ، وراسلوا امير القيروان زيادة الله في ذلك ، فامتنع عن المصادقة ، وارسل من قبله واليا عـلى صقلية الامير احمد بن ابى الحسين ، فما قبله اهل الجـزيرة الا على مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

عندما بلغ اهل صقلية نبأ انهيار دولة بنى الاغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها ؛ ثاروا بالامير احمد بن ابى الحسين فحبسوه واعادوا للولاية على بن محمد وذلك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبد الله الصنعانى داعية المهدى يطلبون اليه المصادقة على الـوالى الجديد ويعلنون الانضمام للدعـوة الفاطمية والقيام بامرها ، فصادق ابو عبد الله على ذلك وراسل الامير الجديد يقره على عمله ويوصيه بالتقوى والجهاد والثبات فى سبيل الله . لكن ايام هذا الوالى لم تدم طويلا ، اذ ان العبيدين ما صادقوا على تـوليته الا بصفة مؤقتة ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والانقياد ، فعندما تم

صقلية منذ افتتاحهـا على يد أسد بن الفران ، سنة 212 إلى يوم أعلنت الجزيرة لهم ذلـك استقدمـوا احمد بن ابى الحسين وامروه بان يستقـر في رقـادة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد٠

فتكون ايام الحكم الاغلبى بجزيرة اعتناقها دعوة الفواطم سنة ٢٩٦ ؛ ٨٤ سنة ، مضت كلهـا فى جهاد شريف ، ونضال عنيف ، وتمهدت فيها سبـل الامن ، واستقرت الراحة فى المدن والقرى ، ولـم يكن الاضطراب الذى ساد آخر الايام مانعا الناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصا ببعض الطبقات ؛ اما بقية الناس فكانت دائبة على اشغالها ، قصاراها من امـور الدولة انها تجد دائما القاضى النزيه الذى يفض ما يقـع بين الناس من مشاكل ، وتدفع زكـواتها بنظام لممثل السلطة مهما كـان اسم متولى الامـر ٠ اما الخـلافات العنصرية والقبلية ، التى اشتعلت نيرانها موقدة سنة ٢٨٤ ، فقد نامت الى حين ، وبقى دعـاتها وزعماء فتنتها يتـرقبون الفرص ، الى ان تمكن الفاطميون من نصب سلطانهم ، فالتهبت النيران ، وسفكت الدماء ، ووقعت فتنة صقلية الكبرى ، مما جعـل استاذنا الكبير الشيخ عبد العـزيز الثعالبى رحمه الله يقـول فى تذييله الكتاب « غزوات العرب فى البحر المتوسط » للامير شكيب ارسلان ؛ مـا نصـه :

« واستمـر نجم الاسلام صاعـدا فى اوربـا بعد هذه الـوقعة العظيمة (الانتصار البحرى سنة ٢٧٥) وامراء الاغالبة لا ينفكون عن تعـزيز المسلمين فى ولاياتهم الاروبية ومراقبة حـركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كـل مسعى فى الانتكاث ، حتى دان من فى حوزتهم من النصارى للاسلام ، وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الامراء الاقطاعيين وطغيان الكنيسة الكاتوليكية ، واستمر ذلك الى ان ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية فى قبيلة كتامة البربرية من المغرب الاوسط ، وقدر لهـا ان تجتاح الـدولة الاغلبية فتعطل الفتح فى اروبا ، وانقلبت جيوش افريقيا مغيرة على العالم الاسلامى لتقويض

دولة بعد اخرى ، وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق ، وبسبب ذلك تحولت السياسة الأسلامية تجاه اروبا من الهجوم والتوثب ، الى الدفاع والتسليم ·

ولم يجن احد على الاسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون او الفاطميون ، الخ · مما سياتيك تفصيله بعد حين ·

القسم الخامس

الحكم الاسلامي ايام الدولة الفاطمية

عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن ابى خنزير

لا بدع ان أحدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما فى البلاد الصقليه . على ان اواخر ايام الاغالبة لم تكن فى صقلية ايام راحة وهدو واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضغثا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة،ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة،ان اسفرت عن شيء فعن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغالبة ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبة الدولة ايام الفاطميين ، فقضت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ، وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ، وعلى يد عائلة بنى الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدى سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية ، الحسن بن احمد بن ابى خنزير ، من زعماء كتامة البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير عنصرى بربرى،فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم النعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ، وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، وكثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الخراب والدمار ، اذ تحل الدسائس العنصرية والخلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب العنصر البربرى على العنصر العربى بل زاد الطين بلة بمحاولة الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعى بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركا لهم حرية الدين ٠

وما كانت هذه الاعمال لتنتهى الا بالانتقاض واراقة الدماء ٠

ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابى خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية ، فراسلوا المهدى معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالى وفساد اعماله ، وأفن رايه ، وما تسبب فيه من فتن هو جاء بين المسلمين ٠

على بن عمر البلوى

تقبل المهدى على كره منه اعتذار مسلمى صقلية ، فاعلن عزل الحسن ، واولى مكانه على بن عمر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخا هرما ، لين العريكة ، كريم الاخلاق أراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح وكانت القبائل البربرية التى قدمت البلاد والتى استقرت فيها من قبل ، قد التفت حول الحسن وعلى ابنى الوالى المعزول الحسن بن ابى خنزير ، فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت سلطة الوالى الواهية ، على تنفيذ خطط ابيهما ، من حيث التفرقة العنصرية الآثمة ، ومن حيث فرض المذهب الشيعى على البلاد ٠

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة من بربر ومولدين مخرجا لهم من تلك المحنة ، الا اعلان الثورة ، والانتقاض على سلطة الفاطميين ٠

احمد ابن زياددة الله بن قرهب

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة ، وعلموا انهم ما داموا على ولاء المهدى فالحالة لن يتطرق اليها ادنى تغير ٠ ففى السنة الموالية لولاية على بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على الوالى على بن عمر وعلى

ولدى بن ابى خنزير واركبوهما البحر الى افريقيا ، وبايعوا بالولاية احمد ابن زيادة الله بن قرهب وهو من قرابة الاغالبة •

الخلافة العباسية ــ كان احمد بن قرهب كارها للولاية ، حتى انه عندما رأى الناس اجمعوا على تقديمه لها فر من وجههم ، وآوى الى غار يحجبه عنهم، فامعنوا فى طلبه واخرجوه من مخباه واقسموا له ليكونن فى طاعته وليموتن دونه ، فقبل الامر اذ لم ير محيصا عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى الامر الا معتمدا على الخلافة العباسية ، نابذا لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب مذهبى وعنصرى ، وهكذا كان • فتولى الامارة معتزا باهل السنة من عرب وبربر ومولودين ، وراسل الخليفة المقتدر بالله فى بغداد يعلن القيام بدعوته ويضع امارته تحت سلطته ، وجاءته رسل الخليفة تحمل الا لوية السوداء والخلع السود شعار الخلافة العباسية . ثم وقف ابن قرهب وقفة الامير الحازم والزعيم القوى الشكيمة الجسور فى الحق ، فضبط الامور واستقامت له الاعمال ، وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامنا منها تحت الرماد •

رجوع الفاطميين واندحارهم ــ ما كان عبيد الله المهدى وما كانت قبائل كتامة ومن لف لفها لترضى بخروج صقلية عن الامر ، واصباحها مركزا للدعاية العباسية العربية السنية ، وادركوا ما فى ذلك من خطر جسيم على الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفا حازما ، ورأوا وجوب المبادرة باطفاء هذه الجذوة قبل ان يستفحل امرها •

جهز المهدى اسطوله وعمره برجاله الاشداء ، ووضع على رأسهم ابن ابى خنزير بعد ان اعلن من جديد ولايته على صقلية،فسار الاسطول والقى مراسيه فى مدينة رمطة ، انما رجال ابن قرهب لم يكونوا غافلين • فتلقوا ذلك الاسطول بما جمعوه لمثل ذلك اليوم من قوة ؛ والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ، وفاز اهل صقلية فوزا مبينا فاحرقوا اسطول المهدى واسروا ستمائة من رجاله وقبضوا على الحسن بن ابى خنزير نفسه ، وكان قد آلم من قبل نفوسهم وترك فى قلوبهم ضغينة لا تنسى ، فقتله ابن قرهب تشفيا وانتقاما •

نذالة وسقوط ــ جهز المهدى حملة جديدة سنة ٣٠٣ ، سيرها على صقلية، محاولة استرجاعها ، فباءت بفشل ذريع .

لكن المهدى ان لم ينصره اسطوله على صقلية ، فقد نصره فيها دعاة الهزيمة او رجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا يومئذ بدعاية واسعة النطاق ، تمكنوا من اقناع خاصـة الناس وعامتهم بها اذ قالوا : ان المهدى لن يصبر عن اندحاره المتوالى فى صقلية ، وانه لا ريب راجع علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به ، فالـرأى الاسد هو اعلان التوبة والندم والرجوع لحكمه ، وخلع طاعة بنى العبـاس الذين لم نر منهم الا شعارهم الاسود ، ولا يستطيعون امدادنـا بشىء . (وهذا فى الحقيقة امر لا مراء فيه)

وصل الامر لعلم ابن قرهب فجمعهم وذكرهم بما قطعوه له من عهـود ومواثيق ، فما اغنى ذلك عنه شيئا وتصلبوا فى مرادهم ، فاستسلم امـام ارادتهم واخذ يجمع امواله ومتاعه وجهز مركبا يحمله مع ذويه الى بلادالاندلس فرارا بنفسـه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الأليق بكم هو ارسال ابن قرهبقربىللمهدى وتزلفا ، عله يراها لكم يدا ويعفو عما اسلفتموه من خلع طاعته ، فوجدوا من الدهماء اذنا صاغية ، وخالف بعض رجال الشهمامة هذا الرأى الآفن ، فقامت من اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها النذالة على الرجلة ، فالقى القبض على ابن قرهب وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدى ، وطلبوا مقابل ذلك ان يرسل لهم المهدى واليا من قبله ، وقاضيا يحكم باسمه ، وهم يقومون فى بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظـام « الدومينيـون » او الحكم الذاتى حسب الطريقة المعروفة الآن .

فى المحرم سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قرهب الى مدينة سوسة ووقف امام المهدى هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره فى مثل ذلك الموقف، فاستجوبه المهدى ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدامه على قتل الحسن ابن ابى خنزير فدافع ابن قرهب عن نفسه دفاع الضعيف وقال ممـا

قاله : لقد اولانى الناس امرهم وانا كاره . ثم عزلونى وانا كاره .

رأى المهدى يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ، وان زجر صقلية قد اصبح محتما بعدما ظهر منها ، فامر با بن قرهب وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا مبرحا ، ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابى خنزير ثم صلبوا ، وكانت هذه المعاملة الفظيعة التى فشا ذكرها فى طول البلاد وعرضها ، انذارا رهيبا لكل من تحدثه نفسه بالخروج عن الطاعة ، والانتقاض .

ابـو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية. فقد ارسل اليهم المهدى اجابة غريبة لمطلبهم : رجلا من زبانية البشر هو ابو سعيد الضيف موسى ، على راس اسطول قوى وجيش عتيد ، فنزل ارض صقلية فاتحـا غازيـا كأنه فى بلاد غير اسلامية ، ورای اصحاب فتنة ابن قرهب ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم فـى بلرمة وتحصنوا بها ، وامتنعوا عن ابى سعيد ، فجاءها ووقف على جدرانهـا وقفة الجبار العنيد ، وحاصرها اشهرا الى ان نفذ منها الـزاد والصبـر ، فافتتحها واطلق يد جنده من قبائل كتامة فانتهكت الحرمات ، واستباحـت المحرمات ، وهدمت الديار ، وخربت المعالم ، واخذ ابو سعيد خيل القـوم وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم مغرما ثقيلا فادحا ، ولم يكفه كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل ، فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث بهم اسرى الى افريقيا ، واراد الله لهم الهلاك فغرقت مراكبهم فى البحر قبل وصولها .

ساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ، وخضع الجميع للسلطة الفاطمية خضوع من لم يبق فى فمه لسان ، ولا فى يمينه سنان ، وسكن رجال كتامة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول فـى البـلاد ، واستمر ذلك الى اذا نتهت اعمال الزجر والتنكيل ، وعمرت المدائن والثغور برجال الدولة الجديدة ،

فقفل الضيف (واى ضيف هو !) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته ،

وقد دامت نكبة صقلية الدهماء ، كما رأيت ، نحوا من عشرة اعوام ، في الفترة الاولى ٠

سالم بن راشد

٠ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاة بني الاغلب من فتح جنوب ايطاليا ٠

الفتح في جنوب ايطاليا ـ كا ن اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت شوكته يومئذ ، وكان يقوده امير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ، فافتتح في فلورية مدينة واري Oria بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من النصارى واخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ، واسر فيها بطريقا ، صالحه عن نفسه وعن مدينة بخمسة آلاف مثقال من الذهب ، ثم جاء قائد الاسطول يسلم للمهدي تلك الغنائم الباهرة ، فقال بعض رجال الحاشية : تا لله ان الذي يؤدي هذا لهو الامين ! فجاب المهدي : والله ما اعطاني من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا تدرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثيق احدا

ثم في سنة ٣١٣، وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة فتلقاه اهلها بدفاع حار واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحمة هائلةاسفرت عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها ٠

في سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الخشب واستحوذ على ما كان فيها من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne التي اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان الفريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقابلة اسطولهم الذي ملأ البحر رعبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان الذين اخذ نجمهم يتألق في البحر يومئذ ٠

صفحة بيضاء ـ القاضي ميمون ـ خلال هذه الايام السوداء الكدرة ، وفي وسط هذه الفتن الدهماء ، نرى لزاما ان نسجل صفحة طاهرة من اجل واروع صفحات القضاء الاسلامي هي صفحة القاضي ابي عمر وميمون ،

لترى منها ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحى السياسة والادارة ، وان البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم ، فهنالك ناحية بقيت فى معزل عن الفتن ، وهنالك سلطة لم تمتد لها يد الطغيان بسوء ، الا وهى ناحية القضاء الاسلامي الذى بقى نزيها طاهرا نقيا ، يلتجىء اليه الناس فيجدون فيه الملجأ الامين ، ويحتكمون اليه فلا يجدون فى انفسهم حرجا مما قضى ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقيا ، انه فى سنة ٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ، توفى بمدينة سوسة القاضى ابو عمر وميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل سمع عن سحنون ، وكان معدودا فى اصحابه ، ولى مظالم القيروان ثم ولى قضاء صقلية، فلما ولى قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كسائى وهذه فروتى وهذا خرج فيه كتبى ، وهذه السوداء تخدمنى ومعها جبة وكساء فبهذا دخلت عليكم فانتظروا باى شىء راجع .

قال ابو الربيع : فاخبرنى سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل اليها قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ ونزل فى دويرة لطيفة ، وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل ذلك ، فاذا ضرب احد الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضى الى ان اعتل ، فاقام ثلاثة ايام لم يخرج ،فقرع النس الباب فخرجت لهم السوداء وقالت ادخلوا فعودوا القاضى فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتين محشوتين تبنا عند راسه وحصيرة يردى تحته ، فلما رآنا بكى ، وقال والله اننى اجتهدت ما استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهلها : خلف الله لكم بعدى بخير ، فقالوا صحبك الله بالعافية ، فوصل الى سوسة فقال يا اهل سوسة : كما دخلنا عليكم رجعنا اليكم ، هذه كسائى وجبتى وخرجى فيه كتبى وهذه السوداء تخدمنى . »

---

(١) فى كتاب العبر للذهبى انه مات سنة ٣٢٠ ، بعد ان عمر مائة عام .

قال محمد بن الحارث بن اسد الخشني في طبقات علماء افريقيا : ادركته مقعدا شيخا كبيرا ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدى به سنة ٣٠٣ ، وانا اقرأ عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاما لعمر بن الخطاب فجعل يبكي خشية وتواضعا ، فانى لفى ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت صقلية • فجعل يتأسف • »

والمقصود هنا بفتح صقلية ، هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية •

مبدأ ظهور النرمان — رأينا في مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم النرمان وكيف انتشروا في شرق اوروبا وفي غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم في امر صقلية ، ذلك التدخل الذى ابتدأ امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة •

في سنة ٣٠٠ ، وفي الايام الاولى من ولاية ابن قرهب ، كان جماعة من النرمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف،واذ كانوا على مقربة من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وكانوا في حرب معهم ، فانجدوهم ونصروهم على عدوهم •

واذ راى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تغافل عنهم ، وان نجداته المتوالية لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال النرمان البقاء عندهم ، والأتيان بقومهم اليهم ، حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصرا نهائيا على المسلمين •

---

(١) بمناسبة ذكرنا للقضاة والقضاة الاسلامى نذكر طريقة القضاء في ذلك العصر ببلاد المسيحية :

كانت العدالة تعتمد في الاغلب يومئذ على احدى طريقتين : الاولى هي المعروفة باسم « حكم الله » وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير بها بعض خطوات ثم يلقى بها الى الارض ؛ فان خلفت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة ايام كان مجرما واستوجب القصاص وصارم العقاب ؛ وان خلت يداه من آثار النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئا واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهى المبارزة العدلية ؛ وذلك بان يلتقى المدعي والمدعى عليه ، وفي يد كل منهما سيف ويتبارزان ، فالغالب في المعركة هو صاحب الحق والمغلوب هو الظالم المعتدى ؛ وان كان المدعى او المدعى او كلاهما غير قادر على استعمال السلاح فله ان يكلف وكيلا للدفاع عنه بواسطة السيف .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون اليها ما انتجته المدينة الاسلامية في صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ فـي في اوربا ، ورغبوا شبانهم في ارتياد تلك الناحية طلبا للثروة ، تحـت ستار الدفاع عن المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين ، فكان برتقال صقلية مذكيا لنهم النرمان ، كما كـان تين قرطاجنة من قبل مـذكيا لنهم الرومـان عندما اخرج قاطون من كمه حبات من التين وخاطب المجلس قائـلا : ان ارضا تنبت مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا ·

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون الفرص التي تمكنهم من تقويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح في جنوب ايطاليا ـ وفي سنة ٣١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة من اربع سفن ترتاد البحر فلقيت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن، فداهم الاسطول الاسلامي اسطول الطليان ودحره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحري ان استولى المسلمون على مدينة طرمولي Termoli ومن اغرب غزوات هذا العهد غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق ، فقد سار على راس اسطول ضخم من اساطيل المسلمين ، قاصدا شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Géne درة ايطاليا اللامعة ومرساها الـذي سارت بذكره الركبـان ، ونازلها فانس منها ضعفا ، فانزل جنده وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها راية المسلمين الظافرة الى حين ·

الثورة ـ لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها مـن فخار ، لتشغل سالم بن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية الذين الفوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضغائن ، اثر اعمال الزجـر والتنكيل التي قام بها سلفه والتي تجعلهم يندفعون في ذلك السبيل لادنـى مناسبـة ·

ولو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، رأوا ان يسلكوا يـومئذ

سياسة اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المتكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضي القريب لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا ٠

لكنهم رأوا عن قصر نظر ، وسيرا من اهواء النفس واندفاعا مع نعـــرة عنصرية ممقوتة زادها الانتصار بطرا ، ان يمعنوا في سياسة العنف والشدة وان يرهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق ، قتلا لروح التمرد فيهم وقضاء على ما في نفوسهم من طموح ٠

وما رأينا في التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غيـر الثورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار ٠

فان كانت بالرمة وضاحيتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمـد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحية تابى الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للطغاة الجبأرين ، فانتفضت ناحية جزجنتي انتقاضا جعل سالم بن راشد يعجز عن اخماده ، فارسل الى المهدية يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدي ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار ، واسقاط كل راس تحاول الارتفاع فاقتنع الخليفة الفاطمي وارسل على صقلية جندا جديدا ، سنة ٣٢٥ (١)

خليــل ابن اسحــاق

ولم يكن الجند الذى ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متقمصة شخص الوالى الجديد الجبار العنيد خليل بن اسحاق الطاغية ، او حجاج المغرب وصقلية ، انمـــا

---

(١) في سنة ٣٢٣ ، تـولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طفج الفرغاني التـركي الملقب بالاخشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها عبدهم الاسود كافور الاخشيدي ؛ الذي خلد اسمه ابـو الطيب المتنبي ؛ بما قاله فيه من مدائح رفعته الى السماك الاعزل ، ومن مهاجي نزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدويلة التي ملها الناس على يـد جوهر الصقلي قائد الفاطميين الذي احتل مصر ، واختط مدينة القاهرة التي اصبحت عاصمة الدولة الفاطمية ، وانشا الجامع الازهر (٣٦٠ هـ ٩٧٠ م) ٠

ليس له من الحجاج بن يوسف الاجرأته على سفك الدماء والبطش على السواء بالمجرمين والابرياء وليس له عمله وذكاؤه وفصاحته ٠

ان كان سالم بن راشد شديدا فى سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك الشدة الى درجة الفظاعة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الادماء الذين يعتقدفيهم النزوع للفتنة او يرى فى القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ، فما كادت تستقر اقدام النقمة التى تسمى خليل بن اسحاق في ارض صقلية ، حتى ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التى كان بنفسه سببا لها ، فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالى الجديد فى اعماله وانتحى جانبا معلنا بنفسه الثورة التى كان استمد الخليفة لاطفاء نيراتها ، وكان يريد ان يرسل له الخليفة جندا ، لا ان يرسل مع الجند واليا جديدا .

ابتدأ خليل ابن اسحاق امره باختطاط قرية فى ضواحى بالرمة ، حصنها وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكنا له ولخاصته ووجوه جنده تحميهم عند الحاجة من ثورة السكان ، واخذ لعنه الله وسود اسمه فى التاريخ الى الابد يمعن فى الظلم ، ويبلغ فى الجور والافحاش درجة لم يسمع مثلها من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه الفظاعة ازهاق النفوس ولا موت الناس جوعا فحسب ، بل انها جعلت بعض الناس ، وقد رأوا مدى الكارثةالتى اصيبوا بها فى اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ، ويعتنقون هنالك الديانة المسيحية ولو بصفة صورية ٠

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام فى صقلية يقتل وينهب ، وينتهك الحرمات ويجوع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتى التى استعصت عليه ، اذ علم اهلها مالهم ان هم استسلموا ، ودام الحصار اربعة اعوام كاملة الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلا لا يوصف ، ثم اراد العودة الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته للعينة فحمل معه جماعة كثيرة من وجوه الجزيرة وكبرائها وعلمائها ، زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر فى عرض البحر فثقبت المراكب التى كانت تحملهم ، وهنالك بين امواج البحر

المتوسط الذى جاهدوا وجاهد اجدادهم فيسبيل سيادته ، قضوا نحبهم شهداء الجور والفظاعة والنقمة العنصرية

ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة فى المهدية ، فكان يفاخر الناس بشروره وآثامه وفظائعه ، ومما قاله تقربا الى الخليفة كانه فعل ذلك في سبيل دعوته وتوطيد سلطانه : « انني قتلت فى امارتى الف ألف نسمة » . فأجابه أحد علماء الدولة الشيعية ، أبو عبد الله المؤدب « لك يا ابا العباس فى قتل نفس واحدة ما يكفيك ! »

الروم والنرمان – فى هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لميسبقلها مثيل ، وسيوف بعضهم تحز فى رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والأمل ، فكان الروم يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة ، وارجاعها لسلطان القسطنطينية ، وكان المدد من ناحيتهم يترى للنصارى الذين بقيت لهم فى صقلية بقية ، وكان رجال النرمان من جهة اخرى ، يفدون زرافات فى مراكبهم الخفيفة فينقضون على المسلمين فى جهة بعد جهة ، يغنمون منهم السبايا والاسلاب ، ويعودون لبلادهم .

وأخيرا ما كادت تنتهى أيام خليل بن اسحاق الرهيبة ، حتى تركت فى صقلية جرثومة الداء الذى سيقضى عليها بعد حين : ذلك أن جماعة قوية من النرمان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها مركزا منيعا لما يقومون به من قرصنة فى البحر ، ومن غزوات وانتهاب فى البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كان النرمان فى اول عهدهم بالغزو فى صقلية كما قال عنهمالعلامة غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة ونشاط دونهما همتهم ونشاطهم في الدفاع عن الدين (المسيحى) .

عطـاف الازدى

ارسل به المنصور واليا على صقلية ، لكي يستمر على سياسة اسلافه الذين سبقوه بشر في تلك الولاية منذ تمهد الامر لدولة الفاطميين واستولى رجال كتامة بغلظتهم العنصرية على زمام الملك .

كانت صقلية يومئذ تسبح في بحر من الدماء ، فان كان رجال الفاطميين رأوا ان لاسياسة لهم هنالك الا سفك الدماء والامعان في الظلم والزجـــر والارهاب اقتلاعا لجذور الثورة وخنقا لكل فتنة مقبلة في مهدها ، فـــان البقية الباقية من رجال صقلية الاولين رأوا ان الشدة لا تقابل الا بالشدة وان الشر لا يمنع الا بالشر ، وان الدم لا يغسل الا بالدم ، فكانت ثوراتهم تتوالى بعد سكون قليل اثر عمليات الارهاب السالفة ، وكان الروم كما رأينا قد استضعفوا المسلمين في هذه الايام السوداء وتكالبوا عليهم وامتنعوا عـن دفع مال الجزية الذي تجمع بذمتهم واخذوا يستعـدون للملحمة الكبـرى ، والنرمان من جهتهم كانوا يحصنون مركزهم الذي استولوا عليه بسبب الثورة والقلاقل بين المسلمين ، ويستعدون كذلك للملحمة الكبرى واستخلاص صقلية لحسابهم الخاص ، بينما كان الروم يريدون استرجاعها تحت سلطاتهـم .

لم تكن ايام عطاف الازدى طويلة بصقلية ، ولم يستطع ان يعمرها عـــلى قصرها بعمل يذكر ، وكان اهل بالرمة قد ارادوا التخلص نهائيا من هـــذه المظالم والشرور والآثام ، فتالفوا وتحالفوا حول عصبة بني الطبري وثاروا بعطاف يوم عيد الفطر سنة ٣٣٥ ، فالتجأ الى قلعة الخالصة وامتنع فيها ، ثم سار وفد منهم الى المهدية يفارض المنصور في شأن صقلية واقرار الحكـــم فيها على اسس متينة من العـدل الاسلامي والتساوي بين الجميع ، وحـرية
فيها على اسس متينة من العدل الاسلامي والتساوي بين الجميع ، وحريـة
المعتقد والمعاملات ، واوصى الوفد رجال بالرمة ان لا يقبلوا اى عامل يفـــد عليهم من المهدية الا بعد انتهاء المذاكرات وورود رسائل منه تشعرهم بذلك .

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ، وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة المهدية او تلك السياسة التى سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ، وان قطرا اسلاميا هو طليعة المسلمين نحو الارض الاروبية بوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى ، بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ، فاقتبل وفد صقلية ، واستجاب لما عرضه عليه ، وعندما بلغه نبأ ثورة بالروم على عطاف الازدي ، بادر بتعيين فاضل من فضلاء الأمة ووجيها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن على بن ابى الحسين الكلى واليا على صقلية وممثلا الدولة فيها ، على ان يسلك هنالك سياسة جمع الشمل ، واتفاق الكلمة ، والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب لصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتتقد فى افئدتهم نارا ٠

وصل الحسن صقلية مفتتحا بها عصرا جديدا كان عصر ازدهار وجهاد ونمو ، سنة ٣٣٦ (٩٤٧) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ، الذى دامت مدته نحوا من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ، وكانت هذه الفترة التعسة فى تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها ، وتغلب النصارى فيما بعد عليها ، وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم فى تلك الثورات المتوالية ، ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم واردت اكثرهم قوة واشدهم نفوذا ، ولان الخلاف اللعين بين المسلمين : بين سنة وشيعة ، وبين عرب وبربر ، قد توطن فى النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ، ولان المسلمين خلال تلك السنين النحسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد ، فتمكن هؤلاء ٠ تمكنا جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ، فان باء الروم بالانحدار فقد نال النرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار ٠

القسم السادس

الحكم الاسلامي ايام الدولة الفاطمية

عصر الاستقلال الذاتي السعيد

الحسين بن علي بن ابى الحسين

جاء الحسن واليا من قبل المنصور ، يختال بين بردتى فضل وشمم ، وكان معه اسطول يحمل جندا ومتاعا ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٣٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءته جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقي واعلموه انهم لم يحسروا على لقائه نهارا خوفا من رجال الطبري ورجال الثورة المتقدة ضد عطاف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، واوصوه بالحذر الشديد ، ايغارا لصدره ، وحثا له على الاستمرار في سياسة البطش والارهاب .

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين . وقد جاء صقلية يحمل فكرة صالحة ويعتزم سلوك سياسة رشيدة ، ضاربا صفحا عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار فى جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقاولة الحسن وراوا التريث والتمهل الى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل اساس الملك — رآى ال الطبرى يومئذ الالتجاء الى مكيدة تمكنهم من سبر غور الوالى وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتقاض عليه واثارة العامة والدهماء ضده فاتفق السيد اسماعيل آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره احد عبيد الحسن ومهد له سبيل الاختلاء بجويرية من جواريه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستغاثة ترتفع من كل اطراف قصر آل الطبرى ،

واسماعيل يزمجريان عبدا للوالى انتهك حرمة منزله ، واعتدى على حرمه ، فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن علي ، وكان اسماعيل يعتقد ان الامير لا يتنازل لسماع شكاته ، او الاقتصاص من عبده ، وبذلك يتمكن من اثارة العامة ضده ، لكن الامير الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مراى ومسمع من الناس ، واعترف العبد بما اتهموه به فاصدر الامير امره باعدامه ردعا لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات ، فاكبر الناس منه ذلك الانصاف ، ومالت قلوبهم اليه ، وانقلبت مكيدة ابن الطبرى ضد مدبرها ٠

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبرى بافريقيا واصدر امره للحسن بان يقبض على بقاياهم فى صقلية ، ويرسل بهم اليه ، ففعل بعد ان استدعاهم لوليمة يستانه نازعا سلاحهم ، مفرقا عنهم انصارهم ، وارسل بهم الى افريقيا حيث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائيا من مركز الفتنة ٠

العودة للجهاد وفتح طبرمين ـ اطمأنت النفوس للحسن ، والتفت القلوب حوله اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الكريم وراوا فيه طىْ صفحة الماضى المؤلم ، ماضى ولاة الجور والتنكيل والانتقام ، وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلية ومستقبلها بماضيها الجليل ٠

رأى الروم ذلك ، وايقنوا ان المسلمين اذاما جمعوا امرهم ، ووحدوا كلمتهم فلا نتيجة لذلك الا عودتهم الظافرة لميدان الجهاد ، فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام ، وقد تقاعسوا عن دفعها عندما رأوا ما حل بالمسلمين من خلاف وشقاق وفتنة دهماء ٠

في سنة ٣٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التى كانت تحمل امال الروم القسطنطينيين فى شرق الجزيرة ، وكانت ممتنعة على المسلمين بما امدها به الروم ، وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه فى الحكم واعده ليخلفه من بعده ، ودام حصار طبرمين سبعة

اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ، واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمي .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون في حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والعرادات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان اقتحمها عنوة وافتتحها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢ (٩٦٣)

مسجد ريو ـ كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون ويستقرون فيها لامور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها اثناء اسفارهم فارسل الامير الحسن بن علي بنائيه ورجال الفن واختط في تلك الجزيرة مسجدا فخما في احد اركانه مأذنة عالية ، وتعاقد مع النصارى على احترام الحرية الدينية ، وتعهدوا له انهم لن يمنعوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الامير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويحول بين المسيحيين وكنائسهم في صقلية وافريقيا ، واشترط عليهم ان المسجد حرم يحمى من التجأ اليه مثل سائر معاهد الدين في ذلك العصر ، واحترم النصارى العهد .

محاولات الروم في جنوب ايطاليا ـ في هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بتلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر النرماني الناشيء ، كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التي اصابته ، ويستعد لا سترجاع مكانته الحربية وسمعته السياسية وقيمته الدينية المسيحية ، فجهز الامبراطور اسطولا عتيدا حمله جندا غفيرا وسلاحا وفيرا وارسل به نحو الجنوب الطلياني يحاول استخلاصه من ايدى المسلمين

علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهدية يستنجدها ، فجاءه الاسطول الفاطمي يحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد

الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان بـــرا وبحرا ، واندحر الروم فرجعوا على اعقابهم خاسئين • وشيد الحسن بن علي مسجدا بمدينة رجيو (Réggio) في قلورية توطيدا لحكم المسلميـــــن وتثبيتا له ، واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترنتة على دفع الجزية •

بعد سبعة اعوام من ذلك ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين فــــي الجنوب الطلياني ، وجاء بطريقهم ارجريوس على رأس عمارة بحرية قويـــة فنصب الحصار على مدينة نابولي ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلـة ، وحليفة وفية لمسلمي صقلية ، وكان الـروم حاولـوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلـــك •

سار المسلمون تحت قيادة الامير عمار بن علي اخي الامير الحسن وقـــد كان يتولى امر المسلمين في اوربا ، فجمعوا جهودهم الى جهود اهل نابـولي ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا المهاجمين على اعقابهم مرة اخرى •

لكن الروم نزلو الارض في بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاروبية ، فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة رجيو وهدموا مسجد الحسن بها ايذانا بزوال سلطة المسلمين ، وغلوا في التعصب المسيحي

جمع الامير الحسن قوته ، سار الى قلورية يضم جهوده لجهود اخيه عمار، فالتقى المسلمون بالروم في وقائع عديدة ، واعادوا احتلال رجيو ، ثم التقوا باسطول الروم امام مرسى او ترنتة فحطموه ودحروا بقاياه ، واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر في معركة المجاز ـ كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعد ان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ، ويعلمان ان نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائيا وانقطاع امل الروم بصفة باتة هنالك ، او تقلص ظل المسلمين وانهيار سلطانهم نهائيا في البلاد الاروبية وجزيرة صقلية •

ولم يضيع الروم وقتهم سدى • فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل قوة ومنعة وعددا ، وشحنه باربعين الفا من اشداء المقاتلين ، تحـــت

امرة ابن اخيه ما نويل وامير البحر نيستاس ، ونزل الروم ارض صقلية فى ناحية المضيق الذى يفصل بينها وبين ايطاليا ويسميه العرب المجاز ، وكان الجند الرومى مؤلفا من جماعات الاغريق والمجوس والارمن والروس ، فى قوة لم تطأ ارض الجزيرة مثلها من قبل ٠

وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحت امرة القائد الحسن بن عمار ، فسار على راس المجاهدين المسلمين يقف فى طريق الجند الرومي ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة ٠

استعد الحسن للمعركة فوضع جندا فى مضيق بنقش ، وجندا آخر فى مضيق دمنش ، وهما طريقان جبليان وعران ، وعلم قائد الروم ما نويل بذلك فارسل فرقتين من الجند قويتين لتقتحم كل واحدة منهما مضيقا وتنتزع من ايدى المسلمين طريق ورود النجدة والمدد ٠

التقى الجمعان ، وزحف المسيحيون فى ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل ناحية نظرا لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين ، فجاهد المسلمون جهاد المستميت وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم ، وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا واستولوا على معسكر المسلمين ٠

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهى قوة الروح، قوة الايمان ، قوة العزيمة ، تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

رأى المسلمون أنفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم ، وعلموا أنهم إذا ما خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت . ومسلموها اصبحوا عبيدا ، ومساجدها صارت محطمة ، وعمرانها امسى خرابا ، ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة ، فتشجعوا بعد وهن ، وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ، وجمع الحسن ابن عمار رحمه الله جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بنى آدم قد اسلمونى ، فلا تسلمنى ! وحمل معهم الابطال على جماعة الروم ، وتبعه رجال المسلمين من كل صوب ، وراى ما نويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من هذه الصدمة التى لم تكن منتظرة ، فصاح بهم :

اين افتخاركم بين يدى الامبراطور ! واين ما ضمنتم له فى هذه الشرذمة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ، وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين ، اخيرا ، واقتحم احد مجاهدى المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا

واذ كان النصارى يقاسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسرا، ثارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد الرعب والفزع بالروم واصبحوا لا يفكرن الا فى النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فمالوا فى انهزامهم الى جهة ظنوها سهلة وطيئة توصلهم الى ساحل البحر فاذا هى جهة وعرة صعبة المسالك ، ادت بهم الى جرف عظيم ، فسقط الكثير منهم فيه ، وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون ينهالون عليهم ضربا بالسهام والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة آلاف قتيل على اديم الارض ، وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الاسطول فنجت بنفسها فيه ، وباء المسلمون بنصر عظيم فى معركة من اروع واشد واغرب معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ اكتوبر ٩٦٥) وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن على للقاء ابنه مهنئا المسلمين بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره فى ذلك اليوم العظيم ، فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة فى جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين ، اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من جلائل الاعمال فى الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم ، وجمعوا كلمتهم ، ووجهوا هممهم للقيام بالرسالة الكبرى التى اختارهم الله لا دائها فى تلك العصور الوحشية ، لاخراج الناس من الظلمات الى النور ٠

احمد بن الحسن بن على

اجمع الناس امرهم على توليته بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشاركا له

فى الحكم والتدبير والحروب طيلة حياته ·

الاجهاز على الروم ــ لم يضع الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون من جديد فلولهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله ، وفاجأهم فى المعاقل التى التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم ، ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق فى رجيو اسطول الامبراطور واسر امير البحر ينساتاس، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم الماسورين الى بلاط الخليفة فى المهدية ؛ ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التى وجه بها الى المهدية سيف هندى بديع الصنع
ان من جملة الغنائم التى وجه بها الى المهوية سيف هندى بديع الصنع
منقوش عليه : « سيف هندى ، وزنه ماية وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدى رسول الله »

الصلح : اذعن الروم للامر المقضى ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمى صقلية منالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا فى امور الجزيرة ، وارسلوا وفدا من القسطنطينية حل بمدينة المهدية وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهارا عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ولرجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاقد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحة صقلية ، ومقابل ذلك يخلى المسلمون طبرمين ورمطة لكى يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة ·

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوراه ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكيمة المسلمين ، ولان تلك البقاع اصبحت فيما بعد ، كما سيمربك ، مركزا جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيك الديار ، على يد النرمان · والحال ان نصارى الجزيرة كانوا على احسن حال مع المسلمين ·

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ، باخلاء مدينتى رمطة وطبرمين تنفيذا للمعاهدة ، فاغتم المسلمون من ذلك وتألموا ألما عظيما واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمد قبل ذلك لتخفف وقع تلك الغلطة فارسل اخاه

ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فاخرجوا من المدينتين كل السكان واعملوا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجرا على حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين ، تنفيذاللمعاهدة الا ركاما من خراب ورماد ،

ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلكالنصر

ختان اطفال الجزيرة : ساد الجزيرة عهد فرح وسروروا من اثر ذلكالنصر العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانشبآتهم يصلحون ما افسدته ايدى الفتن السالفة ، وما اوقفهم سير الحروب والملاحم عن انجازه ٠

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة المجاز ، مما يدل على مبلغ ما تمتعت بهالجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن على المباركة الطويلة وابنه وشريكه فى الحكم احمد بن الحسن ، ورد الامر من الخليفة المعزفى المهدية بالاحتفال فى جميع جهات الجزيرة بختان جميع اولادالمسلمين الذين هم فى سن الختان ، وذلك فى نفس اليوم الذى يحتفل فيه المعز فى المهدية بتطهير اولاده ٠

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذا لرغبة الخليفةفكانوا خمسة عشر الفا ، وابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته فى مستهل شهر المولد النبوى من سنة ٣٥١ ، ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ، ووزعتالصلاة على جموع المختنين هدية من الخليفة الذى ارسل لصقلية بتلك المناسبة ، لتوزع على الاطفال ، مائة الف درهم وخمسين حملا من الهدايا ٠

ابــو القــاسم عــلى

فى سنة ٣٥٨ (٩٦٨ م) استقدم الخليفة المعز للمهدية امير صقلية احمد بن الحسن واولاه قيادة اساطيل الدولة لما أظهره من معرفة بفنون قتالها ومهارة فى قيادتها ، فارتحل الامير احمد من صقلية آخذ معه عائلته وامواله ومتاعه ، وترك الامر فيها لاخيه ابى القاسم على بن الحسن ٠

وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بنى الحسن ، عادلا

رحيما ، شديدا فى الحق ، مواسيا للفقراء والبائسين ، قال ابن خلدون : وكان عادلا حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف دينارا ولا درهما ولاعقارا فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة ٠

تدخل النرمان : فى هاتيك الاثناء ، والمسلمون فى صقلية يجمعون شتاتهم ويرأبون صدعهم ، وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم مرات عديدة خلال عشرات السنين ، كان رجال النرمان قد وطدوا عزمهم على الاستقرار بهاتيك النواحى ، ووجدوا فيها المرتع الخصيب ، وعلموا انهم لا محالة متمكنون منها ، بعد جهود ومضى وقت ٠ ابتدأ النرمان اعمالهم بنواحى ايطاليا فاحتلوا مدن ابر ندبزى وطارنطة التى كانت مركزا لا مارة اسلامية مستقلة ٠ ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزا لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان النرمان يحاربون المسلمين وحدهم بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هنالك ملكا على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا مدينة رومة نفسها ، فى حديث ذى شجون ٠

رسالة البابا للامبراطور : ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها حقيقة الامة النرمانية الى امبراطور القسطنطينية ، يستنجده ضد هؤلاء الاقوام الوحوش ، ومما يقوله فى رسالته تلك :

« لقد انفطر قلبى اسى مما قصه على مندوبو ولدى ارجيروس ، فيما يتعلق بفوضى الامة النرمانية ، وخبثها ، وسقوطها ، وازدرائها بالدين زراية بزت زراية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من جبروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكالبين لا يحترمون شيئا ، ويذبحون المسيحيين بعد اذا قتهم انواعا من العذاب الاليم ، ثم انهم ليست لهم اى عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ، ولا بين رجل وامرأة وانهم لينتهبون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران ٠

ولطالما لمت عليهم وشنعت باعمالهم وانـذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونقمته لكن صدق الحكيم الذى قال : ان من تخلى عنه الله بقى سرمدا فى الشقاء ، ولن يرجع الكلام العقل الى المجانين » الخ ٠

لم يتلق البابا جوابا من الامبراطور الذي ترك نهائيا امر صقلية وايطاليا ، فاستنجد بالالمانيين ، الا ان اسقفهم اشار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون الى المسيح ، فما وسع البابا الا جمع جند باسمه وتحت رايته وحارب النرمانيين فانخذلت جموعه ، وانكسر ووقع بنفسه اسيرا بين ايديهم ، فتذلل لهـم واستغفر ، ورفع عنهم حكمه الذى اصدره بكفرهم ، وباركهم فى جهادهم ، لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيرا عندهم عاما كاملا الى ان افتدى نفسه منهم بدفع جعل ذريع ٠

قال قوسطاف لوبوز فى تاريخه الشهير « مدنيات العرب » عن هذه الفترة من فظائع النرمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل ما نصه :

« واستمر النرمان على اعمالهم : اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا كل رهبانها ليامنوا عاقبة شكواهم ٠ وكان الرهبان يقابلون اعمال النرمان بمثلها اذا ما تمكنوا منهم ، واليك وثيقة عثر عليها مسيو ابريمودرى ، فى خزائن ديرجبل كاسان وهى تعطيك صورة صادقة لعادات ذلك الزمن :

« ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال النرمـان لكنيسة جبل كاسين ، فتركوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العـادة المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة ٠ لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا جاثين على الركب امام مذبح القديس بونوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها ، واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفزع والاستغاثة فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة ، وهاجموا النرمانيين الذين لم تكن لهم بين ايديهم الا المسابح ، ثم انهم حاولوا عبثا تذكير المهاجمين بحرمـة الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثا اقناعهم بالمحرجات من الايمان انهم ما جاءوا الاقصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانـوا قد وجدوا الفرصة المناسبة فاغتنموها وقتلوا الخمسة عشر رجلا عن اخرهم ،

ولم ينج الا الكونت ردولف وحده ، اذ قد حماه راهب الدير ، وما اطلق سراحه الا بعد ان ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التى كان قد انتهبها هو ورجاله من قبل »

نتيجة التدخل النرماني : من نكد الدنيا على مسلمي صقلية ، انهم ما كادوا يجمعون امرهم حول استقلال داخلي واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن علي ، يتوارثون الامارة ويصونون مركزها ولو الى حين من مطامع الطامعين وعبث العابثين ، وما كاد ينتهي تهديد الروم وتخفق نهائيا حملاتهم القويةالعنيفة المتوالية ، منذقرن ونصف القرن،ماكاديتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاءحتى كان المسلمون يواجهون خطرا اكبر منهاتيك الاخطار السالفة ، ويقابلون عدوا اشد عنفا واقوى ساعدا وافظع اعمالا من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر النرماني الذى ما زال بتلك الجزيرة حتى انهك قواها واسقطها مجندلة تحت مخالبه المفترسة .

فكانت كل ايام الدولة الحسنية بصقلية ، قد انقضت الى جانب اعمال باهرة في ميدان العمران بالداخل في حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال النرمان المغيرين . وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعامعفىالصفحات التالية نرى ان نسجل حكما اصدره على هذه الفترة المؤلمة وعلى اعمال النرمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوسطاف لوبون حيث قال :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحي ، يتفانون في اعمال السلب والنهب سعيا وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم في الدفاع عن الدين . وكانوا ينتهبون ارزاق اليونانيين والطليانيين والمسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية وبلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاما اى مدة الفتح ، تعتبر في نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحي ، بلادا وهبها الله لهم كي يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

« وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الاخراب الجزيرة بصفة سريعة ، حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان النرمان

لهم كانت اثقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين »

الفاطميون بمصر : لم تكن الدولة الفاطمية التى درجت بين احضان كتامة بارض المغرب لتكتفى بما نالته من عزة وسلطان فى بلاد الشمال الافريقى ، حتى حدود برقة ، بل كانت ترمى بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق ، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية ، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التى صيرت الشرق الاسلامى رقعة شطرنج بائسة ، دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتغلب الموالى والدخلاء على دولتهم .

كيف كانت حالة العالم الاسلامى والعربى يومئذ ، والحرب الصليبية الاولى تتقد فى صقلية وايطاليا نيرانها ، والحرب الصليبية الثانية التى يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختمر فى افكار رجال التعصب المسيحى ؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بنى بويه التركمانيين الذين لم يتركوا للخلافة الضعيفة الواهية الا الاسم وجلال اللقب ، وكانت مصر واكثر بلاد الشام فى يد بنى الاخشيد ، والموصل وديار بكر ، فى يد بنى حمدان ، وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر فى يد بنى سامان ، وطبرستان وجرجان فى يد ملوك الترك الديلم ، والبحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب فى يد القرامطة . أما المغرب الاوروبى الاسلامى ، فقد كان زاهرا يانعا فى الاندلس تحت سلطان الامويين، يواجه الحملات المسيحية فى ذلك العهد بجهوده الخاصة (I) رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت، فارسل

رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل

قائده جوهر الصقلى أو الصقلبي على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه فى فتحها ونصب سلطانه عليها ، تخلصا من مظالم بنى الاخشيد ، والاضطرابات المتوالية ، فحط جوهر اثقاله تجاه مدينة

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمان الناصرى ، وبلغت الحضارة فى عصره شأوا بعيدا ، وقد كان مغرما بجمع الكتب فارسل النساخين لكل بلاد كى ينقلوا له كل المؤلفات الحديثة فتوفر له عدد فى مكتبته مثله لم يتوفر لمالك من قبل وجعلها مكتبة عامة فى قصر مروان ، ولها خدمة وقيمون . وام قرطبة جمع غفير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع ، وبلغت عندئذ مدنية الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها .

الفسطاط ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولاعناء ، وذلك في رمضان سنة ٣٥٨ (٩٦٩م) ، فخطب في مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ، ودانت له كل الناس ، ثم ارسل القائد البربري جعفر ابن فلاح الكتامي ، فاجتاز الى ارض الشام ، ومعه جند كبير فافتتحها ، وخطب فيها للمعز ، واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسي الى ضفاف الفرات، دون مشقة أو عناء . لقد كان هنالك نوع من الفراغ يجب أن يعمر ، فعمره الفاطميون .

ثم اختط جوهر الصقلي مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسسها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، واتمه ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته ، والقناطير المقنطرة من امواله ، فدخل مدينة القاهرة في رمضان سنة ٣٦١ ، واتخذها مقرا لخلافة الفاطميين العبيديين ، حيث مكثت هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ (١١٧١) ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبي الكردي .

كان انتقال مركز الدولة من المهدية الى القاهرة ، حدثا من اكبر الاحداث في تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدودين هو الامير يوسف بولقين بن زيري ابن مناد ، رأس قبائل صنهاجة البربرية العظيمة ، ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسميا لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناظرة لآفاق اخرى ، انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بني الحسن ابن علي ، وكان ذلك من جملة اسباب تدهورالحكم الاسلامي فيصقلية ، بعد حين . اذ كانت دولة صنهاجة لا تعنى الا بتوطيد ملكها وتوسيع عمرانها وتدعيم مدنيتها التي بلغت اوج منعتها وعلاها ايام المعز ابن باديس . وكانت دولة الفاطميين في القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ، وبذلك خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاءوا مسلمي الجزيرة ، حتى اذا ارادت دولة صنهاجة

امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراقع ، وتدهورت الدولتان معا ، دولة صقلية على يد النرمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بنى هـــلال وسليم •

ولنرجع الآن ـبعد هذين التمهيدين ـ لدولة ابى القاسم على ، المعروف بالشهيد ، ولنسجل فى هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح : فى سنة ٣٦٥ (٩٧٩) سار الامير ومعه جماعة مـــن العلماء وكبار القوم على رأس قوة عتيدة لمنازلة مدينة مسينا التى كان العدو قد اتخذها مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينـة الى ان ضاق اهلها ذرعا فخرجوا يسألونه الامان ، ويعلنون الطاعة ، فاجابهم للصلح رحمة بهم وتقاضى منهم مال الجزية •

ثم سار يوالى فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلوزيـــة فافتتح مدينة اغاثة Santa Agata وغنم جميع ما اعده المسيحيون فيها •

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رمطة ، وقد كان حطمها الامير احمد بن الحسين ، كيلا تكون مركزا للمسيحية ، وفى تلك السنة سار على راس المسلمين الى مدينة طارنطة فى جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها النرمان مركزا لاعمالهم وقرصنتهم فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهـم المسلمون بقـوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وفتحوها عنـوة المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وافتحوها عنوة واقتدارا ، واصدر الامير امره بدك جدرانها ، واعفاء مراسمها كيلا تكـــون داعيا لرجوع العدو مرة اخرى ومركزا لاعماله ضد المسلمين •

انتصار قلورية واستشهاد الامير : بينما كان زعيم النرمان برودويـــل يستعد لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ، نزل الامبراطور الالمانى اوطون الثانى يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما ويصمد لمقـارعة المسلمين . ولقـد خشى الـروم زوال سلطانهـم وانتهـاء نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية ، فهب الامير ابو القاسم للقاء جموع الالمان والنرمان واراد المباردة باحتلال كسنته مركـز المسيحيين

المنيع ، وكان هؤلاء قد استعدوا للقائه فى بلاد قلورية ، فدارت المعركة العنيفة الهائلة فى موقع غير ملائم للمسلمين بمضيق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحدقوا فيه بالمسلمين من كل ناحية ، فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فورا ليتلقى صدمة النصارى فى منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدير حركاته بكل حرية .

لكن النصارى لم يتركوا للمسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئى ينقلب انهزاما كليا واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوما حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثر عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامى حتى بلغت مكانا اتخذه الامير ابو القاسم مقرا لقيادته وقد كان راكبا جواده وحوله خاصة رجاله ، فاقتتل الجميع هنالك ، وضرب احد جنود الالمان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رحمه الله صريعا شهيدا على شاطىء البحر ، واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ، ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت ميمنة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسدوا الثلمة التى احدثها النصارى هنالك ، وقاموا فى الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم ، وتتبعهم المسلمون يثخنون فيهم قتلا ، واستولوا على جميع محلات المنهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج ، وجرح الامبراطور اوطون جرحا ادى الى موته فى دسامبر ٩٨٣ بعد ان التجأ منهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جدث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث ووري التراب ، رحمه الله رحمة واسعة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨١) .

جابر بن ابى القاسم على

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ، اميرا مكانه ، عله يقتفى خطى

والده الموفقة ، لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ، وهل تلد النار الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتدبير الملك واشتغل بالملاذ حسب عبارة ابن خلدون ، واضطربت احواله ·

ولم يكن الخليفة الفاطمي في مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد، فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ، واعلنوا خلع جابر وترقبوا قدوم ابن عمه الوالي الجديد الذي عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم ، وكان من اصحاب الرأي والتدبير والمكانة السامية في بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله ، وقد كان الوزير ابن كاس يغار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبر باستشهاد الامير ابي القاسم على اشار ابن كاس على الخليفة بتولية جعفر بن محمد مكانه ، يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه ·

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية أخذا معه اليها القائد التركي سبستكين الذي كان حسب عبارة ابن الخطيب في اعمال الاعلام من جملة الترك الموصوفين بالشجاعة ·

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر عن طيب خاطر بعد ان حكم حكما جائرا مدة سنة ، واستبشر الناس خيرا بولاية جعفر الذي سبقت شهرته طلعته ، ومهدت سمعته له الامر ، فحسنت الاحوال ، واستقامت الامور ، وانزوى رجال النرمان اثر هزيمتهم الشنعاء السالفة ، فاخذ جعفر يصلح ما فسد ، ويرمم ما تهدم ، ويعمر البلاد ، وقد جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب ، وكون في قصره ببالرمة بلاطا

---

(١) يقول بعض مؤرخي الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعلموا انه الامبراطور ثم اطلقوا سراحه مقابل مال جزيل افتدى به نفسه ؛ بينما يقول آخرون انه نجا من الاسر بفضل سفينة رومية امكنه الالتجاء اليها .

ملكيا فاخرا ، وكان رحمه الله من فرسان الميدان في الشعر والادب والعلوم.

من اجل جارية يخرب ملكا : كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة عليه محببة اليه ، وكان اخوها راهبا في البلاد الصقلية ذا مكانة وملك ، فبلغت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغا جعلته يقبل مطلبها ، ويذعن لمشيئتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخي جاريته ، قلاع : بنقش ، وطبرمين ورمطة ، وان يرجع اليه مع ذلك كل سبى عنده قديم وحديث من تلك البلاد . وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعدام على الجزيرة ، لانه سيمكن النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد مأية عام ، وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذا مره ، انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكا من اجل جارية ، فعمد الى حيلة الاريب وسياسة الداهية فانقذ صقلية من الخطر موقتا ، واحرز على رضى الخليفة في آن واحد واليك البيان :

انزل جعفر الراهب الملك في قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن يريد من الناس وابقاه كذلك نحوا من اربعة اشهر ، ثم تظاهر بانه يريد تنفيذ الامر المطاع فجمع للراهب ، بصفة سبى يجب ارجاعه ، جماعة من الشيوخ والعجائز والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل بهم حالا ، فضاق الراهب بذلك ذرعا ، وما وسعه إلا الفرار سرا من صقلية والذهاب إلى القسطنطينية ومن هنالك راسل الخليفة العزيز واعلمه بأن عامل صقلية لم ينفذ الأمر.

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالي دسائسه وان الآمرة الناهية في قلب العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدللة ، للوصول الى غايتها ، فبادر انجازا للحيلة ، باقتناء مركب اندلسي شحنه من ماله بالكثير من تحف الاندلس وطرائفها ، وكتب للخليفة يقول : ان ابن ابي عامر المعروف في التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب

اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه للانضواء تحت لوائها ، وانه يرسل لـــه من خيرات الاندلس ، ويقطعه من اعمالها ماشاء ، وانه هاداه بالمركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيبا له ، لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة وأصر عـــلى ولاء الفواطم بالقاهرة ·

انطلت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراسلة العامل الصقلى يشكره عـــلى امتناعه مما دعاه اليه زعما صاحب الاندلس ، ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد ابوه وحسين جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء ·

وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبـــة المحبوبة فذهبت جهود الاخت واخيها سدى · وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة والدهاء ·

استمر الامير جعفر يحكم صقلية حكما عادلا نزيها ، والامة مقبلة عـــلى اعمالها واعداء الخارج راكدون ، واعداء الداخل نائمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ ·

عبد الله بن محمد بن الحسن بن على

بايع الناس بالامارة بعد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديـــد آمال الامة فيه ، وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحا امينا ، مقيما للعدل ، رحيما بالرعية ، ولم تطل ايامه فى الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنة ٣٧٧ ·

ابـــو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمـــد

ولى الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاما ، انما توهم الناس فيـــه خيرا فوجدوا فيه خيرا ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد انسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم » ·

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقةالدولة وكانت ايام الناس فى مدته ، كما يقول ابن الخطيب فى اعمال الاعلام ، على افضل

ما يشتهون ، وقد ضبط البلد ضبطا محكما ، وظهر من كرمه وجـــوده وسماحته ، مالا يفى به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان كـل جهات الجزيرة ، لم يتحرك فى وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خـارجهـا .

قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التنوخى المعروف بابـن قاضى ميلة يمدحه من قصيد طويل ، هو من غرر الشعر :

اغر ، قضاعى يكـاد نوالــه — لكثرة ما يدعوالى الشكر يجحف
اذا نحن اخلفنا مخائـل ديمة — وجدنا حيا معروفه ليس يخلف
ويقظان شاب البطش باللين فالتقى — بكفيه ما يرجى ومـا يتخـوف
حسام على من ناصب الدين مصلت — وستر على من راقب الله مغدق
يسايره جيشان : رأى وفليق — ويصحبه سيفان : عزم ومرهف
مطل على من شاءه فكانمـــا — على حكمه صرف الردى يتصرف
يرى رأيه ما لا ترى عين غيره — ويفرى به ما ليس يفرى المثقف
رعى الله من ترعى حمى الدين عينه — ويحمى ربى الاسلام والليل اغضف
ومن وعده فى مسرح الحمد مطلق — وايعاده فى ذمة الحكم موقـف
ومن يضرب الاعداء هبر افتنثنى — صناديدهم والبيض بالهام تقذف
رماهم بمجر ضعضع الارض رزه — كأن الروابى منه بالنيل تدلـف
كأن الردينيات فى رونق الضحى — اراقم فى طام من الآل ترجـف
يعود الدجى من ليله وهو ابيض — ويبدو الضحى من نقعه وهو اكلف
ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم — ففعل الظبا فى هامهم لا يكيـف
لهم كل عام منك جاوز فليـــق — يسائل عنهـم بالعوالى فتلحف
اذا ما طووا كشحا على قرح عامهم — وبلوا من الآلام انشات تقـرف
فكم من اغم الوجه عار تركتـــه — وهاديه عتنـن ولحيـه اكثـف
لعمرى لقد عاديت فى الله طالبا — رضاه وقد ابليت ما الله يعرف
فطالبتهم فى الاهل حتى تركتهم — فرادى وفى الاديان حتى تجقفوا
فيا ثقة الملك الذى الملك سهمـه — يراش لاكباد الاعادى ويرصف
... وقائلة بالسعد نجلك جعفر — فيا لك من عيد بملكين يتحف
فمازلت تستجدى فتولى وترتجى — فتكفى وتستدعى لخطب فتكشف

اثناء ولايته ، مات فى بلبيس بمصر سنة ٣٨٦ ، الخليفة العزيز بالله ، وتولى الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بامر الله ،

فاستوزر الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم ·

صفحة سوداء في تاريخ الفاطميين : ارى ان اذكر هنا استطرادا ، وقد جرنا الحديث لذكر الطاغية الحاكم بامر الله ، شيئا من سيرة هذا الجبار العنيد لترى إلى أي حد انحطت اخلاق المسلمين في الشرق وماتت قوتهم المعنوية وبلغت بهم المذلة والمهانة ، حتى صبروا لحكم كافر جبار ، فاسق فاجر ، فكأنهم هم الذين خاطبهم معروف الرصافي رحمه الله بقوله :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها على رؤوس من فيها ، ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ،فاطاع الناس من نذالتهم امره حتى في الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة القيامة في القدس الشريف سنة ٣٩٧ (١٠٠٦) فاحدث بذلك رجة هائلة في العالم المسيحي كله ، مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك نارا كانت تتقد من قبل استعداد للحروب الصليبية الاستعمارية ، وادعى ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه يعلم الغيب مع الله ، فوضع له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
ان كنت اوتيت علم غيب بين لنا كاتب البطاقة

وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امرأة واحدة فيها مالا يعمله سائر الرجال مجتمعين ، ويقال انه اراد منها منكرا فدست له في جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة الى نقمة الله وعذابه السرمدي ·

فليقا بل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناه مسلمو المشرق في نذالة وضعة واستكانة في ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن ورفاهية واطمئنان ·

وان اردت ان تعرف مدى ما لصق بالدين فى هذا العهد المظلم من خرافات واباطيل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعا من الوثنية او شرا من الوثنيـة ، فاسمع لابن ابى دينار يقول فى كتاب « المؤنس » :

« وكان بعض شيعته من المغاربة يزعم انه يعود ، فكانوا اذا راوا سحابة فى الجو سجدوا لها زعما منهم انه فى السحاب » .

تـاج الدولة جعفر بن يـوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى الله عليه بداء الفالج اصابه سنة ٣٨٨ (٩٩٨) فعطل جانبه الايسر ، واتفـق الناس معه على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسى الامارة وراسلوا بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على ذلك وارسل لجعفر سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »

ثورة على : فى ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية (٥٠ سنة) وابتدأ عهد التدلى والسقوط الذى انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم تحت سلطان النرمان .

رأى على بن يوسف انه حق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة ، وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه

جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الاخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخويـن وتمكن جعفر من اخيه الغادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر بنفى جند البربر (١) من صقلية فنفوا ، منها وامر بقتل سائر العبيد ، وجعل جنده من اهل صقلية المسلمين خاصة . فقل بذلك حسبما يرويه البكرى جنده وسبب له انهيار ملكه .

ثورة الامة : كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

---

(١) اى رجال كتامة الذين كانوا انصار الحكم الفاطمى وحماته . لكنهم لم يـرحلوا جميعا ، كما سترى فيما بعد .

حسن بن محمد الباغائى وكان فظا غليظ القلب ، وسلم له السلطة واطلق يده فى الاعمال ، فاستخف هذا الوزير الوصولى باعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن فى اهانتهم ، وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفته البلاد ، ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم ، وكانت عادتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقر شيئا معلوما قلت محصولاتهم او كثرت ، ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطته اوفق لانها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية . لكن الغلظة وسوء الطباع لاتثمران الا الفتن والقلاقل . ولقد خاطبه القوم فى الامر فاستغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ (١٠١٩) وحاصر الناس قصر الوالى واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالفالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الثائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظمى فى القلوب اشفقوا عليه ورثوا لحاله فخاطبهم فى شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تدبيره وتدبير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولى عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فاستجاب الى ما طلبوا ، واعلن عزل جعفر وتولية احمد ، ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيرا ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكروه ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه ، فجهز له مركبا حمله مع آله وامواله الى مصر ، وبعد قليل التحق به ومعه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ، ومات رحمه الله بمصر وليست له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر ، تدرك مدى الثروة الجسيمة التى بلغها اهل صقلية فى منتهى ذلك العصر الزاهر

خسارة جنوب ايطاليا : كان جعفر قد اخذ يوالى الفتح فى جنوب ايطاليا عند ولايته ، فاحتل كاليارى وبيزه سنة ٣٩٠ (١٠٠٠) ثم انه فى سنة ٣٩٢ (١) هاجم مراكز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » وافتك منهم مدينة بارى، عاصمة الامارة فخسروهانها ، وحلت بالمسلمين نكبة فى مدينة رجيو حيث

خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٧) مدينة كوسنزا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هنالك ثباتا ، وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وقللت من عدده ، فاضطر المسلمون لاخلاء قلورية مرغمين تحت ضغط القائد اورسيبت ، وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٣) ايام احمد الاكحل السوداء .

الهجرة الى صقلية : اثناء تلك الحوادث ، وفي سنة ٣٩٥ (١٠٠٥) ، وقعت بالبلاد الافريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وعدمت البهائم وضاقت الارض بما رحبت فيمم الناس شطر صقلية ، وسارت اليها المراكب يتلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادي ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويسروا لهم اسباب الارتزاق . واختلت بذلك لامحالة موازين الاقتصاد .

استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريب الفصل الثاني من كتاب «غارات الهمج» تأليف المؤرخ الكبير فردينان لوط وقد حوى خلاصة وافية عن تدخل المسلمين في البلاد الطليانية ، مما يضفي نورا جديدا على ما ذكرناه آنفا خلال تسلسل الحوادث قال :

كانت مدينة نابولي قد اضطرت تحت ضغط الدوق سيكار امير بينيفانت لان تدفع جزية له ، وما قبل اهل نابولي امضاء المعاهدة التي عرضت عليهم سنة

---

(١) في هذه السنة توفي ببلاد الاندلس بطلها العصامي الكبير محمد بن ابي عامر ، الملقب بالحاجب المنصور ؛ الذي نالت بلاد الاندلس في ايامه عزة وسلطانا قلما بلغتهما دولة ؛ ودامت ايامه في حكم مستبد عادل ٢٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

٨٣٦الامكرهين وجلين ، ولقد استغاثوا بامبراطور الفرنج لويس الناسك ، فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية ٠ عندئذ اتجه الامير اندرى دوق مدينة نابولى نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه ، واضطروا خصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٧٣٨ ، ثم اعاد المسلمون الكرة بحرا واحتلوا مدينة ابرنديزى وما انسحبوا منها الابعد ان تركوها طعمة للنيران ٠

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص ، فاحتلوا مدينة « طارنطة » رغم محاولة اهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة « انقونة » . ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تتسلح وتتجهز ، لكن اسطولها غلب وانهزم تجاه اسطول المسلمين سنة ٨٤٢ ٠

ولقد كان موت سيكار الآنف الذكر سنة ٨٣٩ مساعدا للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة ، اذ ان المملكة للومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاهلها ، وتالفت على انقاضها مملكتا بينيفانت وسالرنة ، وكانتا مرتعا للفتن التى يثيرها الطامعون فى الملك ٠

وما كان لهؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجده مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ، ومن هذا القبيل ان الامير رادلشيس البينيفانى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكو نولف السالرنى ، كذلك كان كونت مدينة (بارى) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين فى نصرة هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعواالمدينة بارى فتمكنوا من اكنافها واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا نيعايباشرونه منه اعمالهم وغاراتهم ، ولقد اضطر راد لشيس ان يفتح ابواب عاصمته بينيفانت فى وجه حلفائه الاشاوس ، وكان المسيطر الحقيقى على تلك الامارة هاتيك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصعر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ ٠

ارتأى يومئذ الامير سيكونولف‌ان يقاوم مسلمى صقلية بجموع من مسلمى اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة اقريطش عام ٨٢٦ ، وهكذا تمكن من افتكاك مقاطعة بيفنتان من بين يدى خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (بارى) ٠

في اليوم الخامس عشر من شهر جوان ٨٤٤ وقع تتويج الامير لويـــس ، ابن الامبراطور لوثير ملكا على ايطاليا ، وكبرت الآمال في رؤية هذه البـــلاد موحدة القوى بصفة كانت في اشد الحاجة اليها ، لكن الملك الشاب واجـه الفوضى العميقة العميقةالتي كانت قدضربت اطنابها في البلاد ، ثم ان المملكة قد ذاقت الامرين من جراءتها ونها بامر الاسطول الحربي .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان يومئذ بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن أي اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية في غاراتها وفي انزال الجند بصفة متوالية في مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامي وعمت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولي الامير سيرج لجمع قوى امرات نابولي وقايت واماملفي وسورنته ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ، لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتـــلال جزيرة ايتسياوراس سورنتهوالتمكن منهما .

في سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذي تزلزل له العالم المسيحي لوعـة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشمل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستى عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران مدينة رومة يوم ٢٦ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها ، فانتهبوا كنيستي القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهكوا حرمة قبورالقديسين ، وما تركوا تلك الاصقاع مثقليـــن بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الاثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدهم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت في الدفاع وما انقذتها الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامي .

مهما كانت امبراطورية الكاروليين (خلفاء شارلمان) قد سقطت في مهاوي الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالـة لذاك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهـة

التى يلتقى فيها نهر التيبر بالبحر وذلك دفاعا عن كنيسة القديسين ضـــد غارة اسلامية اخرى ، كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم فى مملكة البيفنتان ، واستصرخا رجال المسيحية لاعانتهما على ذلـك واستقر القرار اخيرا على ان الجند الاصلى المؤلف من الفرنج وجهات بورغوينا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثـــم يقصد مدينة لارينو حيث يجد العمارة البحرية البندقية وجند دولة البابا وفى تلك الاثناء يجب على اسقف مدينة اريزو ، ومركيز مدينة اسبوليت ، ودوق مدينة نابولى ، ان يحاولوا جميعا اصلاح ذات البين بين امراء بلاد ببيفانت المتخاصمـين .

نجحت هذه المحاولة وكللت بالفوز ، وتمكن الحلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينيفانت ، وهنالك وقع القضاء على كامل الحامية الاسلامية وزعيمهـا الامير مصنعر (١) ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوقولف كامل بـلاد ايطاليا الجنوبية وتعاهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنة ٨٤٧ .

بقيت يومئذ بين ايدى المسلمين مدينة « بارى » يبعثون منها غزاتهم وسراياهم فتولى رهبان « دير كاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقنعوا الملك لويس الثانى بوجوب ذلك فهاجم المسلمين وغلبهم سنة ٨٥٢ ، الا انه لم يستطع او لم يرد احتلال مركزهم مدينة « بارى » .

على ن قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقية فاحتلوا مدينة لونى وتركوها من بعد طعمة النيران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة « ارل » بفرنسا سنة ٨٤٩ .

فى نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التى لاقت من قبل ايما نجـاح ، فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ومخروا عباب البحر ، ثم ارسو

---

(١) يقول مؤرخو الطليان ان مصعر هاجم مرة مدينة ايزرينا وقبل ان يصلها اعلمه الـرواد الذين ارسلهم يـرتادون الطرق ، ويمهدون السبل امـام الجيش ان زلزالا حطم اسوار المدينة ،

اتجاه مدينة اوستي ، لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون إقتحامه ، ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامي الى ان ثارت روبعة شتتت شمل هذه العمارة . كان يومئذ الامير مفرج يثبت مركزه بمدينة باري ويدعم هنالك سلطانه وقد اختط في المدينة مسجدا للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقبا كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب « السلطان » .

لقد كانت الخلافات المستحكمة الحلقات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الشمل والتكتل لمحاربة هذه الدولة الناشئة ، فاغتنمت هي تلك الفرصة ونكلت بالبلاد تنكيلا ذريعا ، وكانت ترسل بسفنها مثقلة بالرقيق يباعون في الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) واخيرا تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه (٢) وهنالك اخذ يلهو بالشراب في اباريق الرهبان ويتطيب ببخورهم .

اخيرا ، فيما بين سنتي ٨٦٦ و ٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اووا الى مدينتي باري وطارنطة ، لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظرا لفقد عمارة بحرية

ولقد كان اسطول رومي جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع من حيث اتى ، وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الخيل العتاق التي غنموها من الافرنج ، فاندفعوا يجوسون خلال الديار ويمعنون في غزوها .

لكن الامبراطور لويس ، لم يغير عزمه رغم مرضه ، فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقالية دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم)

وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال ، فقال مصعر ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها هما على هم ، ولوى عنانه وتركها وشأنها ترمم خرائبها ولا أعرف في تاريخ الفروسية والشهامة عملا يضاهي في نبله هذا العمل . كذلك يؤكدون انه كان يمر حوالى ديسر كاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

وسربيا ، وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة ، وحمى الوطيس برا وبحرا ، واندحر جند اسلامي جاء مددا لمدينة باري فبعد حرب عوان دامت اربعة اعوام ، وبعد حصار ضيق النطاق ، سقطت مدينة باري يوم ٢ فيفري سنة ٨٧١ (٣) (٢٥٨ هـ)

لكن هذا النصر قد اقلق امراء ايطاليا وبلبل افكارهم ، خوفا من اغتنام الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فدبروا مكيدة واوقعوا الامبراطور اسيرا بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما اطلقوا سراحه وارجعوه لبلاده يوم 17 سبطامبر الا بعد ان تعهد بان يترك لهم جميع الغنائم والاسلاب التي استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في باري ، كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

في هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصقلي تحت قيادة امير صقلية العباس بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان ، لكن امراء نابولي وقابو وبينفانتي تألبوا واوقفوا تيار المسلمين ، ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور ، رغما عما جرى ، قد هب لنجدتها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصرا مبينا وفكوا الحصار عن المدينة في صايفة سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ، ذلك ان خليفة الامبراطور ، شارل الاصلع ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد جند جندا واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نحبه دون ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

---

(١) الفرية ظاهرة ، ولا ينتظر من راهب بدير كاسان في حالة حرب مع المسلمين وفي القرون الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين باري ودير كاسان ٢٥٠ كيلو مترا .

(٣) يقول مؤرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقتلن كل مسلم في المدينة ، وكان

لقد كان بحر الادرياتيك يومئذ مرتعا لاعمال القرصنة الاسلامية • وكانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال • اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها •

كانت مدينة بيزنطة « القسطنطينية » قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا ، وتولى كبرها يومئذ بازيل الاول ، واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية ، فجهز الامبراطور اسطولا حربيا عتيدا يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فنال ذلك الاسطول فوزا مبينا • ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة باري قد تقبلت قبل ذلك واليا روميـــا اغريقيا من قبل الامبراطور •

لكن تلك الراحة لم تدم طويلا حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجنده ارض قلورية ويلاقي حتفه تجاه مدينة كوسترا •

ورغما عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالي فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل سابينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاريليانوا المحض وخرائب ديرافارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة رومـــا •

يومئذ اعتزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائيا من هذه المعاقل الاسلامية المهددة ، فمنح تاج الامبراطورية لبير انجي الفريولي في دسامبر ٩١٥ ، لكن هذا الامبراطـور الدعي لم يعمل عمــلا ، وانسحب للشمال الطليــاني فاعتمد راهل روما على انفسهم واستعانوا بمركيز اسبوليت الامير البريك ، فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامي ، ثم تألب جميع امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية، وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعقل الاسلامي المنيع (كاريليانـــو) ، واعانهم الاسطول الرومي على ذلك ، واستولوا على المعقل وقتلوا من كان به من

الجوع قد حطم قوى المسلمين . فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيوف جنده جميع « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مفرج ، واثنان من خاصته هما حنون وعبد الباقي ؛ اذ اختفوا بعد انهيار الدفاع في برج من البروج ؛ ثم ساروا ملتجئين لأمير بنيفانت « ادلغيز » فاكرم وفادتهم ، معترفا بجميل السلطان الذى كان قد انقذ شرف ابنته في سالف الايام.

المسلمين ، ولقد كان ذلك النصر الحاسم في شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع ايطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر ، وكان فخورا بذلك .

كان ذلك النصر قد درأ عن مدينة روما الخطر الاسلامي ، لكنه لم يدرأ عن السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرأ عن الجنوب الطلياني خطر الغارات والغزوات

ففي سنتي ٩٣٤ و ٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابى القاسم الفاطمي على مدينة جنوة حينا ما وانتهبتها .

وفي سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلمي صقلية عند مدينة مسيناسنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

تكونت الامبراطورية المسيحية في المانيا اثناء هذه الحوادث واراد الاباطرة ان يتولوا كبر الحملة على المسلمين .

ففي سنة ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثاني نحوهم فاحتل مدينة طارنطة ثم واجه جنداميز صقلية ابى القاسم عند السواحل تجاه مدينة ستيلو او كوترني ، ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامي فضعضعوا قواه ودحروه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافي الفادحة ، فانطبقا بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون يومئذ بانهزام شنيع ، وانسحب الامبراطور مغلوبا مقهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية انقذته من الاسر ، اما امير صقلية فقد لقي حتفه شهيدا اثناء تلك المعركة (٢) .

ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب في الامبراطورية فاصبح كل امير طلياني يتولى بجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .

ففي سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة باري القائد الصقلي « الصافي » فدافع عنها القائد الرومي والعمارة البندقية معا وابعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا تمكنت ١٠٠٦ بواسطة جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة رجيو ثم تدخل النرمان وانتهى امر المسلمين » .

---

(1) انظر تفصيلها صفحة 126 (2) انظر التفصيل صفحة 137 .

اسد الـدولـة احمد الاكحـل

اولاه ابوه وارتضاه الناس ، كما اسلفنا ، فى السادس من شهر المحرم سنة ٤١٠ (١٠٠٩ م) وابتدأ اعماله بحزم شديد ، فضبط الامور ، ومهد الراحة ، ودانت له سائر البلاد ٠

ولقد راى النرمان اثر حوادث الثورة السالفة انالشقاق اخذ يدب من جديد بين مسلمى صقلية فقرروا ان يهتبلوا الفرصة ، واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم ينالوا فى اول الامر منالا ، واوقفتهم جنود احمد عند حدهم ٠

سياسة فرق تسد : كان اسد الدولة احمد الاكحل يعتمد على ولده جعفـــر كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغائى ، فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك ٠

راى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والثبات بها الا بالاعتماد عــلى فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات الزمن واضطرابات الشعب ٠ ولو انه اعتمد على العدل والانصاف واحقـــاق الحق وازهاق الباطل ، كما اعتمد اجداده واعمامه من قبل ، لكان مآله احسن ، وعاقبته اضمن ٠

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين : فريق الصقليين المتاصلينالذين استوطنوا البلاد منذ اوائل عهد الفتح وذريا تهم ومن اسلم من السكان الاصليين وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاة الفاطميين واستقروا بهـــا واغلبهم من البربر من كتامة وغيرها ، ممن بقى بعد ابعاد تاج الدولة لهـــم

اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخاطبهم فى الامر وقال لهم اننى أريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم فى دياركم واعتمد عليكم وحدكم فى حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل ذلك ايها الامير فاننا قد صاهرناهم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق مع هذا الفريق خاطب زعماء الافارقة فى الموضوع فقبلوا الاقتــراح بســرور

وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا فى الامة ، واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لاتمس الا الصقليين الاصليين خاصة ، فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم ، وانفصم حبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين قسميها ، واستعد النرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لأنزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذى تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس : اصبح الصقليون فى كرب عظيم . فارسلوا خفية وفدا من وجوههم ام بلاط المعز بن باديس مستصرخا مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فاننا سنسلم انفسنا المروم تخلصا من الظلم الفادح .

كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا ، وصفا له الجو موقتا ، فاقبل على الانشاء والتعمير ، وكانت له مدنية من اجل واروع ما رأته البلاد الافريقية .

وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتخبط فى مصر في دياجير من الكفر والالحاد ، ومن الفسوق والفجور ، ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بامر الله وعصر ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، بين ادمان الخمور والاعتكاف على الملذات ، فكان المعز ابن باديس يبغض الفواطم بغضا يكنه في فؤاده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين براثنهم وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم فى الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم،فولوا وجههم كما رايت شطرالقيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باذيس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية ، وادخالا لتلك البلادتحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة ، فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معهما جندا قويا يشمل ثلاثة آلاف راجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكحل فى الخالصة وازهقوا روحه سنة ٤١٧ (١٠٢٦) ، واخذ ابناء المعز يدبران الامر بحكمة ورأى سديد .

نكبة هائلة : كان النرمان ، كما قلنا يرقبون عن كثب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك من الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجدونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمدهم بقوة عتيدة تمنع عنهم خطر النرمان وتحمى ارض الجزيرة من كل طامع ولقد كان النرمان وجماعة النصارى كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكالبين ·

لبى المعز بن باديس رحمه الله الطلب ، فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفى سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول يجمع ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحا ·

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العظيم الذى كان يستطيع بقوته وبمن فيه ان يقلب صفحة التاريخ فى صقلية، بله اروبا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة ، وهنالك اصابته زوبعة هائلة اتلفته كله ولم ينج من اهله الا القليل ، فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذى اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهلاليين ·

فى هاتيك الاثناء ، اجتمع جماعة من اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتم من لا يستطيع نصركم ، فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى الحسن وارجاع الملك لهم ، فثاروا بولدى المعز ، وقتلوا من جندهما زهاء الثمانمائة رجل ، وما وسع عبد الله وأيوب الا الرجوع بفلولهما لافريقيا ، ونصب الصقليون فى بالرمة صمصام الدولة حسن ، شقيق أحمد الاكحل القتيل ·

صمصام الدولة حسن بن يوسف

تناثر العقد من وسطه ومن أطرافه ، وأخذ النرمان يتقدمون فى البلاد · وكان الصمصام مفلولا ، فلم يستطع ان يوطد ملكه او ان يثبت سلطانه ، ولم يجد المسلمون يومئذ وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم ، خطر النرمان

المميت ، الا الانقسام على انفسهم واستقلال كل أمير بناحية · وصدق الله العظيم « فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ·

ففى بالرمة العاصمة كان الصمصام حسن يحكم الناحية الشمالية · وفى مازرة وما حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث · وفى جرجنتى وما اليها استبد بالامارة على ابن نعمة بن الحواس · وفى سرقوسة وقطانية استقر بن الثمنة · واستقل فى جهة مسينا أمير آخر · واصبح أمر البلاد فوضى ، وتغلب سفلة القوم على اصحاب الرأى والاصالة فيهم ·

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع أهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لما راوا من ضعفه ، وما كان ضعيفا الا بهم ، وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك امارتى سرقوسة وقطانية وامارة بالرمة ، وكان ابن الثمنة متزوجا ميمونة أخت على ابن الحواس أمير جرجنتى ، فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة يائسة لتوحيد صفوف تلاشى نظامها أبديا (١) ·

الحرب الاخوية والخيانة : سكر الامير يوما فخلط ، فاتهم زوجه أخت ابن الحواس تهمة هى منها بريئة ، فقطع لها عرق الزند لتموت من نزيف الدم · لكن ولدها ادركها فى اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فانعشوها · ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجه ، وتظاهرت بقبول الاعتذار ، ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها · وهنالك قصت على ابن الحواس ما فعل بها زوجها ، فاقسم لينتقمن لها منه ، وجمع جموعه لا لرد غائلة النرمان ، بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة ، والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه ، وانتصب ابن الحواس اميرا فى بالرمة ·

اما ابن الثمنة فقد ادت به النذالة والصغار الى جزيرة مالطة ، حيث كان ملك النرمان ، وطلب اليه ان يمده بجنده ووعده بملك الجزيرة وما كان روجي الاول

---

(1) أثناء هذه الحوادث سنة 430 وما حواليها توطد قدم الأتراك السلجوقيين ببلاد الشام وفلسطين وانتزعوها من أيدي ملوك الطوائف وأمراء الفاطميين .

ملك النرمان ينتظر الا مثل ذلك الحادث فجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الثمنة كما سافر منذ مائتى عام اسد ابن الفرات مع الخائن او فيماس لفتح صقلية ٠

خـراب دولة المعز عـلى يـد بنى هـلال : فى سنة (١٠٧٣) حيث كانت تجرى هذه الحوادث ، وحين كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج ولديه من صقلية ، لتلك الناحية البائسة، وقعت فى مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون فى ذلك الوقت ، وانقض اهل السنة على رجال الشيعة فقتلوهم فـــى الحواضر والبوادى اشنع قتلة ، واعلن المعز يومئذ خلع طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضى الله عنه ٠ ثم جاءه من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحدالدرمى يحمل له من الخليفة العباسى القائم بامر الله تقليدا يعترف له فيه بالاستقلال

بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فعظم الامر على بلاط الفاطميين فيهـــا ، ولقد اشار على الخليفة المنتصر بالله ، وزيره احمد بن على الجرجانى ، ان يرسل اعراب بنى هلال على بلاد المغرب ، انتقاما للشيعة ، وتحطيما لسلطان صنهاجة وملك بنى باديس ، وتخلصا فى آن واحد من اولئك الاعراب الذين كثـــرت قلاقلهم فى شرق الصعيد المصرى ٠

قبل الراى كما هو معلوم فى كتب التاريخ ، وانصب على ارض افريقيا من تلك الجموع نحو النصف مليون نسمة،صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ (١٠٤٨م) فدحروه وتحصن فى القيروان فنازلوه بها واحتلوها ، والحقوا بها نكبة كانت من اكبر نكبات التاريخ فى العالم الاسلامى ، فاندكت بذلك معالم مدنية من ازهى وازهر مدنيات هذه البلاد ٠

يقول شاعر بلاطا المعز الحسن ابن رشيق ، واصفا مصيبة القيروان من قصيد طويـــــل :

حسنت فلما ان تكامل حسنهـا ... وسما اليها كـل طـــرف وان
وتجمعـت فيها الفضائـل كلها ... وغدت محـل الامن والايمـان

نظرت لهـا الايام نظرة كاشـح ترنـو بنظـرة كاشح معيـان
حتى اذا الاقـدار حم وقوعهـا ودنا القضـاء لمـدة واوان
اهدت لها فتنـا كليـل مظلـم وارادهـا كالناطـح العيـدان
بمصائـب من فادع واشالـب ممن تجمع من بنى دهمـان
فتكوا بامـة احمد ، اتراهمـوا امنوا عقـاب الله ، فى رمضان
نقضوا العهود المبرمات واخفروا ذمم الاله ولم يفوا بضمـان
فاستحسنوا غدر الجوار واثروا سبى الحريم وكشفة النسوان
ساموهم سوء العذاب واظهـروا متعسفين كوامـن الاضغـان
والمسلمون مقسمـون تنالهـم ايدى العصاة بذلة وهـوان
يستصرخـون فلا يغاثصريخهم حتى اذا سئموا من الازمـان
بادوا نفوسهم فلما انفـذوا ما جمعوا من صامت وحـوان
خرجوا حفاة عائذين بربهـم من خوفهم ، ومصائب الالـوان
هربـوا بكـل وليـدة وفطيمـة وبكـل ارملة وكـل حصـان
فتفرقوا ايدى سبا وتشتتـوا بعد اجتماعهم ، على الاوطـان

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر فى المهدية . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون فى بـلاد الشمال الافريقى من مشرقه الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجيـة تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية صالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز : انقسمت البلادالتونسيـة يومئذ ، وكانت مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفـة الشأن .

فمنها امارة بنى خراسان بمدينة تونس وما حواليها ، استقلوا بشؤون تلك الناحية من حوالى سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارة بنى جبارة بن مكى استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ .

وامارة بنى مدافع بن جامع الهلالى : استبدت بناحية قابس وما اليها مـن بلاد الجنـوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بنى الرند ، ودام استقلالها اكثر من الامارات السابقة اى الى سنة ٥٧٥ .

واخيرا بمدينة المهدية وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ، ثبتت امارة بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهدية اخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنية موحدة ، قضت على ملوك الطوائف ، ووحدت بلاد الشمال الافريقى في امور الدين والدنيا ، على يد بطل من ابطال الاسلام الخالدين : عبد المؤمن بن علي .

وقد ازدان ملك صنهاجية بالمهدية ، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان ببلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم ، واعلام الادب ، وكبار الفلاسفة والشعراء ، فكانت ايام المهدية على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب بينها وبين الهلاليين ، اياما مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابى الصلت والمجتهد الاكبر الامام المازرى والتجأ اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد الجبار بن حمديس ، وكان امير المهدية تميم بن المعز من خير الرجال عقلا وادبا ، وحسن ادارة ، ومعرفة باصول الادب والشعر ، وانه ليصور لك حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامى كله فى ذلك العصر اذ يقول :

يادهر ما اقساك من متلون	فى حالتيك ما اقلك منصفا
اتروح للنكس الجهول ممهدا	وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا
واذا صفوت كدرت شيمة باخل	واذا وفيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرمت لاننى	ادرى بانك لا تدوم على الصفا

---

(١) اثر نكبة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلاليين وخراب القيروان ، اعلنت مدينة تونس التى كانت يومئذ من ازهى وازهر المدن فى الشمال الافريقى انضمامها للمملكة الصنهاجية الغربية ؛ مملكة بنى حماد ، وكانت قد استقرت فى بجاية وانتظم شملها وذاع صيتها واصبحت كعبة القصاد ومحط رحال العلم والادب وكبار الشعراء ؛ فعين ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق ابن خراسان واليا على مدينة تونس وما حواليها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اهل البلاد ؛ اعلن استقلاله ، وحافظ هو وبنوه على ذلك الاستقلال فى تلك الامارة الصغيرة الرقعة الكبيرة الاهمية مدى مائة عام .

زمن اذا اعطى استرد عطاءه ... واذا استقام بدا له فتحرفا
ما قام خيرك يازمان بشره ... اولى بنا ماقل منك وما كفى

ثم هو يخاطب البقية من قومه ، يحرضهم ويستفز منهم الحمية ، كأنه يلهب فيهم نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمي صقلية :

متى كانت دماؤكم تطل ؟ ... اما فيكم بثار مستقل ؟
اغانم ثم سالم ، ان فشلتم ... فما كانت اوائلكم تذل
ونمتم عن طلاب المجد حتى ... كأن العزم فيكم مضمحل
وما كسرتم فيه العوالى ... ولا بيض تفل ولا تسل

وتسمو به احيانا نفسه الابية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلى واسترجاع المجد الآفل :

بكر الخيل دامية النحور ... وقرع الهام بالقضب الذكور
لاقتحمنها حربا عوانا ... يشيب لهولها راس الصغير
فاما الملك في شرف وعز ... على التاج فى اعلى السرير
وما الموت بين ضبا العوالى ... فلست بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية : إخذ فى صقلية اميرها المتغلب على بن الحواس يجمع الجموع ويحاول توحيد الكلمة ، لتاليب الناس ضد النرمان ، والدفاع النهائى عن حكم المسلمين بتلك الجزيرة .

فى هاتيك الاثناء ، قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهدية ، وقد علم كما علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجدوه واستمد منه الاعانة على الفرنج المتكالبين . فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ، واستنفار الناس للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذى كان بالمهدية ، وحمله ثلة صالحة من بقايا جنده ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة ولديه على وايوب .

نزل على بن تميم بقسم من الجند فى مدينة بالرمة ، ونزل ايوب بالقسم الاخر فى مدينة جرجنتى ، فاكرم ابن الحواس وفادتهما ، وتفاءل الناس خيرا بهذا المدد الكريم ، واحسن ايوب وعلى السيرة ، فمال اليهما الناس واحبوهما حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد النرمان .

لكن ابن الحواس خشى منهما على ملكه المتضعضع ، وخاف زوال سلطانه الآفل ، ففرق الكلمة بعد اجتماعها ، وشتت الشمل بعد التئامه ، وجمع جماعة من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغارا جند المنقذين على وايوب ، ومات اللعين فى معركة بضربة سهم .

ايــوب بن تميم

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب ، وروا فيه الرجل الصالح والقائد الذى يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال النرمان الذين كانوا يتقدمون دائما، فياكلون اطرافها ، وقد التهموا منها الشىء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم، واخذت نيران الحماس تتقد في النفوس يذكيها شعراء امجاد امثال عبد الجبار بن حمديس الذى انشد قصيدا خالدا انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض هممهم ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هى مقاومة اليائس المستميت ، قلما رأيت لها مثيلا فى اسفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك . واننى لا ارى غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من اغرب واروع صفحات الجهاد الاسلامى بصقلية . يقول ابن حمديس :

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى امى　　اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف انى خائف ان تدوسكم　　دواه واننم فى الامانى مع الحلم
وكاس بام الموت يسعى مديرها　　الى اهل كاس حثها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة　　مصرحة الروم بالثكل واليتم
تهيل مع النقع المحلق بالضحى　　على الشمس ما هالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض فى العجاج كانها　　فروق بضرب الهام محمرة السجم
فلا عدمت من سلها من غمودها　　ظهورا ، فقد تخفى الجداول بالرجم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر　　احب الى سمعى من النقر فى اليم
ووالله منكم كل ماض كعضبة　　يسير الى الهيجاء متقد العزم
يحدث بالاقدام نفسا كانها　　تطير الى الحرب اشتياقا عن السلم
ويسطو بمحجوب الظباء اذا بدا　　جلاما جلا بالصبح من ظلمة الظلم

له دخلة في الجسم تخـــرج نفسه قبيل خروج الحـد منـه عـلى الجسـم
وما يفتدي منـــه بلحـــم ولا دم ولكن بما في العظم بالبرى للعظـم
ليوث اذا ما اقبل المـوت فاغـــرا يردد في الاسماع جرجـرة القـــرم
له عـــين ضرغام هصـــور ، فقلبـه بتصريف فعل الجهـــل منه على علم
ولله ارض ان عدمتم هـــواءهـــا فاهواؤكـم في الارض منثورة النظم
وعزكـم يفضي الى الذل والنـــوى من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى
وان بلاد الناس ليست بلادكـــم ولا جارها والحكم كالجار والحكـم
أعن ارضكم تغنيكـم ارض غيركـم وكم خالة جـداء لـم تغـــن عـن أم
تقيد من القطـر العزيز بموطـــن ومت عند ربع من ربوعـــك اورسـم
واياك عنـــه ان تجرب غربـــة فلـن يستخيـر العقل تجربـة السم

النكبـــة : استمر الجهاد عنيفا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون فــي البلاد باستمرار ، واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ، ولقد صدق من قال :

يغمى على المرء في ايام محنتـــه حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ففي هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسرانهم ،ويستمر انهيارهم ، تألب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ، وناووهوقاتلوه على مرأى ومسمع من النرمان (١) ، فعلم هذا انه خسر الصفقة ، وعلم كبـار القوم هنالك ان صقلية قد ضاعت على يد سفهائها وانذالها ، فقرر ايوب وقــرر وجوه القوم معه الانسحاب الى المهدية ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع من راى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلـك سنة ٤٦١ (١٠٧٨) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمـــة وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة ٠

آخر مقاومة : لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصر يانة ومدينة جرجنتي ، فقصدهما رجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار

(١) الامر اعظم من ان يكون تنطعا وجهالة ، بل كان في نظرى نتيجة خيانة وتواطيء مع النرمان

وضيقه ، وتفانى اهل المدينتين فى الدفاع ، واستبسلوا استبسالا لو وقع من قبل مثله لبقيت صقلية احقابا عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتى ، ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقيب قصر يانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالآم ، فسجلت في تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ، ما سجلته من قبل في تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين ، وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاما كله عزة وشرف وافخار ، وما استسلمت قصر يانة تحت ضربات رجار العنيفة الا سنة ٤٨٤ (١٠٩١) اى ٢٣ عامابعدانسحاب من انسحب من المسلمين مع ايوب ابن تميم ابن المعز . وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١) .

سيرة النرمان الاولى : كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين فى غير ميادين القتال ، فكانوا لم يزالوا على فطرتهم الوحشية الاروبية الاولى ، ولم يغترفوا بعد من المدنية الاسلامية التى كانت وضاءة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقلاقل ، والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملا بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين فى سائر جهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ، ولم يترك لاهلها من المسلمين حسبما يرويه ابن الاثير : حماما ولا دكانا ولا ولا طاحونا ولا فرنا .

فكانت ايام رجار الاول ــ نحو الثلاثين سنة ــ ايام تنكيل وزجر ، ايام

---

(١) لم يكتف النرمان باحتلال صقلية والثبات بها ، بل تتبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، واثخنوا فيهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقى الرعب فى قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠ ؛ فافنى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها ثاروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوها قبل ذلك سنة ٥٢٠ .

تم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة ٥٤٣ ، واحتلوا مدينة المهدية ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن على بن يحى سنة ٥٤٣

اقتلاع جذور الحكم الاسلامي بالجزيرة ، وتمكين سلطان المسيحية فيهـــا ، فكانت دورا من ادوار الفتح الحربي ، دام طيلة ايام رجار الاول (٣٠ سنة) ، الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ، ولم يشردهم عـــــن البلاد ، فكان ذلك سببا في بقاء المدنية الاسلامية وازدهار فيما بعد بصفة لامعة وضاءة ، وكان النرمان انفسهم اول مستفيد منها ٠



وفي سنة ٥٤٨ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .
واحتلوا سنة ٥٤٨ كذلك جزيرة جربة وفتكوا باهلها فتكا ذريعا .

القسم السابع

صقلية الاسلامية

تحت الحكم المسيحى النرمانى

رجار الثاني : كان من اغرب نتائج استيلاء النرمان على صقلية ان الغالبين النرمان تاثروا ايما تاثر بمدنية المسلمين المغلوبين ، وكان اختلاط العنصرين في المدن والقرى والبوادى سببا لتعارفهم السريع ، واقول لتآلفهم البديع .

لقد نشأت في هاتيك الاصقاع ، منذ انتهاء عصرى الاحتلال ، وموت الملك الفاتح رجار الاول ، مدنية جديدة زاهية زاهرة ، ظاهرة لامعة ، يمكننا ان ندعوها المدنية النرمانية الاسلامية .

كأن المسلمين حين فقدوا سلطانهم السياسى بهاتيك الديار ، وضعفت عصبيتهم عن مزاولة الحكم وممارسة رئاسة الدولة ، فقدوا جميع الاسباب التى كانت تحول بينهم فى منازعاتهم الداخلية آخر ايام ملكهم ، وبين الاستمرار على نشر رسالتهم العلمية الفنية المدنية الرائعة ، فاقبلوا يومئذ تحت سلطة النرمان على العلوم والفنون والآداب ، وانشاء المبانى الجليلة الضخمة والقصور البديعة ، وحتى الكنائس والكاتدر ائيات ، مما لاتزال آثاره الجليلة قائمة الى يومنا هذا ، ولقد دام هذا الدور البديع دور المدنية الاسلامية النرمانية طيلة عهد النرمان فى صقلية ، بعد رجار الاول (ماية سنة)

يقول ابن الاثير عن رجار الثانى :

« سلك طريق ملوك المسلمين من الخبائب والحجاب ،والسلاحية والجاندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك . وجعل له ديوان المظالم يرفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه » . .

قال غوسطاف لوبون فى تاريخه الشهير عن هذا العهد من تاريخ المدنية

الاسلامية النرمانية : (ص ٣١٦) ٠

« كانت مدنية العرب لاتزال زاهية بصقلية عندما اتم النرمان فتحها ٠ ولقد اظهر رجار وخلفاؤه من بعده عقلا راجحا ، عندما ادركوا سمو منزلة اتباع الرسول ، فاقتبسوا عنهم النظم والتراتيب الادارية وبذلوا لهم حمايتهم ، وبذلك اتاحوا للبلاد عصر رفاهية دام الى عصر ملوك السواب الالمان (١١٩٤) الذين ابعدوا العرب خارج صقلية ٠

ثم يقول فى موضع آخر من كتابه المذكور ، عن هذه الفترة التاريخية ايضا (ص ٤١٦) :

« لقد ادرك الملك رجار كما ادرك رجال المسلمين ان التسامح وحده هو الذى يكفل الحكم الصالح للجميع ٠ وكانت الارستقراطية ، اعيان الامة وعلية القوم من رجال العلم والفكر والصناعة مؤلفة خاصة من المسلمين فبذل لهم حمايته بصفة فعالة ٠

ولقد سلك خليفته غليوم خطته فتعلم العربية وحذقها ، وكان لا يعتمد فى المهمات الدقيقة الا على العرب خاصة ، واعترف له هؤلاء بالجميل ، فكانوا ينضوون تحت لوائه لمقاومة الخصوم واخماد نيران الفتن وكانت لهم فى بالرمة حارات فسيحة ، ومساجد ضخمة ، وائمة ، وقاض يفصل ما شجر بينهم ، وبفضلهم كان بلاط ملوك النرمان زاهرا كثير التألق ، حتى امكن للمؤرخ ابى الفداء ان يقول عنه ، « وانه كان يضاهى بلاط الخلفاء فى بغداد والقاهرة » ٠

يقول الشريف الادريسى الصقلى فى كتابه الشهير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عن الملك رجار :

« فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ، ما سبق الملك المعظم رجار المعتز بالله ، والمقتدر بقدرته ، ملك صقلية وانكبردة وايطاليا وقلورية امام رومية الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا وصرف الامور على ارادته صرفا وقبضا ، ودان فى ملته بدين العدل ، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام باسباب مملكته احسن قيام ، اجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قيام ٠ الخ

ملوك النرمان تولوا امر صقلية

الملك	الولادة	الولاية	الوفاة
رجار الاول	١٠٤٠	١٠٧٠	١١٠١
ابنه رجار الثانى	١٠٩٣	١١٠١	١١٥٤
ابنه غليوم الخبيث (١)	١١٢٠	١١٥٤	١١٦٦
ابنه غليوم الحسن	١١٥٤	١١٦٦	١١٨٩
طانكريت (٢)		١١٩٠	١١٩٤
غليوم الثالث		١١٩٤	

وهو آخر ملوك النرمان ، تولى صبيا تحت رعاية امه (سبيلا) لكن الامبراطور الالمانى هنرى استولى فعلا على امر البلاد وضمها للامبراطورية وساق غليوم وامه واخوته للاسر فسمل اعينهم وحبسهم فى قلعة حتى لاقوا حتفهم .



(١) اطلق النصارى عليه هذا الاسم لحسن سيرته مع المسلمين ولانه عندما تولى الملك اعتمد فى المهمات عليهم .

(١) هو ابن غير شرعى لرجار الثانى ؛ وفى ايامه تدخل الامبراطور هنرى الرابع الالمانى فى امر صقلية وضرب على ايدى النرمان والمسلمين معا .

النفــوذ الاسلامي بصقليــة

تحت امرة ملوك النرمان

يقول مسيو لوط السالف ذكره ، في كتابه « غارات الهمج » عن هذه الحقبة من تاريخ المسلمين في صقلية :

« انتهى امر الاستيلاء العربي بجزيرة صقلية ، لكن الحياة العربية قـــد استمرت بعد ذلك ، فالملك رجار الاول ، والملك رجار الثاني الذي استبدل لقبه واصبح يدعى الملك بدل الكونت وكذلك غليوم الاول وغليوم الثاني قد نفذوا جميعا ما تعهدوا به لجماعة المسلمين هنالك من احترام عوائدهم وقوانينهـــم ولغتهم وديانتهم

ثم ان ملوك النرمان قد استخدموا المسلمين جنودهم ، وتركوا للمدن الصقلية وكانت كلها يومئذ مدنا اسلامية (١) جميع نظمها البلدية والعرفية والصناعية، وفتحوا في وجه المسلمين ابواب ارفع مناصب الدولة يتولونها ، اما علمـــاء المسلمين ورجال الادب والفكر منهم فقد كانوا خلاصة الخاصة في بلاط الملوك ٠

اما بالنسبة لسائر الرعايا المسلمين فقد كانوا يرون في ملوك النرمان ، امراء يعتنقون الدين المسيحي ، ويقول عماري ان الامبراطور فريدريك الثاني كان كما كان رجار الثاني قبله سلطانا من سلاطين الشرق لا يميزه عنهـــم الا تدينه بالمسيحية ٠

٠٠٠ ولقد دام الرقي المادي العربي والحضارة الادبية العربية امدا طويلا ، وورثها عن ملوك النرمان ملوك الالمان من عائلة الالمان من عائلة هوها نستوفـــن كهنري الرابع وافر يدريك الثاني ٠

« ولعنا لا نجد مندوحة عن المقارنة بين سياسة ملوك النرمان الحرة الماهرة مع مسلمي صقلية ، وبين سياسة ملوك قشتالة الاسبان مع مسلمي الاندلس ٠

---

(١) انظر فيما بعد قسم : كيف ترك المسلمون الجزيرة ؟

لكننا نقول ان فارقا جسيما يمنعنا من هذا التنظير ، حيث إن المسحيين في اسبانيا كانوا يتولون بانفسهم اخراج المسلمين الغاصبين من بلادهم ، اما في صقلية فان النرمان انفسهم كانوا اجانب غاصبين ، بل كانوا في اول امرهم مغامرين مكروهين ، واضطرو الاصطناع الناس بحسن السلوك ، فقربوا منهم المسلمين واجملوا معاملة النصارى سواء كانوا من الصقليين اللاتينيين او من الصقليين الاغريق .

« كانت حياة المسيحيين بصقلية اثناء حكم المسلمين من الاغالبة او الفاطميين حياة مظلمة النواحي لا نستطيع ان نستجلي غوامضها ، لان الكتابات المسيحية واغلبها كان مكتوبا باللغة اليونانية قد اتلفت خلال القرن العاشر ، انما كان مقامهم هنالك كمقام سائر المسيحيين الذين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين اى انهم كانوا يدفعون للدولة اتاوات ثقيلة وكانوا في اكثر الاوقات بعيدين عن المناصب الادارية ، ولقد كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية انما على شرط ان يكون ذلك بصفة هادئة خافتة « ان عدم وجود شهداء للمسيحية بهذه الاقطار خلال هذا العصر يدل دلالة صريحة على تسامح المسلمين نسبيا ، ويقول ميكـال عماري ان استشهاد وتعذيب القديس بوركوب اسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة سنة ٩٠٧ بين ايدى المسلمين لم يكن نتيجة تعصب ديني اسلامي بل كان نتيجة جنون ابراهيم الاغلبي الثاني الذى قاسى اهله وذوو قرابتـه الاهوال من جنونـه .

« ... لقد ازدهر التفوق الاسلامي بصقلية ازدهارا لامعا من القرن التاسع الى القرن الحادى عشر حتى يكاد يخيل لك ان صقلية قد اصبحت جزيرة عربية بحتة . وكنت تنتظر بعد ذلك ان ترى فوق اديم صقلية معالم وآثارا تباهـي بجمالها وجـلالها معالم وآثار اسبانيا والمغرب وتونس . لكن يالها من خيبـة امل ، انه لم يبق لنا من ذلك اى شيء سواء معالم الدين او الحياة المدنية . انما يتجلى لك نفوذ الهندسة العربية في قصور وكنائس النرمانيين امثال قصور القبة والعزيز والقبولاء او كاتدرائيات بالرمة وشفالو .

« .. نظرا لذلك الدور العظيم الذى لعبه بارض الجزيرة علماء الرياضـة

والمنجمون والاطباء والمهندسون المسلمون ، ونظرا لكون البلاط الملكي النرماني كان بلاطا شرقيا في نظر امراء المسيحية ، كان ينتظر ان تحيا العربية في هاتيك الديار حياة طويلة · لكن شيئا من ذلك لم يكن · واخذت العربية تتراجع وتتقهقر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الى ان تضاءلت حتى في المدن ، وذلك يرجع لسببين اثنين : اولهما ان الطبقات الراقية والعليا من المسلمين قد هجرت الجزيرة الى افريقيا ومصر وثانيهما وهو الاهم ان الرهبان اللاتينيين قد امعنوا في تنصير الناس طوعا او كرها بحيث ان الاسلام اضمحل تماما من ارض الجزيرة حسبما يلاحظه عماري خلال القرن الثالث عشر »

جاء في كتاب « التاريخ العالمي » للمؤرخ السويدي الكبير كارل كرمبرغ (١) ، عن هذه الفترة ، ما يلي :

« كانت صقلية ، خلال القرنين الحادي والثاني عشر ، الموطن الوحيد الذي تسود فيه حرية المعتقد · فالاديان الثلاثة المسيحية والاسلامية واليهودية، كانت تعيش هنالك جنبا الى جنب ، في امن وسلام ·

« قامت هنالك مدنية ضخمة شامخة ، ذات طابع مختلط ، كانت ثمرة ما اظهره الملك روجي من عبقرية سياسية ، وضعته في صف الاسكندر ، وتيودوريك الكبير ·

« نشأت هذه المدنية بفضل حكومة سمحت لليونانيين وللمسلمين وللطليانيين ولليهود ، بأن يعمل كل على شاكلته ، وكانت تشجع الجميع على حد سواء · وهكذا كانت صقلية ، جغرافيا وتاريخيا ، الملتقى الطبيعي للمدنيات الاغريقية والرومانية والعربية · كذلك اجتمع فيها ، في تجانس بديع ، الفن الهندسي المعماري البيزنطي ، والعربي ، والروماني والنرماني ، فتشكل من كل ذلك هذا الفن النرماني الصقلي ، وهو زبدة أربع مدنيات » .

---

(1) Histoire Universelle : Karl GRIMBERG

بعد مائة عام ـ حكاية ابن جبير : فى سنة ٥٦٠ هجرية (١١٧٢ م) اى بعد مائة عام من انهيار حكم المسلمين بصقلية ودخولها تحت طاعة النرمان ، وبعد ان تدخل فعلا الالمان فضربوا على ايدى آخر ملوك النرمان ونكلـــوا بالمسلمين تنكيلا ذريعا ، بعد ذلك ، دخل صقلية قافلا من حجه الرحالة الشهير ابو الحسين بن جبير الكنانى الاندلسى ، فترك لنا وثيقة من اغرب وثائـــق التاريخ ، هى رحلته البديعة التى صور فيها تصويرا دقيقا حالة المسلمين فـــى الجزيرة مع ملوك الالمان فى احرج ساعة ، وادق موقف . اى فى الساعة التى سبقت انتهاء عصر التسامح الدينى واخراج المسلمين كافة من صقلية ٠

فهذا القسم من الرحلة يعتبر اصدق تاريخ لتلك الحقبة من التاريخ الصقلى ونقل نتف منه بنصها نعتبره تتمة لبحثنا هذا ، يقول ابن جبير وهو فـــى مسينا :

« وكفى بانها ابنة الاندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهـة ، مشحونة بالارزاق على اختلافها ، مملوءة بانواع الفواكه واصنافها ، لكنهـا معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى اكنافها ، والمسلمون معهم على املاكهم وضياعهم قد احسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهـم : وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الارض كانوا يجدونها ٠

٠٠٠ وليس فى مسينا هذه من المسلمين الانفر يسير من ذوى المهن ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب » ٠

ثم حل ببالرمة فكتب لنا عنها هذه القطعة الطريفة : « هى مسكن ملكهـم غليام Gilleume (١) وشان ملكهم عجيب فى حسن السيرة واستعمـال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب ، وكلهم او اكثرهم كاتم ايمانه متمســك بشريعة الاسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم فى احواله ، والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين ٠ وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ٠ ووزراؤه وحجابه الفتيان ، ولـه جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ٠ ووزراؤه وحجابه الفتيان

وله منهم جملة كثيرة هم اهل دولته والمرتسمون بخاصته ، وعليهم يلـــوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة ، والمراكب الفارهة ، وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع ، وليس في ملوك النصارى اترف فـــي الملك ولا انعم ولا ارفه منه ، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين ، وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيبا او منجما اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته ، حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ... ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب العربية ، وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمتـــه المختصين به « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيه : « الحمد لله شكرا لا نعمـــه

« واما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن ، ومن اعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب فـــي طراز الملك ان النصرانية من الفرنجيات تقع في قصره فتعود مسلمة ، يعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير امور عجيبة .

« واعلمنا انه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة ، ذعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع في قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ورسوله من نسائه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم ، ليذكر كل احد منكم معبوده ومن يدين به تسكينا لهـــم .

« وما فتيانه الذين هم عيون دولته واهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الا شهر تطوعا وتؤجرا ، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ، ويفتك الاسارى ويربي الاصاغر منهم ويزوجهم ، ويحسن اليهم ، .. الفينامنهم بمسينة فتى اسمه « عبد المسيح » من وجوههم وكبرائهم ، بعد تقدمة رغبـــة

---

(١) هو غليوم الحسن ورحلة ابن جبير وقعت في آخر سنة من ملكـه .

مناليه فى ذلك ، فاحتفل فى كرامتنا وبرنا ، واخرج لنا من سره المكنون بعد مراقبة منه فى مجلسه ، ازال لها من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظةعلى نفسه ، فسالنا عن مكة قدسها الله ، وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهدالمدينة المقدسة ومشاهد الشام فاخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا ٠٠٠ وقال لنا انتم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له رابحون ان شاء الله ، ونحن كاتمون ايماننا خائفون على انفسنا متمسكون بعبادة الله واداء فرائضه سرا متعلقون فى ملكة كافر بالله قد وضع فى اعناقنا ربقة الرق ٠٠٠

« ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان انهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون افذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم ٠٠٠ فلا يزالون باعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين فى جهاد دائم » ٠

ويقول عن مدينة ثرمة :

« وسرنا فى طريق كأنها السوق عمارة ، وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا ، فراينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس اهل الجهل ٠٠٠ فانتهينا الى « قصر سعد » وهو على فرسخ من المدينة وقد اخذ منا الاعياء فبتنا فيه ، وهذا القصر على ساحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة ، لم يزل ولا يزال بفضل الله مسكنا للعباد منهم ، وحوله قبور كثيرة للمسلمين ، اهل الزهادة والورع ، وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ، وله باب وثيق من الحديد وداخله مساكن وعلالى مشرفة وبيوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى ، وفى اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء ، مستطيل ذو حنايا مستطيلة مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الاربعين قنديلا من انواع الصفر (النحاس) والزجاج ، وامامه شارع واسع ، يستدير باعلى القصر وفى اسفل القصر بئر عذبة ، فبتنا فى هذا المسجد احسن مبيت واطيبه ، وسمعنا الاذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه، واكرمنا القوم الساكنون فيه ، ولهم امام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى

هذا الشهر المبارك

ووصف حال مسلمي بالرمة فقال :

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرون اكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة باذان مسموع ، ولهم ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصاري والاسواق مغمورة بهم وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحضورة عليهم ويصلون الاعياد بخطبة ، ودعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بهاقاض يرتفعون اليه في احكامهم ، وجامع يجتمعون فيه للصلاة ، ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك ، واما المساجد فكثيرة لا تحصى ، واكثرها محاضر لمعلمي القرآن ...

وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين ، فصيحات الالسن ، ملتحفات ، متنقبات ، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر :

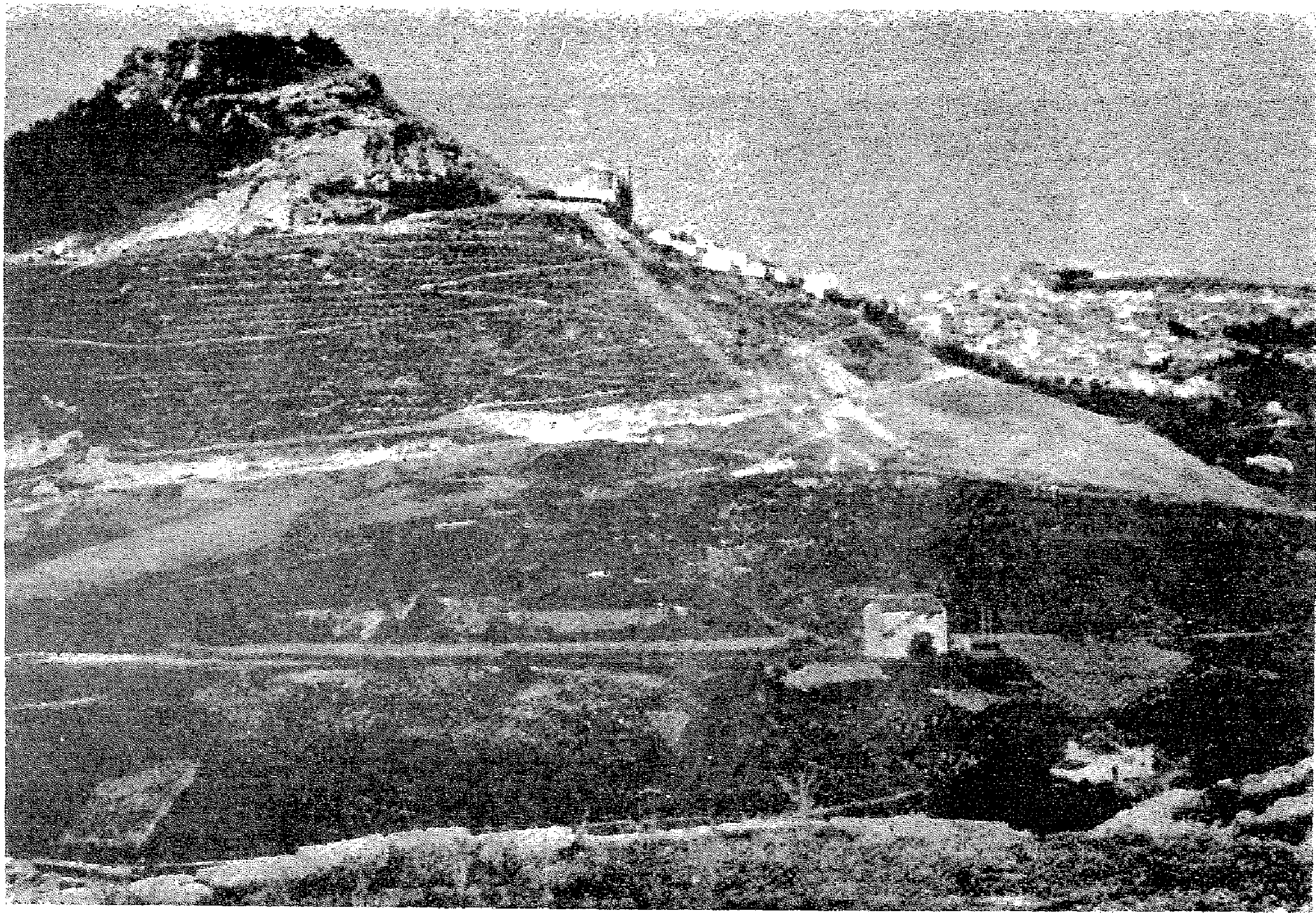
ان من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جآذرا وظباء

« ... وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلقمة ، وهي كبيرة متسعة فيها الاسواق والمساجد وسكانها وسكان الضياع التي في هذا الطريق كلهم مسلمون »

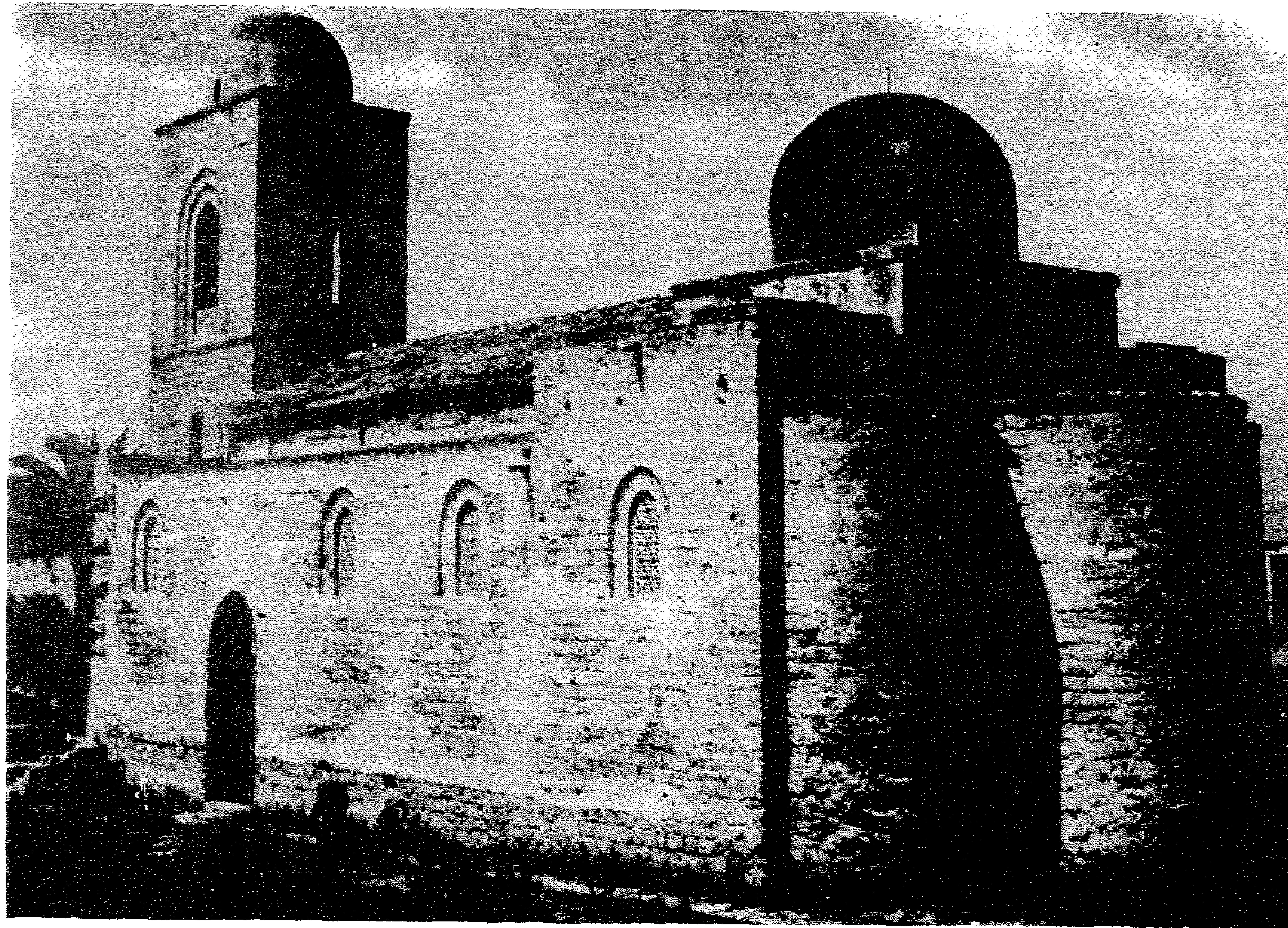
ثم حل بمدينة اطرابنش فقال :

« وكان مصلانا في هذا العيد المبارك (عيد الفطر) باحد مساجد اطرابنش المذكورة ، مع قوم من اهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر لهم ، ... وخرج اهل البلد الى مصلاهم ، مع صاحب احكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات فعجبنا من ذلك ومن اغضاء النصارى لهم عليه .

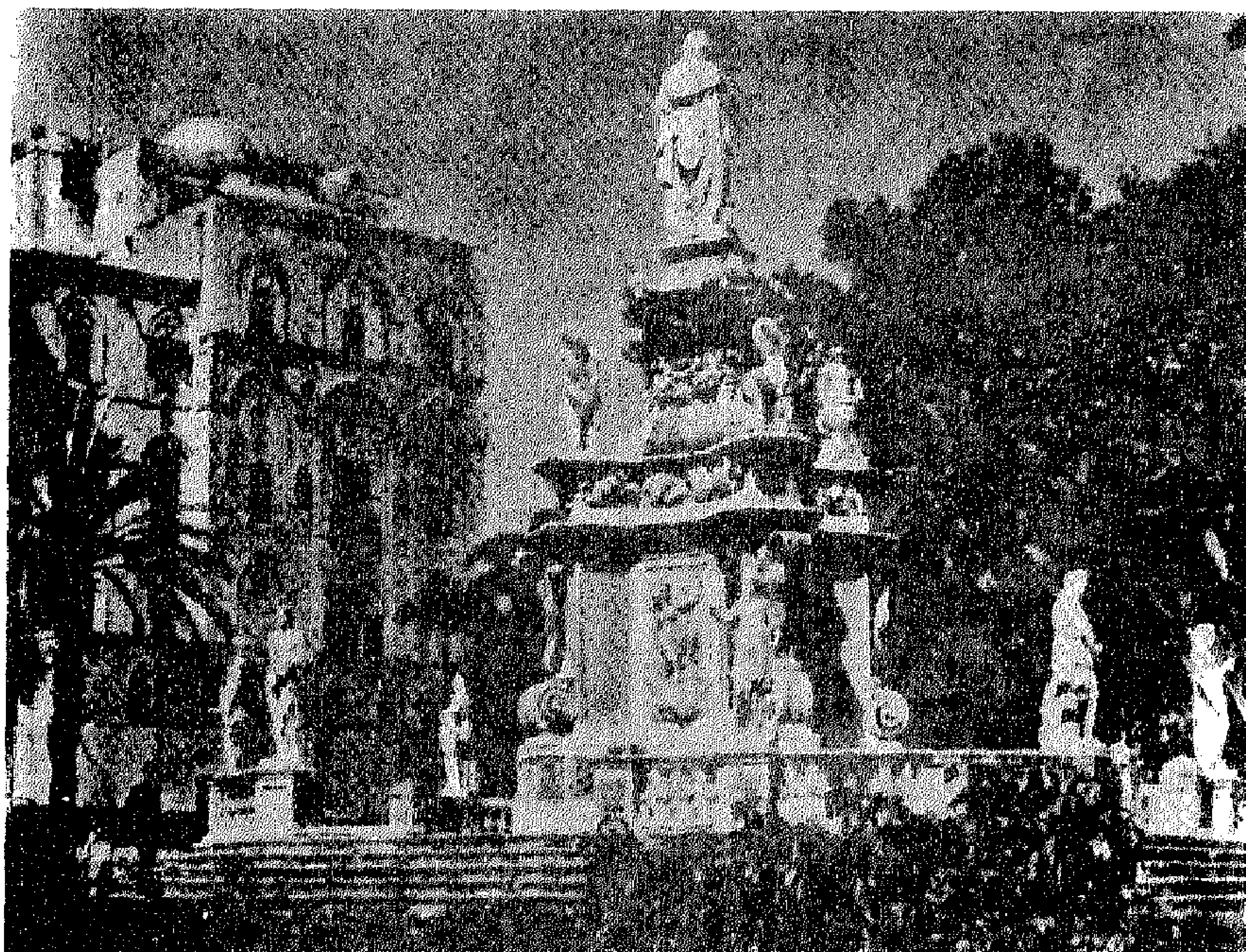
ابتداء امر الفتنة في الدين : مما يرويه ابن جبير ، بعد ان اقام مدة الشتاء



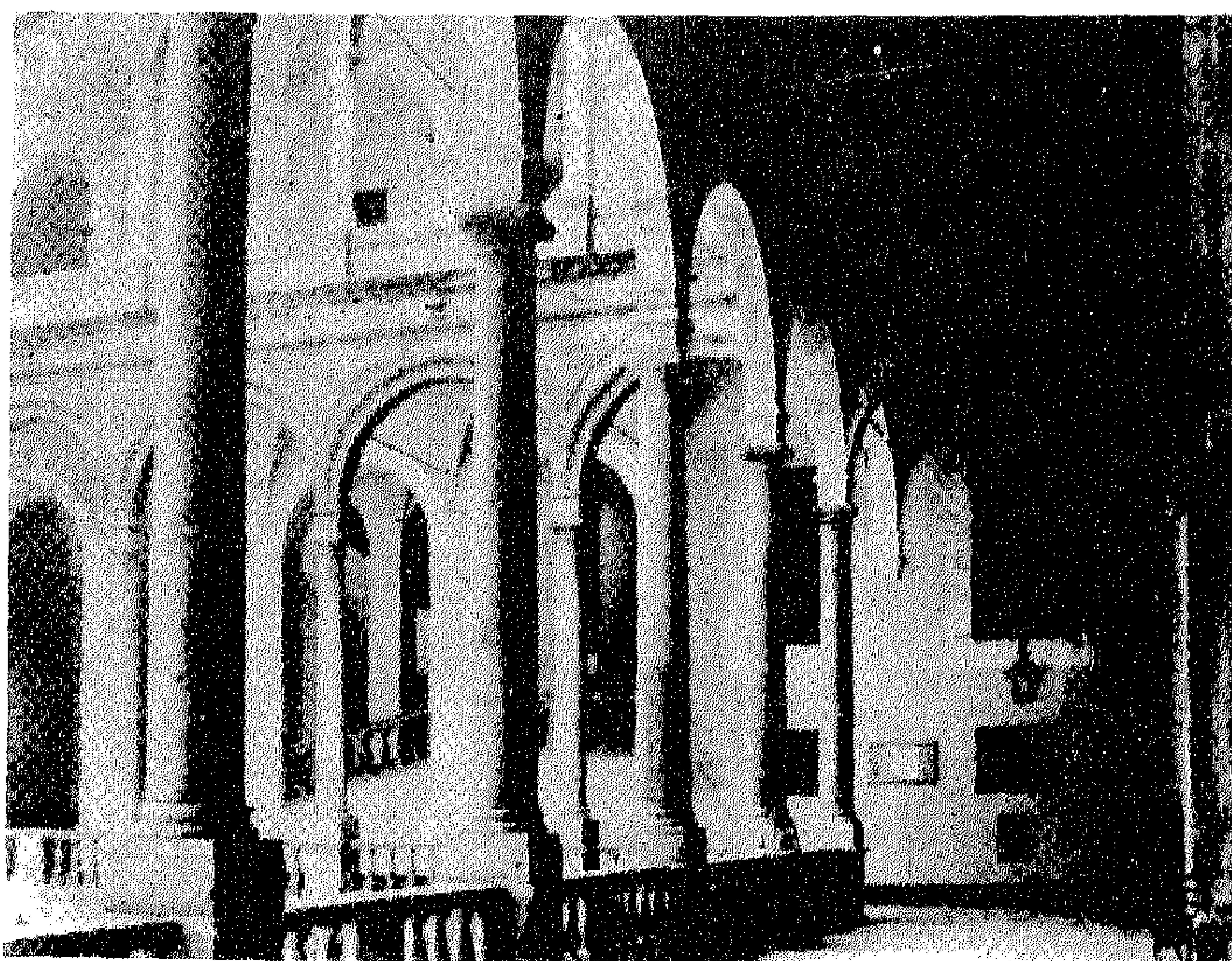
« قلعة فيمي » نموذج من القرية الصقلية الجبلية



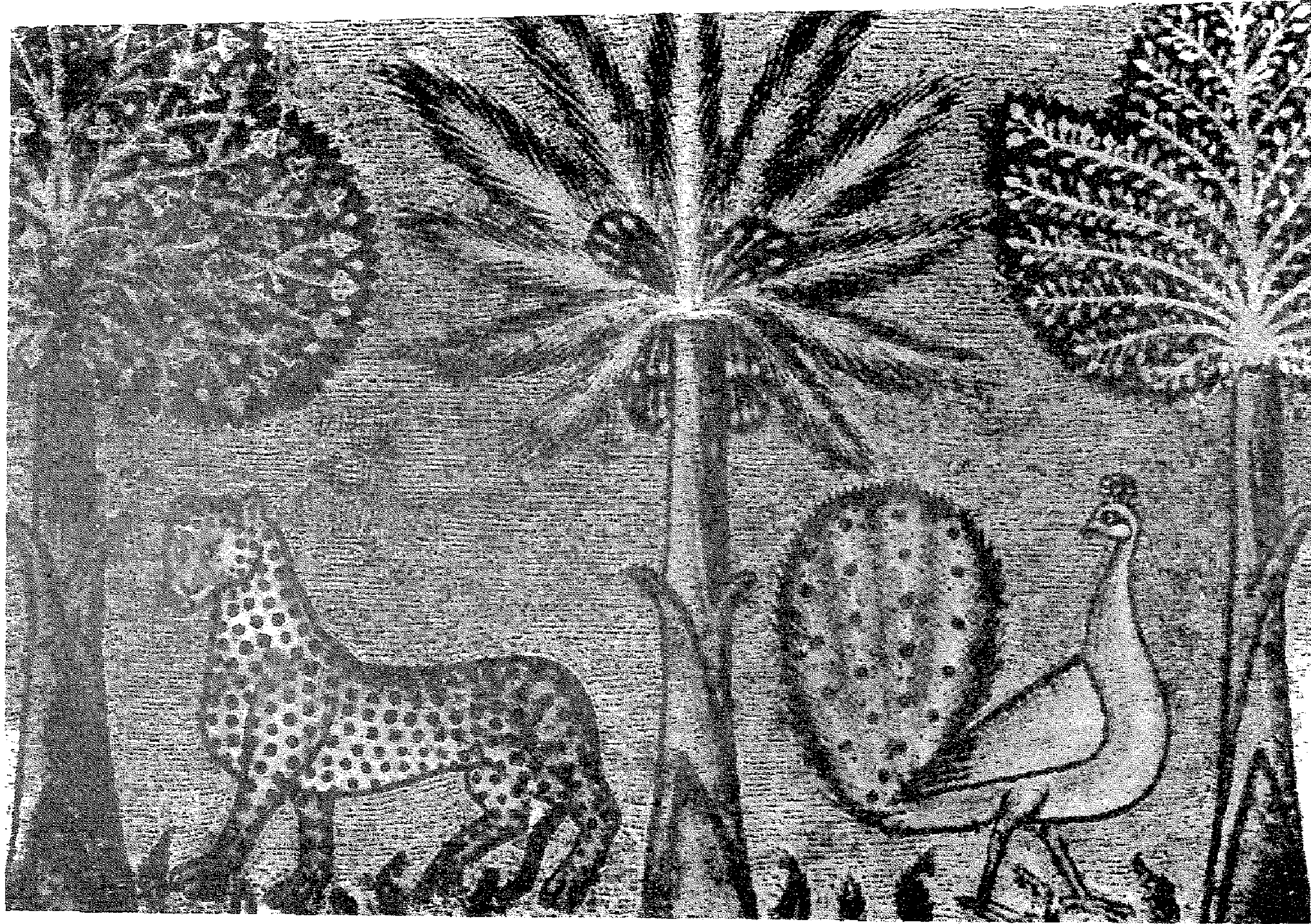
كنيسة سان جوفاني من اثار المسلمين بضواحي بالرمة



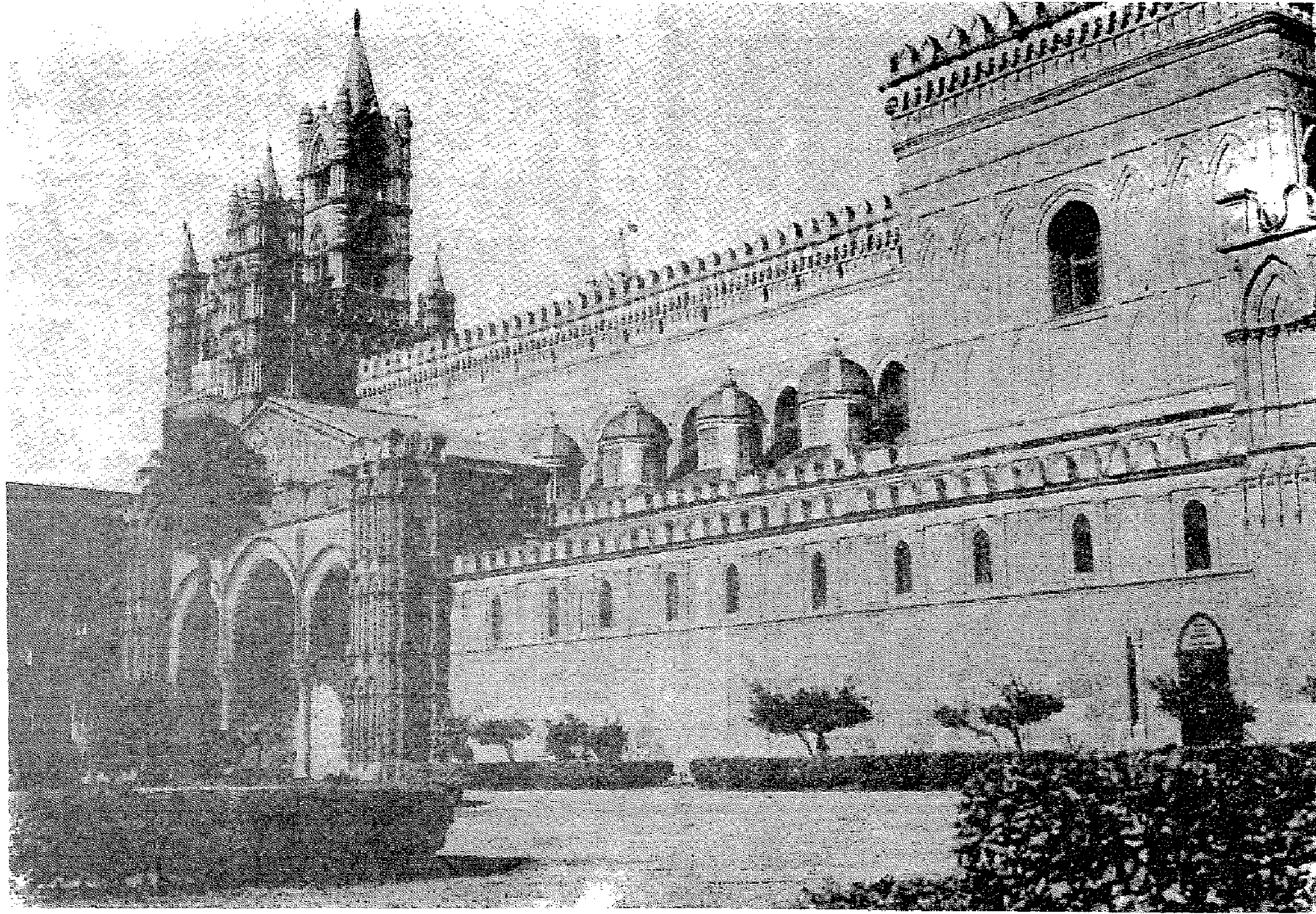
القصر الملكي بپالرمة من الخارج



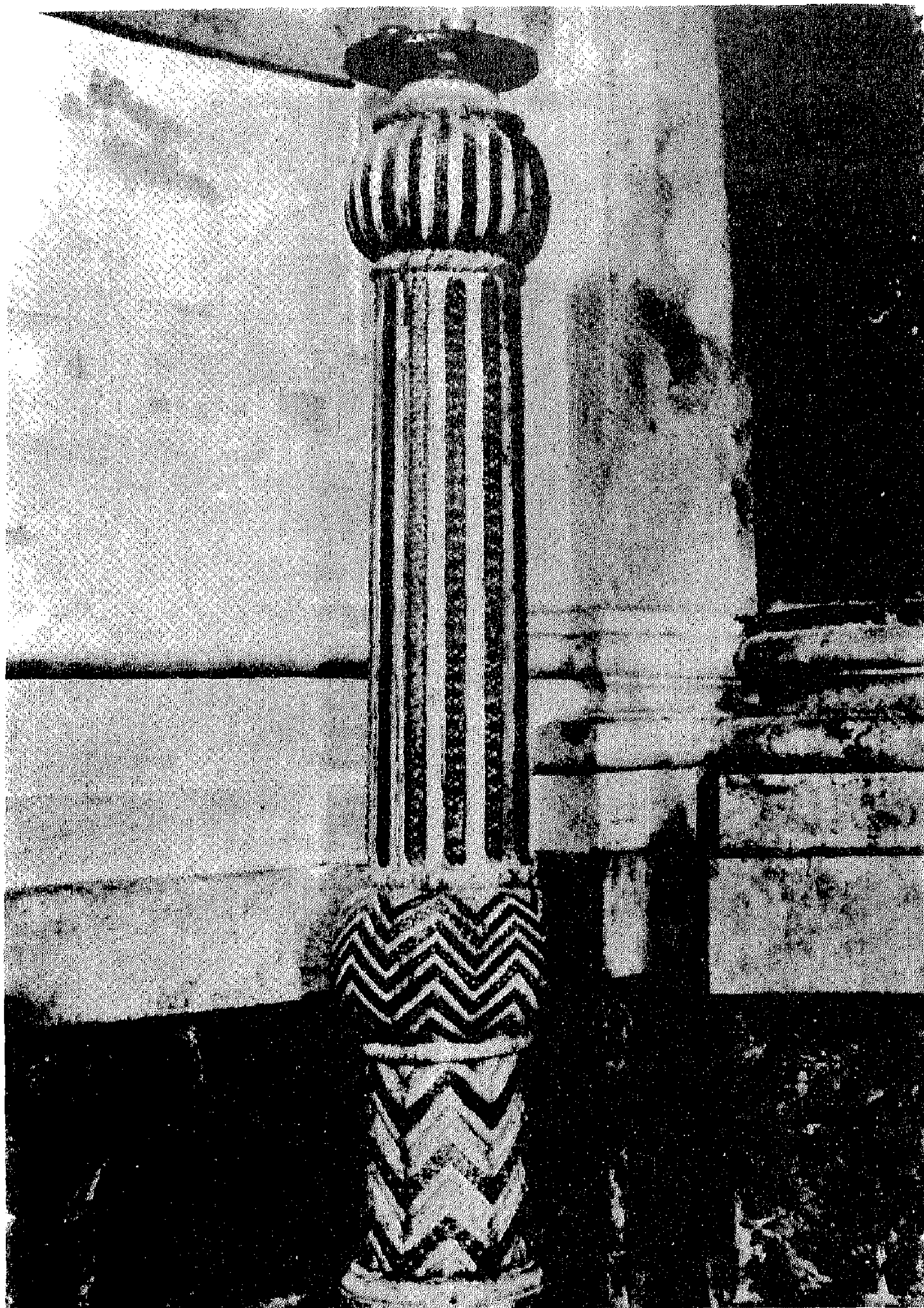
القصر الملكي بپالرمة من الداخل



القصر الملكي ببالرمة من الداخل فسيفساء في غرفة رجار الثاني



كاتدرائية بالرمة . بنى المسلمون قسمها الشرقي والاوسط



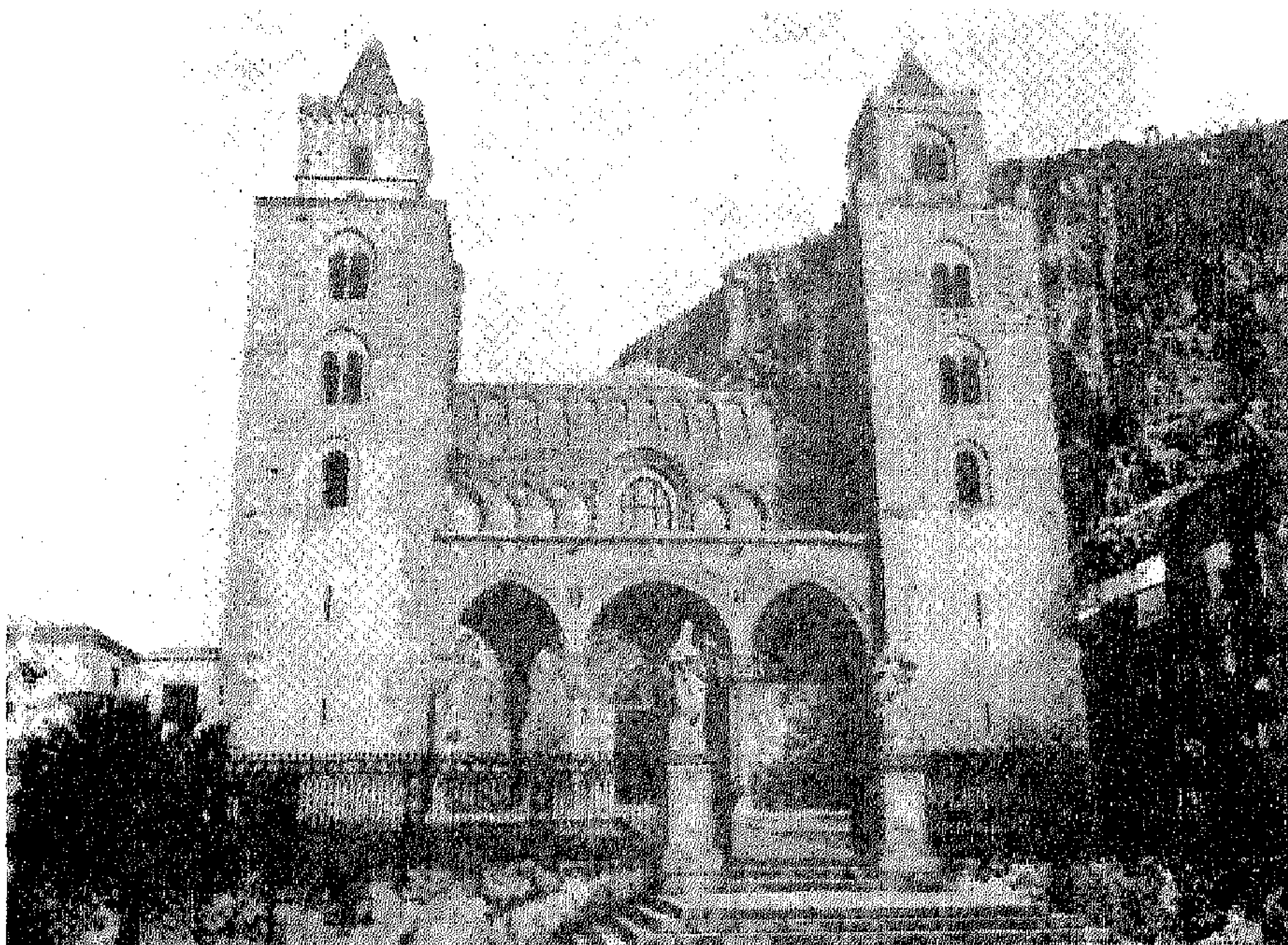
شمعدان من صنع عربي بكنيسة بالرمة



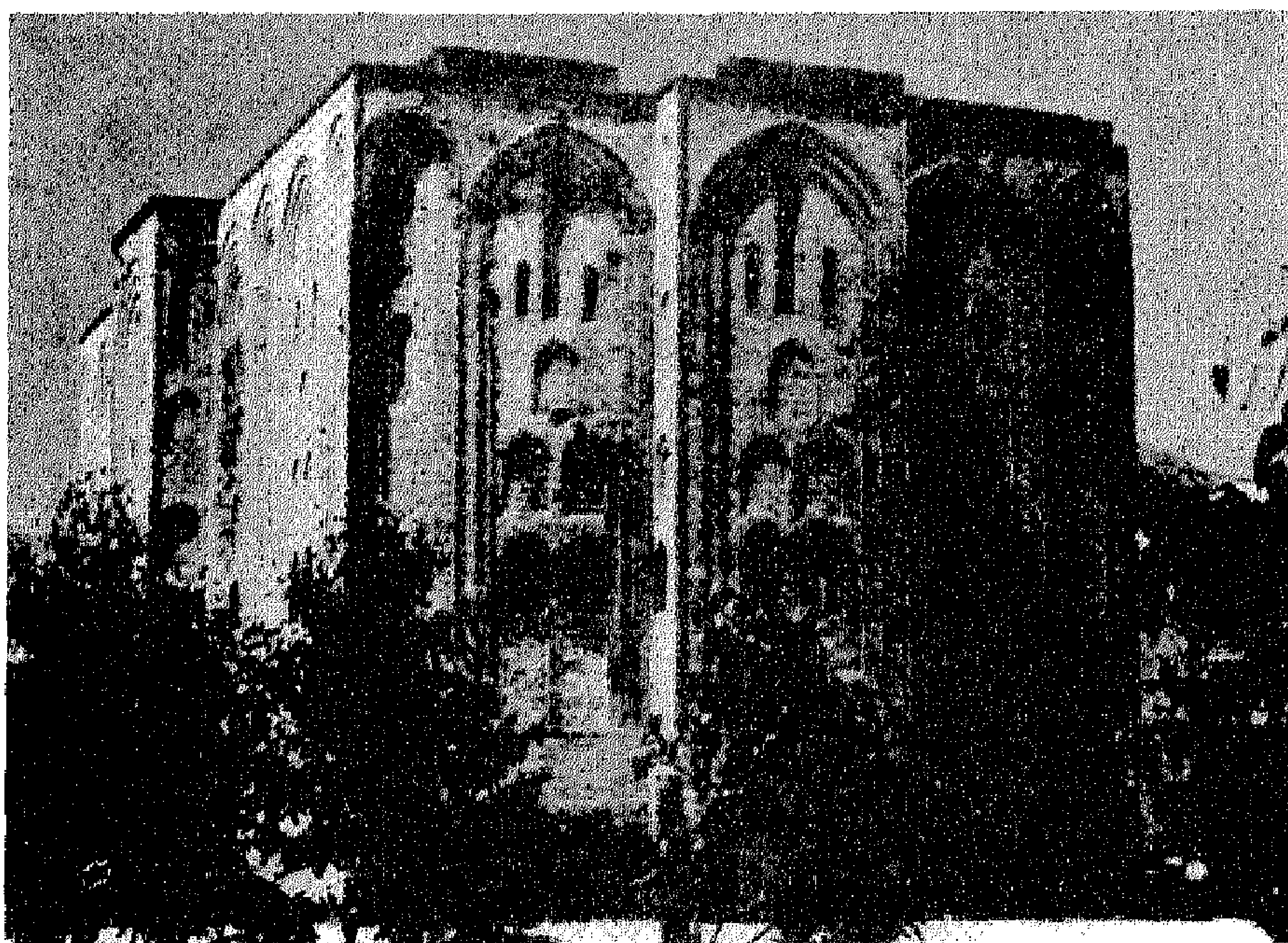
دير القديس يوحنـا



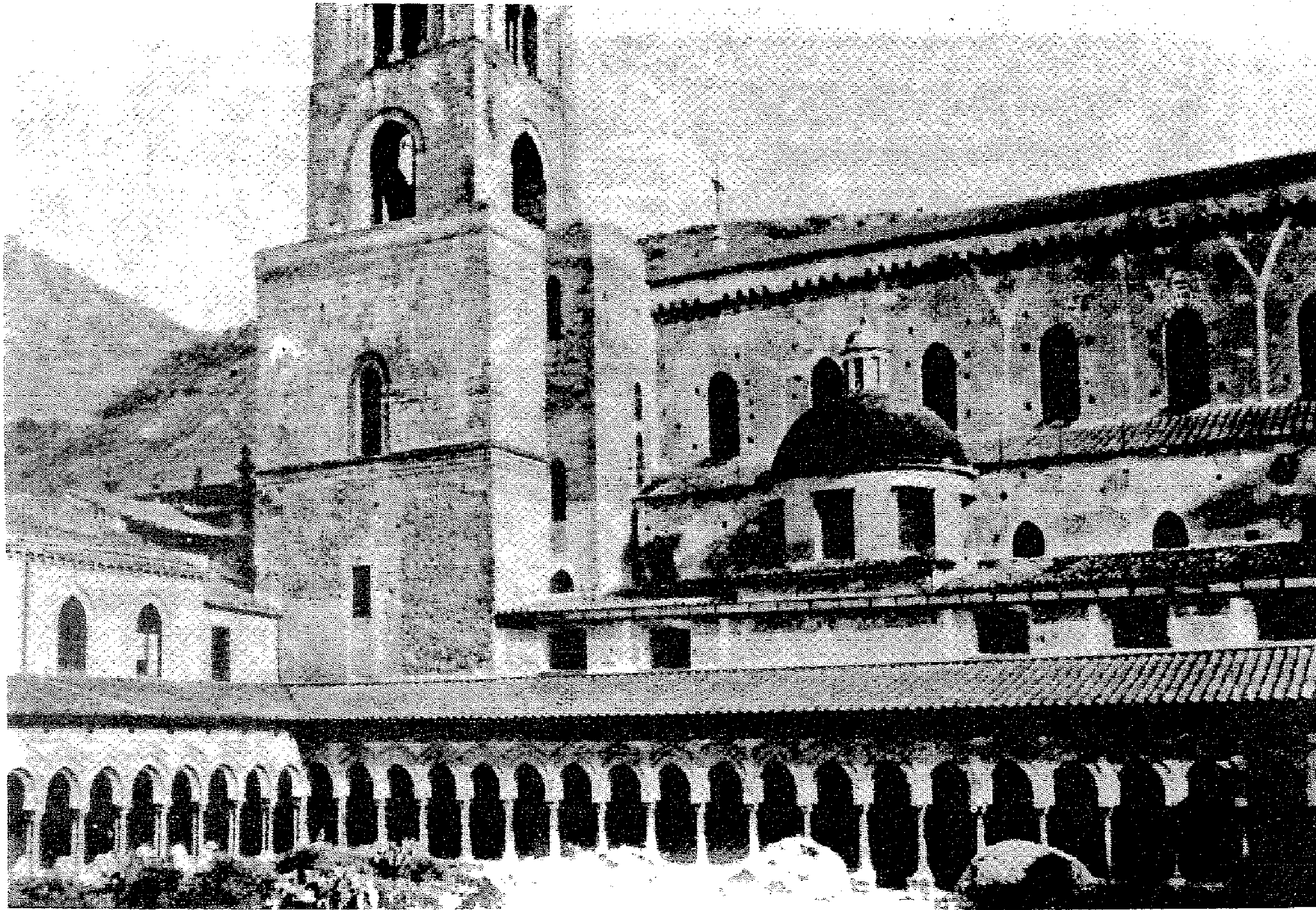
كنيسة القديس يوحنـا



كاتدرائية سيفالو



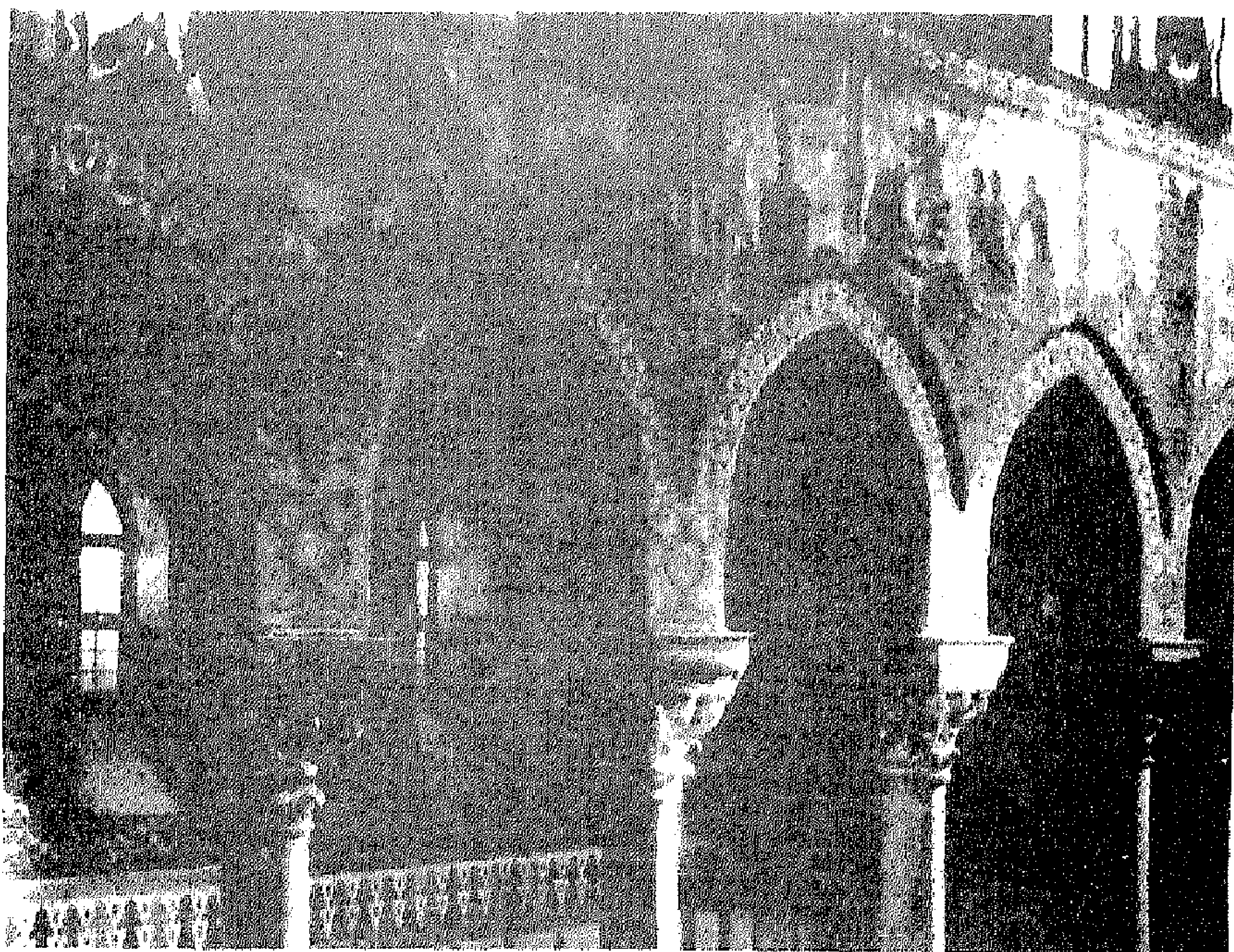
قصر القبة من آثار المسلمين بضواحي بالرمة



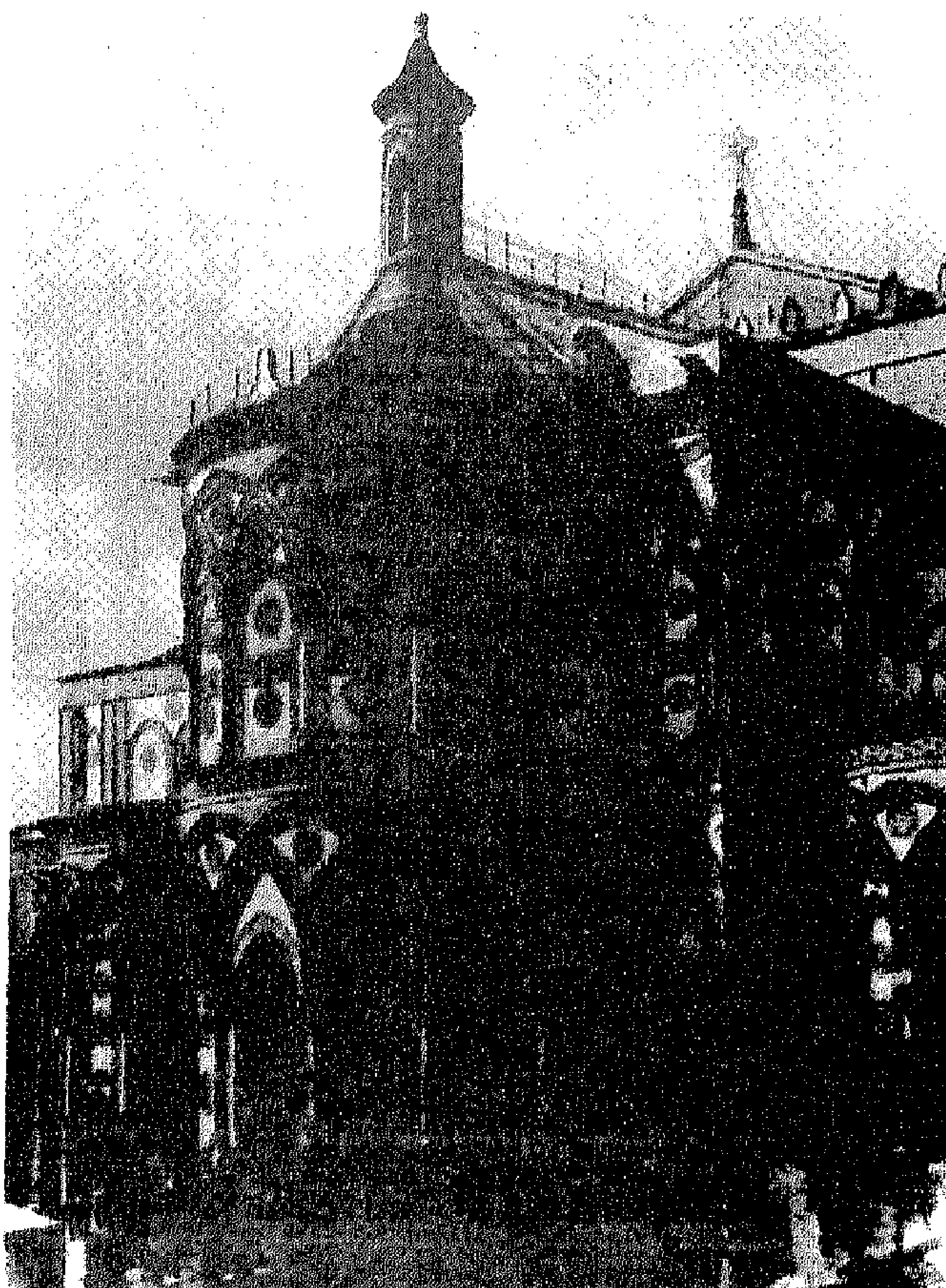
دير المـونريال

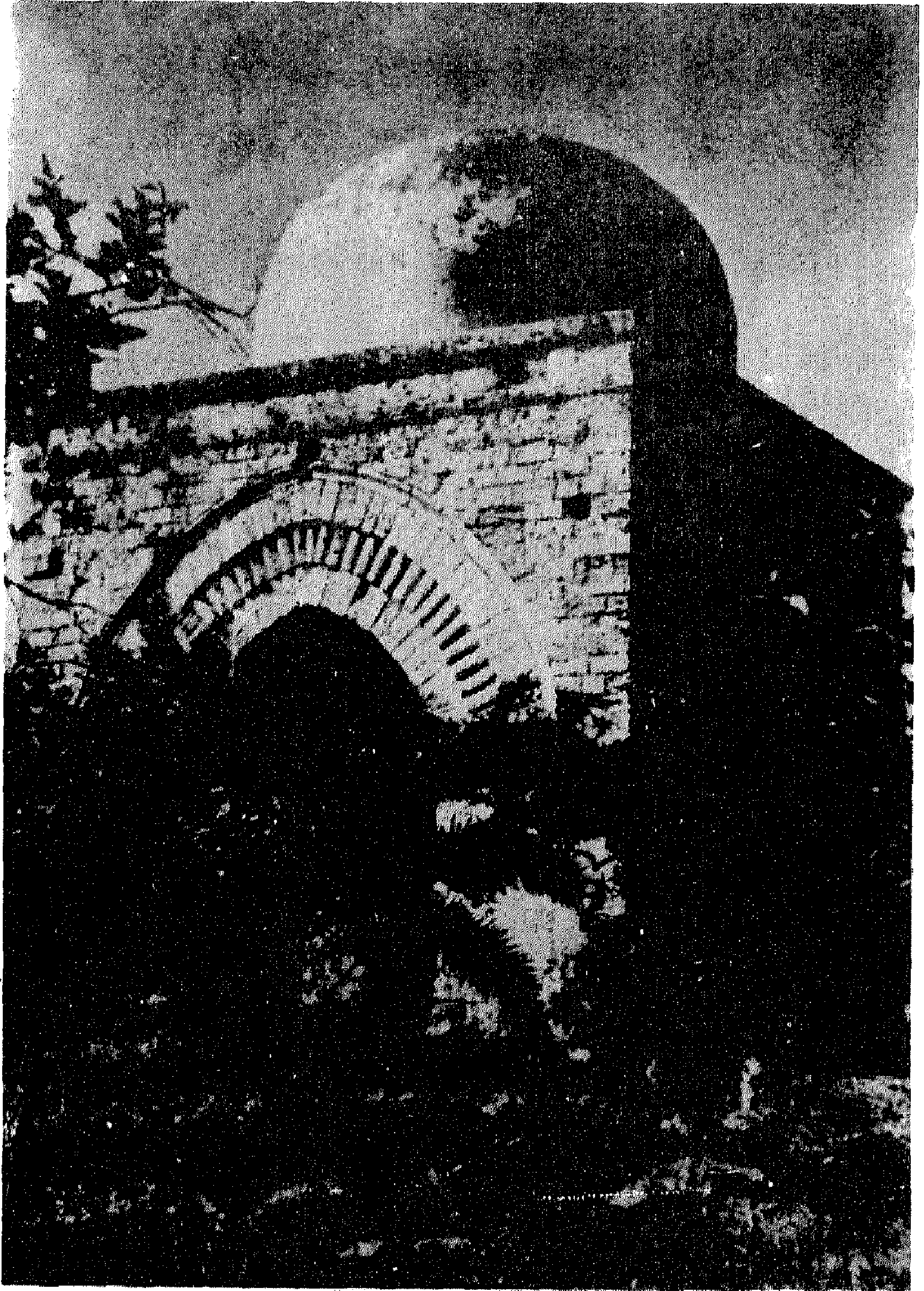


كاتدرائية المونريال

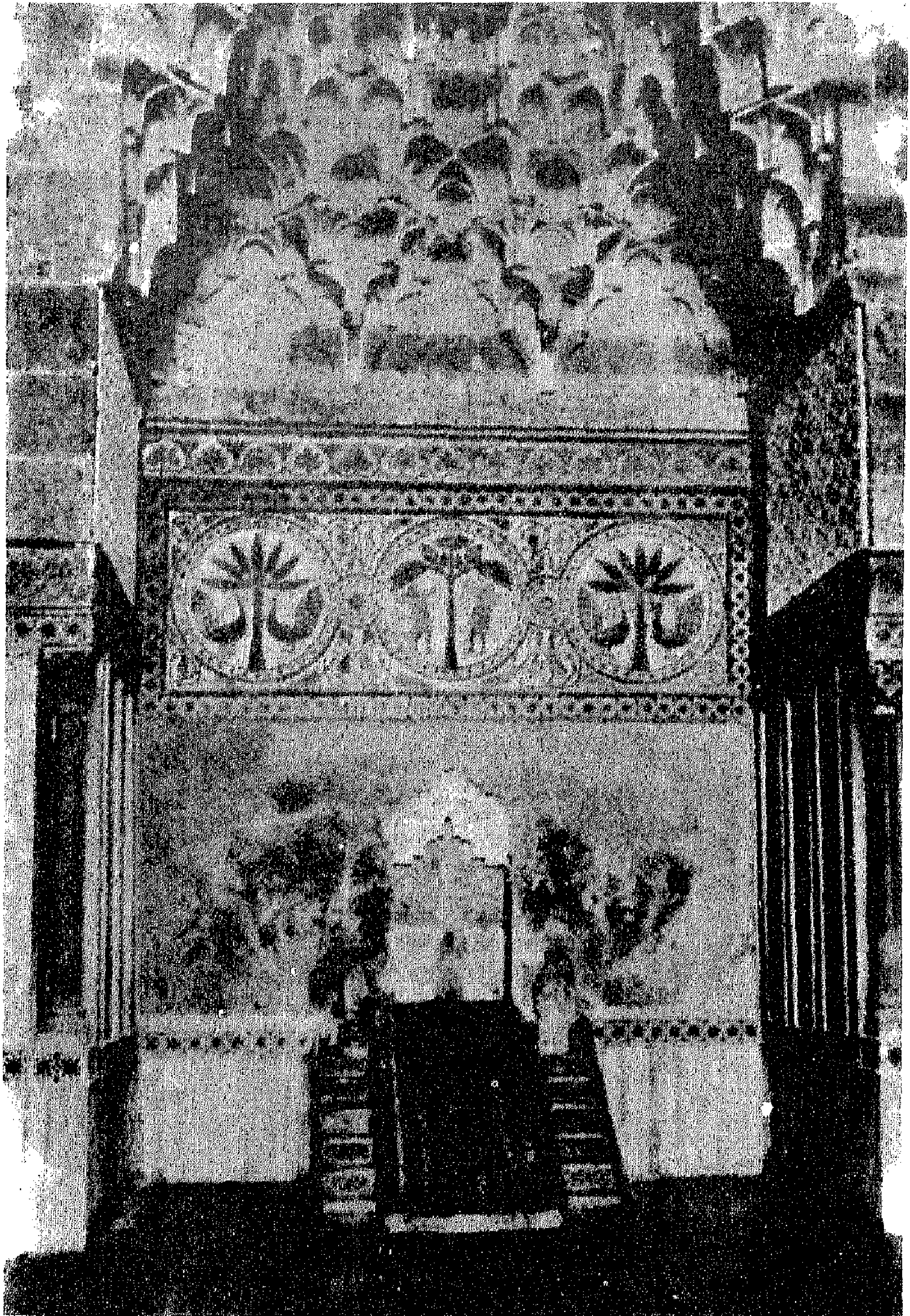


منظران لكاتدرائية مونريال

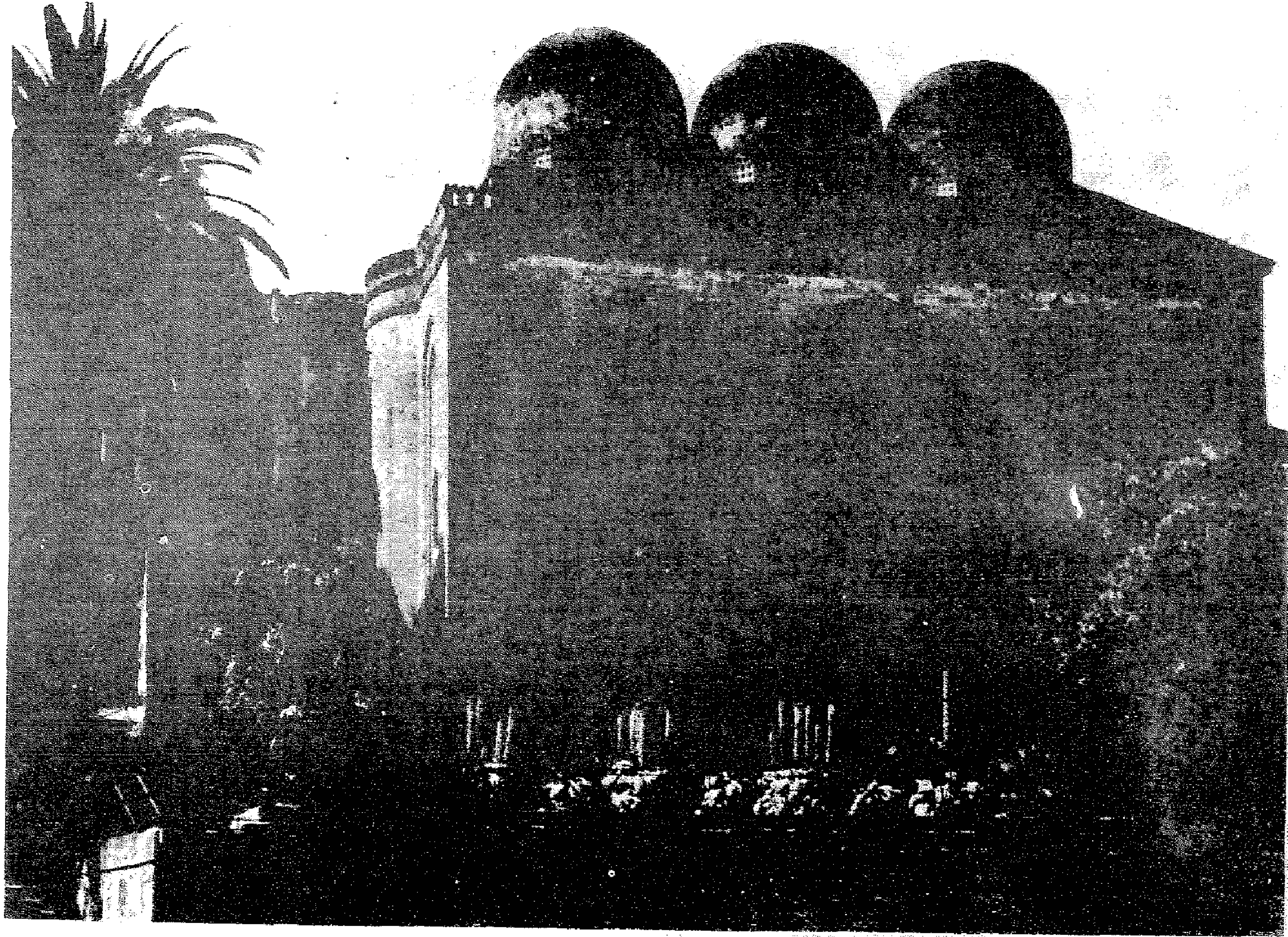




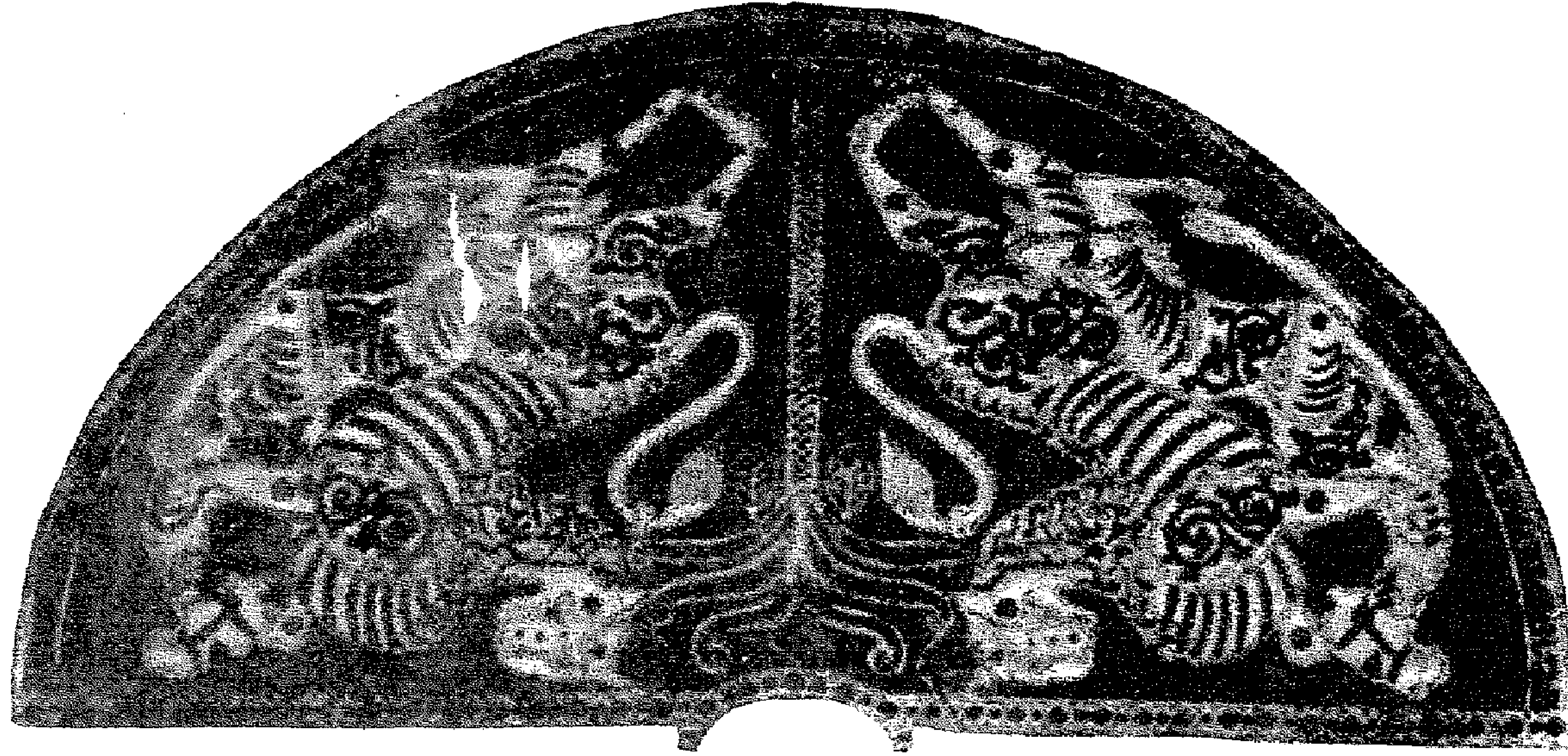
القبة الحمراء



العين الجارية بالقاعة الكبرى بقصر العزيز



كنيسة القديس كتالدو



« رداء حريري » رسم فيه نمر يفترس جملًا ، وحوله كتابة كوفية ، تشير الى انه صنع سنة ٥٢٨ هجرية للملك رجار الثاني ، وكان ملوك النرمان واباطرة الالمان بعدهم يرتدونه في حفلة التتويج وهو محفوظ بمتحف مدينة نورنبرغ وصنعه على نمط صنع « العجار التونسي »



في مدينة اطرابنش :

« تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال اهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ـ دمرهم الله ـ وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهدة الذمة وغلظه الملك الى دواعي طوارى الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من ابنائهم ونسائهم ، وربما تسبب الى بعض اشياخهم اسباب نكالية تدعوهم الى فراق دينهم .

« فمنها قصة اتفقت في هذه السنين الغريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي في حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف (الفقيه) بابن زدغة ، ضغطته بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الاحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامي ايضا فيه لما سبق من معرفته بالاحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة ومع ذلك فاعلمنا انه يكتم ايمانه .

« ومن اعظم ما منى به اهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه او على زوجه او تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه انفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد فلا يجد الاب على الابن ولا الام على البنت سبيلا ، فتخيل حال من منى بهذا في اهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ، فهم الدهر كله في مداراة الاهل والولد خوف هذه الحال ، واهل النظر في العواقب منهم يخافون ان يتفق على جميعهم ما اتفق على اهل جزيرة اقريطش من المسلمين في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد حال ،حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته .

زعيم المسلمين ابن حمود : قال ابن جبير : « وصل هذه الايام الى هذه المدينة زعيم اهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد ابو القاسم ابن حمود المعروف بابن حجر ، وهذا الرجل من اهل بيت بهذه الجزيرة ، توارثوا السيادة

كابرا عن كابر ، وقرر لدينا مع ذلك انه من اهل العمل الصالح مريد للخير محب لاهله كثير الصنائع الاخراوية ، من افتكاك الاسارى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة ، فارتجت هذه المدينة لوصوله .

وكان في هذه المدة تحت هجران من الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه من اعدائه ، افتروا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين ايدهم الله ، كادت تقضي عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفا على الثلاثين الف دينار ، مؤمنية ، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره واملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي بدون مال .

« فاتفق في هذه الايام رضى الطاغية عنه وامره بالنفوذ لمهم من اشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله وصدرت عنه عند وصوله الى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا فاجتمعنا به ، فاظهر لنا من باطن حاله وبواطن احوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يبكي العيون دما ويذيب الما ، فمن ذلك انه قال : كنت اود لو اباع انا واهل بيتي فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدي بنا الى الحصول في بلاد المسلمين ومن عظم هذا الرجل المحمود المذكور في نفوس النصارى انهم يزعمون انه لو تنصر لما بقي في الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اقتداء به » .

حادث لـه مغزاه الاليم ـ وآخر ما نرويه عن ابن جبير ، هذه الحادثة الغريبة التي تملؤ النفوس لوعة واسى وتدل دلالة قوية على ان مقام المسلمين بصقلية رغم مظاهر التسامح الديني الاخيرة ، كان مقاما قد قصر امده وانتهت مدته :

« ومن اعجب ما شاهدناه من احوالهم التي تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رافة وحنانا ، ان احد اعيان هذه البلدة وجه ابنه الى احد اصحابنا الحجاج راغبا في ان يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها ممن رضي لها من اهل بلده ويخرجها مع

نفسه راضية بفراق ابيها واخوتها ، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين ، فطاب الابن والاخوة نفسا بذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين ، بانفسهم اذا زالت هذه العلقة المقيدة عنهم.

« فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة ؛ وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها ؛ كما استغربنا حال الصبية صانها الله ، ورضاها بفراق اهلها رغبة في الاسلام ؛ واستمساكا بعروته الوثقى » .

فريدريك الثاني

امبراطور المانيا وملك صقلية

كان الامر قد استتب للالمانيين بصقلية وربوع ايطاليا ؛ واحتضنت البابوية تلك الامبراطورية الجرمانية وشملتها بالرعاية مستفيدة من قوتها المادية لبسط سلطانها الروحى ؛ كما استفاد الالمانيون من ذلك النفوذ الروحى لتقوية سلطانهم المادى . ولقد ظهرت آثار ذلك التعاون جلية اثناء الحروب الصليبية التى كانت متقدة الاوار بالبلاد الشامية ، وكانت البابوية تذكى الحمية فى نفوس الملوك والاباطرة والامراء باروبا وتبعث منهم الفوج اثر الفوج للجهاد فى سبيل الصليب .

فى تلك الاثناء ، فى مفتتح القرن الثالث عشر المسيحى ، تألق فى السماء الاروبية نجم جديد هو نجم الأمبراطور الشاب فريدريك الثانى ، الذى ترعرع تحت رعاية البابا انوسانت الثالث ، الذى كان يطمع فى ادارة الدنيا واخضاعها لسلطانه ، فلما مات ذلك البابا سنة ١٢١٦ ، عندما كان يتفقد التجهيزات النهائية للحملة الصليبية استقل فريدريك بامور نفسه متخلصا من كل نفوذ .

نشأ فريدريك نشأة صقلية عربية ، اذ كانت امه كنستنسا صقلية النشأة

والمسكن ، فتربى هنالك فى وسط راق ، رقيق الحاشية جمع الى مدنية المسلمين وحضارتهم رقة الآداب الاغريقية وعلومهم ؛ فلما استقل بامور الملك حين ترشد اتخذ من بالرمة مقرا لسلطانه ، وسار على غرار ملوك النرمان السالفين ومن سبقهم من ملوك وامراء المسلمين •

اقرار المسلمين بالجنوب الايطالي ـ انتهى عهد ملوك النرمان بصقلية بعد سلطان دام مائة عام ، وانتهى معه كما اسلفنا عهد راحة المسلمين وحريتهم • وابتدأت اعمال الاضطهاد والتنكيل تحت تأثير الكنيسة ، وتحت مفعول الحرب الصليبية ، تظهر نتائجها فجمع المسمون امرهم عندما تولى البابا انوسانت الثالث الوصاية على فريدريك الصبى ، وخلعوا طاعة الجرمانيين ، واعلنوا الثورة لكن الجنود المسيحية غلبتهم على امرهم سنة ١٢٠٠ فسكنوا حينا ثم عادوا للعصيان والثورة فرارا من الفتنة فى الدين فكان على الامبراطور فريدريك اخضاعهم فيما بين سنتين ١٢٢١ و ١٢٢٥ ، فكانت ثوراتهم اشبه شيىء بثورات بقايا مسلمي اسبانيا « الموريسك » الذين تظاهروا بالتنصر واخفوا الايمان ، خلال كامل القرن السادس عشر (١) •

لكنه فكر فى وسيلة تمكنه فى آن واحد من التخلص من اولئك الرجال الاشداء فى صقلية ، واستعمال قوة سواعدهم وصلابة سيوفهم لتمكين سلطانه وقهر اعدائه بالبلاد الطليانية ، لانهم يحاربون غير متأثرين بالفكرة المسيحية ، وهكذا اخذ ينقل للبلاد الطليانية جموعا كثيرة من المسلمين اسكنهم اول الامر مدينة لصيرة ، ثم نصيرة (انظر الخريطة) وقد بلغ عدد المسلمين والمسلمات هنالك (٦٠) الف نسمة منهم الثلث من رجال السيف والطعان ولقد احدث هذا العمل رجة فى العالم المسيحى وكان من جملة الاسباب التى حملت البابا على اعلان (كفر) فريدريك لانه استعمل المسلمين لقتال المسيحيين بينما الكنيسة تعمل على جمع كلمة المسيحيين لقتال المسلمين شرقا وغربا •

لقد سار فريدريك اول مرة لبلاد فلسطين مشاركا فى الحرب الصليبية استرضاء للمسيحيين ؛ لكن البابا اغتنم فرصة ابتعاد الملك الامبراطور لايقاد

نيران الفتن في بلاده ودفع امراء الطليان لرفع لواء العصيان فكان جنود فريدريك الصقليون ومسلموا نصيرة ينكلون بالثائرين ويخضعونهم ٠

تاسيس المملكة ـ رجع فريدريك من فلسطين واعلن سنة ١٢٣١ تاسيس مملكة صقلية وقد كان متشبعا بالنظم الشرقية الاسلامية ؛ وكانه ذهب لبلاد الشرق الادنى ليدرس النظم الاجتماعية والادارية لا ليحارب المسلمين ؛ فرتب يومئذ امور الدولة ترتيبا اجمع المؤرخون على انه كان حجرة الاساس فى تكوين الدول الحديثة ، واسس الدواوين المختصة ، وفصل بين السلط القضائية والمالية والتشريعية التى كانت من خصائص الملك وحده فيما سلف ٠ وقضى على سلطة الكهنوت بصفة جعلت البابا غريغريوس التاسع يعلن ان الملحد فريدريك « محارب للكنيسة متلف للحريات العامة » والحريات العامة فى نظر البابا هى حرية رجال الدين خاصة ٠

البــلاط ـ فى القصر الملكى ببالرمة (انظر رسمه فى القسم المصور) اعاد الملك رونق وبهاء بلاط ملوك النرمان والمسلمين ؛ وجمع حوله فى تناسق غريب جملة من جلة علماء المسلمين والاغريق واللاتينيين ؛ ولقد كان الملك يحسن التكلم بالالسن العربية والالمانية والطليانية والاغريقية والفرنسية ؛ وكان متبحرا فى علم الحيوان والنبات وقد اخذ معه من بلاد الشرق طائفة من غريب الحيوان شكل منها « متحفا » كان ينقله معه اثناء حروبه بايطاليا ٠

واذ كانت العلوم قد تضاءلت فى صقلية وجنوب ايطاليا ، فان الملك فريدريك اسس جامعة « نابولى » التى كانت اولى الجامعات الحديثة من نوعها وقد جاء فى مرسوم تاسيسها : « ان جميع معلومات الانسان يجب ان تدرس بنابولى ، لكى يجد كل جائع للعلم الغذاء الذى تميل نفسه اليه حتى لا يكون مضطرا للهجرة فى سبيل المعرفة واستعطاف الاجانب من اجل العلم ٠»

وبما ان « جامعة سالرنة » الطبية كانت ذات شهرة واسعة تدرس على

---

(١) انظر كتابنا « تاريخ الحروب الجزائرية الاسبانية ١٤٩٢ ـ ١٧٩٣ »

الطريقة التى اختطها العلامة التونسى الصقلى (قسطنطين) (١) اعلن الملك فريدريك انه لا يجوز لانسان ان يباشر مهنة التطبيب ما لم يكن متحصلا على اجا(ة تلك الجامعة .

الافكار الدينية ـ كان الامبراطور الملك على صلة متواصلة مع العلماء المسلمين شرقا وغربا ؛ وكان يستدعي لبلاطه علماء الاندلس وافريقيا ، ويجادلهم في علوم الكلام ومسألة الارواح وخلود النفس ما الى ذلك مما هو مرسوم بكتاب يدعى « المسائل الصقلية » (٢) كتبت نسخته الاصلية باللغة العربية ؛ وكان حافظا لفلسفة ابن رشد ناشر لها ومدافعا عنها .

ولقد كانت الحياة تلذ له في مدينة نصيرة بين الجماعة الاسلامية التى استعمر بها تلك الناحية ، وهنالك كان له قصر شرقى وخدم وحواشى وجوارى حسان وهنالك كان يحيا حياة سلطان من سلاطين المسلمين .

ولم تكن فكرته الدينية مستقيمة على الوتر المسيحى ، فلقد كتب البابا غريغوريوس التاسع منشورا لرجال الكنيسة يعلن فيها كفر الملك ويقول « نستطيع ان نثبت ان هذا الملك الفاجر يصرح علنا بان العالم قد غلطه ثلاثة من الادعياء هم : موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وانه بينما قد مات موسى ومحمد في عنفوان المجد والشرف ، مات عيسى موتة حقيرة وهو معلق على صليب خشبي ؛ ثم يقول ان العقل البشرى لا يتصور ان امرأة عذراء تلد الاها ، ويجاهر امام الناس انه لا يمكن لأنسان ان يعتقد الا مايقبله العقل ويقوم الدليل على صحته وتشهد الوقائع على ثبوته » .

ولقد كان فريدريك شديد النقمة على الرهبان ، وشديد القسوة على رجال

---

(١) انظر ترجمته وآثاره فيما بعد .

(٢) هى جواب الصوفي الاندلسى عبد الحق ابن سبعين ، احد اقطاب فلسفة « وحدة الوجود » (Le Pantheisme) عن اسئلة الامبراطور افريدريك حول : قول ارسطو بقدم العالم . والعلم الألهى . والمقولات العشر . وبقاء النفس البشرية بعد الموت . ومن اشهر كتبه « كتاب الالواح » وفيه بيان كامل لفلسفة وحدة الوجود .

الكنيسة ، ويقول ان عيسى كان فقيرا يحب الفقراء ، فما للرهبان ورجال الكهنوت يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى الترف والنعيم ؟

ولقد كتب مرة رسالة لامبراطور الروم فاتاتزيس Vatatzes يقول فيها : « يا لسعادة آسيا ! ويا لسعادة بلاد الشرق ، هنالك لا يخشى الملوك ثورة شعوبهم ، ولا دسائس رجال الدين حواليهم ».

فى الحرب الصليبية – كان البابا يستثير العامة ، ورجال الدين ، واوروبا كلها ، ضد فريدريك ، فاضطر هذا للعودة تخفيفا لتلك الغائلة ، للميدان الشرقى والحرب الصليبية ؛ فارسل الحملة تحت قيادة احد رجاله ، وكانت نتيجتها ان استولى المسلمون على دمياط (سنة ١٢٢١) فاشتدت نقمة المسيحيين على الملك ، واضطر للسفر بنفسه سنة ١٢٢٨ ، لكنه لم يعمل هنالك اعمال صليبى محارب ، بل اخذ يختلط برجال المسلمين وكبرائهم ، ويربط صلات الود والادب والعلم معهم ، فكانت الوقائع الحربية فاترة من الجهتين ، انتهت بعقدة معاهدة مع سلطان مصر الملك الكامل الايوبى ، نال بها المسيحيون صلحا بيت المقدس وبيت لحم والناصر ، فلم تشبع تلك الحملة نهم البابوية ورجال التعصب ، وصدر الحكم « بكفر » الامبراطور الملك فريدريك .

لكن الامبراطور راى انه لا تمكن له مقاومة الكنيسة بصفة علنية ، وانه لا يستطيع الحكم ورجال الدين على الاطلاق وشعبه ضده ، فاخذ يعمل لنيل رضا البابا ، حتى نال الغفران ، ووقع نشر البلاغين التاليين ؛ الدبلوماسيين ... :

يقول البابا فى منشورة « لقد جاءنى الامبراطور وبين جنبيه نفس مؤمنة مطمئنة ، ورايت انه على استعداد ليقوم باى عمل فى سبيل منشآتنا وتحقيق غاياتنا .»

ويقول الامبراطور فى منشوره : « لقد خاطبنى البابا بقلب مفتوح ، وهدأ ثائرة نفسى ، فلا اريد ان اتذكر شيئا من الماضى .»

هنالك ثارت ثورة التعصب الكنيسى ؛ واسترجع رجال الكهنوت نفوذهم وسلطانهم ، وقاموا برد الفعل فاخذوا يمعنون فى تتبع « الكفار » والتنكيل بهم ، واحراقهم ، ونال المسلمون من ذلك جانبا عظيما ٠

اخراج آخر المسلمين من صقلية — اصبح المسلمون يغادرون الجزيرة حماعات وافرادا ، كلما وجدوا للخروج سبيلا ، فلم يبق منهم هنالك الا الاقل يعيشون فى ذل ومسكنة ٠

لما تفاقم امر ذلك ، وكانت دولة الموحدين العلية قد تركت فى بلاد تونس وشرق الجزائر ، ثمرتها الطيبة ، دولة بنى حفص ، عقد السلطان ابو زكريا بن ابى محمد عهدا مع الامبراطور ، يضمن للمسلمين فى بالرمة وضواحيها حرية دينهم وذواتهم واملاكهم ، وان يكونوا شركاء النصارى فى البلاد والضاحية ؛ وبقى المسلمون آخر ايامهم هنالك متمتعين بتلك العناية الحفصية الغالية :

عندما لبى ابو زكريا داعى ربه فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ (١٢٤٩ م) وبلغ نصارى صقلية موت السلطان المسلم العظيم ؛ بادروا بنقض ذلك العهد ، ولجوا فى طغيانهم ضد المسلمين وتكالبوا عليهم ، فلجأت بقايا المسلمين هنالك للحصون والاوعار ؛ ونصبوا عليهم زعيما عربيا من بنى عبس ؛ فصمد اليهم النصارى وحاصروهم وضيقوا عليهم حتى استسلموا ، فاركبهم الملك البحر (١)واجتاز بهم الى الارض الافريقية ، وعرج النصارى كذلك على جزيرة مالطة ، فاخرجوا منها فى تلك السنة سائر من كان قد بقى بها من المسلمين ؛ واحلوهم البلاد الافريقية كذلك ؛ وانقطعت يومئذ آخر كلمة للاسلام بهاتيك الديار ، والملك لله الواحد القهار (٢) ٠

موت الملك واستشهاد مسلمى نصيرة ـ سلك الملك منذ تلك الساعة سياسة اوربية مسيحية بحتة ٠ وتمكن بواسطة البابا من تدعيم سلطانه وبث نفوذه واخضاع الامراء لسلطته ٠ الى ان حانت ساعة وفاته وقد كان يحن

لشرقيته القديمة وتلذ له السكنى فى قصره بين مسلمى نصيرة وهناك مات ودفن وله ضريح ضخم ، نقشت عليه كتابات عربية بديعة ٠

فلما تولى الملك شارل دانجو الفرنسى ، عمد الى التخلص من جموع المسلمين فى نصيرة فاركب الكثير منهم الى افريقيا سنة ١٢٩٢ بعد ان اقاموا هنالك وازدهر استعمارهم ٦٧ سنة ٠ ولقد بقيت منهم بقية من المستضعفين بتلك البلاد ، راى الملك شارل التخلص منهم دفعة واحدة فاطلق عليهم وحوش جنده سنة ١٣٠٠ (٧٠٠ هـ) فقتلوهم ومحقوا رسمهم من الوجود ، ووزع ارضهم واملاكهم ومتاعهم على العائلات الطليانية وهكذا انتهى امر الاسلام بايطاليا بعد ما انتهى من صقلية ٠

---

(١) لاحظ ما فى اركابهم البحر وعدم الفتك بهم بعد تلك الثورة من عاطفة انسانية غريبة الوقوع فى تلك العصور المظلمة ٠

(٢) فيكون المسلمون قد بقوا بصقلية ، حاكمين ومحكومين ، مدة ٤٢٣ سنة (٨٢٧ - ١٢٥٠)

القسم الثامن

التمدن والعمران

شهد المؤرخون كافة ان ايام المسلمين بصقلية سواء حاكمين او محكومين، كانت ازهر ايام الجزيرة واكثرها امنا واوسعها عمرانا ·

ولا نستطيع مهما اوتينا من مقدرة وبيان ، ان نلخص مدنية المسلمين فى الجزيرة الصلية ونجمل وصفهـا بمثل ما لخصها واجمل وصفها اجمالا بديعـا المؤرخ الاكبر النزيه قوسطاف لوبـون ، فى كتابه مدنيات العرب ؛ فلا نـرى اوفق من تعريب الفصل برمته ، اذ هو الصورة الصادقة لمدينة المسلمين هنالك ، صورة لـم تكد تترك شاردة ولا واردة الا احصتها وسجلتها ؛ يقول قوسطاف لـوبـون :

« ان ما لدينا من المصادر ، لاحياء معالم المدنية العربية بصقلية نادر قليل، بل ان المعلومات الوجيدة التى لدينا تنحصر فى روايات المـؤرخين المختلفة ، وفي عدد قليل من الآثار التى سلمت من ايدى الخراب والتحطيم ، وفى بعض النقـود ·

« ذلك المقدار الزهيد الذى بين ايدينا اليوم يكفينا على كل حـال لاقامـة البرهان على ان مدنية العرب فى جزيرةصقلية كانت دون مدنيتهم فى اسبانيا وفي مصر ؛ انما هى كانت رغم ذلك موجودة وطيدة الاركان ، بحيث ان المستوى الفكرى والصناعي والاجتماعى فى صقلية كان ارفـع عند خروج المسلمين من صقلية من المستوى الذى كانت عليه عندما دخلوها ·

« لا يستطيع انسان ان يـدرك مـدى التاثير التمدنى لشعب على آخـر الا بمدى ما احدثه فيه من اثر اصلاحي · فاذا نحن جرينا عـلى هذه القاعدة ، راينا ان النفوذ الصالح للعرب فى جزيرة صقلية كان جسيما ·

« **النظام الاداري (١)** ـ عندما اتم المسلمون فتح الجزيرة ابتدأوا فيه عصر التنظيم والترتيب ، ولقد كانت الجزيرة مقسمة منذ عهد الفنيقيين الى ولايتين : سرقوسة وبالرمة فالعرب قسموها الى ثلاث ولايات (٢) تقسيما مناسبا للوضعية الجغرافية ٠

ولقد كان لكل وال من الولاة في هذه الاقاليم الثلاثة تحت امرته طائفة من القواد يحكمون النواحي ٠

« **القضاء** ـ كان المفتي وهو قاضي القضاة ينتصب في مدينة بالرمة٠ وفي كل مدينة من المدن كان يوجد قاض وكاتب ٠

« **الجباية والديوان** ـ في كل مدينة كان يوجد مستخلص الضرائب والعشور وهنالك (ببالرمة) مجلس اكبر يدعى الديوان (٣) ؛ من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة ٠

« **الحرية الدينية والمدنية** ـ كان المسيحيون الصقليون يتمتعون في كل ما ليس له مساس بالصالح العام ، بقوانينهم الدينية والمدنية ، ولهم كذلك حق الحكم فيما بينهم ٠

« فالقضاة من الاغريق الذين كان يطلق عليهم اسم « ستراتيج » او الحكماء قد احتفظوا مدة الفتح الاسلامي بوظائفهم وبامتيازاتهم وحتى باسمهم التقليدي القديم ، فكانوا يحكمون في كل خلاف شجر بين النصارى ٠ وكانوا هم الذن يتولون جمع الجزية التي فرضها العرب على رعاياهم النصارى ، وكان مقدارها : ٤٨ دينارا في السنة على كل رجل غني و ٢٤ دينارا على متوسط الحال ؛ و ١٢ دينارا على العامل الذي يكسب قوته بعمل يديه ٠ فكانت هذه الضريبة ، اقل مما كان يدفعه النصارى تحت حكومة الروم ٠ اما النساء والاطفال فكانوا لا يدفعون ادنى اتاوة ٠

---

(١) العناوين الصغيرة اضفناها على الاصل لزيادة البيان (٢) هي : سرقوسة ونوطس وبالرمة

(٣) اخذ النرمان نظام الديوان واسموه «Dohana» ومنها اخذ الاوروبيون كلمة الدوان «Douanes»

« ولقد كانت كل القوانين المدنية المتعلقة بالاملاك وبالموارث ونحو ذلك منطبقة غاية الانطباق على عادات البلاد واخلاقها ، الى درجة ان النرمان عندما استولوا على البلاد ، ابقوا العمل جاريا بهاتيك القوانين ولم يمسوا منها شيئا .

« **التسامح الديني** ـ لقد احتفظ المسيحيون ايام سلطان المسلمين بقوانينهم وعاداتهم وحرية معتقدهم ، ولقد قال الراهب الدومينكي كورداين من كنيسة القديسة كاترينة ببالرمة ، ان الرهبان كانوا يخرجون مرتدين ثيابهم التقليدية الدينية ، ويذهبون كذلك يحملون الى المرضى طقوس الدين .

« اما الراهب مور كولى ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية في مدينة مسينا ، حيث كان المسيحيون في اعيادهم يحملون علمين : علما اخضر اللون وفي وسطه برج اسود ، وهو علم المسلمين ؛ وعلما احمر في وسطه صليب ذهبي هو علم النصارى .

« ولقد ابقى المسلمون في صقلية جميع كنائس النصارى ولم يمدوا لها ايديهم بسوء لكنهم لم يسمحوا لهم باقامة كنائس جديدة ، وذلك خلافا لما كان واقعا في اسبانيا .

« **الزراعة** ـ ما كاد العرب يبسطون سلطانهم على جزيرة صقلية حتى اندفعوا في ميدان الزراعة (١) والصناعة ، فانتشلوهما من وهدة السقوط العظيم الذي وقعتا من قبل فيه .

« لقد ادخلوا الى الجزيرة غراسة القطن ؛ وقصب السكر وشجرة المن Frêne والزيتون (والفستق والبرتقال والليمون (٢) ؛ واحدثوا في سبيل خدمة الارض قنوات الرى التي لا تزال موجودة ، واستعملوا على الاخص مجارى المياه بركب الماسورة Agueduc à Siphon وكان ذلك مجهولا قبلهم (I).

---

(١) يقول الرحالة ابن حوقل : ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الابريز .

(٢) قال مسيو جيبهار في كتابه « اصول النهضة في ايطاليا » ما نصه :

الصناعة – اما الصناعة فهي مدينة لهم كذلك برقيها العظيم ؛ فقد استغلوا احسن استغلال ثروات البلاد الطبيعية ، من فضة وحديد ونحاس وكبريت ورخام وحجر صلب الخ ؛ وادخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نورمبرغ بالمانيا يوجد معطف من الحرير ، كان يرتديه ملوك صقلية ، محاط بنسيج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هجرية (٢) (١١٢٦ م) وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بان فن صياغة الثياب قد انتقل من صقلية الى اوروبا ٠

التجارة – اما التجارة فقد كانت قبلهم ليست بذات قيمة فاصبحت بفضلهم واسعة النطاق ، ولدينا على ذلك دليل ، ما كانت تتقاضاه (الديوانة) من مكوس على الصادرات والواردات في عهدهم ، وهنالك لائحة طويلة الذيل ضمن اجازات تجارية نرمانية من اوائل عهد الاحتلال ، تثبت لنا مقدار ما بلغته التجارة من اتساع وتنوع ، عندما استولى النرمان على الجزيرة (١)

الآثار – لم يبق الآن في صقلية من آثار المسلمين الا النزر اليسير ، واهم ذلك قصر العزيز (لازيزا) وقصر القبة ، جوار بالرمة ؛ وهذه البقية الباقية تثبت لنا ان الرواة الذين وصفوا لنا ابهة وفخامة قصور المسلمين هنالك لم يرتكبوا اى غلو او شطط ٠

فالراهب تيودوز ، والجغرافي الادريسي على الاخص ، قد وصفوا لنا وصفا بديعا معجبا تلك القصور المحلاة بالرخام النادر ؛ والفسيفساء الناصعة الالوان تحيط بكل ذلك الحدائق الغناء ٠ والراهب تيودوز وقد اسر سنة ٨٧٨ في

« ان جزيرة صقلية ، امبيد وقل العتيقة ، قد اصبحت تحت ايدى المسلمين بما فيها من ثماني عشرة من المدن ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة ، وما استثمر فيها من معادن الذهب والفضة والصفر ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق اديمها من حقول الحبوب ومزارع القطن وقصب السكر وحداق النارنج والنخيل ، وبما كان يغمرها من زهور ذات الوان زاهية ناصعة ، ومن مرابط الخيول الجياد ، ومن مصانع الاقمشة والسندس ؛ وبما كان فيها من قصور ومساجد ؛ اصبحت بكل ذلك تبدو كانها جنة من رياض الشرق اليانعة »٠

(١) لا تزال بالجزيرة الى يومنا هذا آثار من قنوات الري والترع التى انشاها المسلمون كما لا تزال القرية الصقلية تحمل الطابع الاسلامي الى الآن ٠

(٢) انظر رسمه في القسم المصور ٠

حصار سرقوسة وسير بـه الى بالرمة ؛ يحكى باعجاب عما شاهده من قصور ومساجد وحارات حوالى هذه المدينة » • اهـ•

كيف تـرك المسلمـون الجـزيرة ؟

ترك لنا الجغرافى الاكبر محمد بن محمد بن عبد الله الادريسى كتابه الجليل القيمة العالى المقـدار (نزهة المشتاق فى اختراق الافـاق) الفه للملك النرمانى الشهير رجار الثانى ، وبطلب منه ؛ ووضع له اول خريطة (٢) جغرافية علمية عرفت فى الدنيا ، تعتبر آيـة فى الدقة بالنسبة لذلك الزمن (انظر فى القسم المصور قطعة منها) •

فلننقل عن الادريسى بعض ما وصف به مدن صقلية فى عهده اى آخر عهد الحكم الاسلامى واول عهد الحكم النرمانى؛ بعد أن اقبل المسلمون تحت سلطة ملوك النصارى على اصلاح ما افسدته الحروب وما خربته حوادث الاحتلال ؛ فاستمع اليه يحكى لنا عن بالرمة •

بـالـرمـة « Palerme »

« وساحلها بهج مشرق فرج ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناآتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهى عـلى قسمين : قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم وهو فى ذاته على ثلاثة اسمطه ؛ فالسماط الاوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسمطان الباقيـان فيهما ايضا قصور سامية ومبان فآخرة عـالية وبهما من

---

(١) يقول مسيو تـوبل دى فرجى فى كتابه « العالم » ان تجـارة صقلية بلغت ايام المسلمين مبلغا هائلا لم تدركه ابدا من قبل ولا من بعد •

(٢) يدعون ان انكليزيا كان اول من وضع رسما جغرافيا للعالم لكن ذلك الرسم على فرض صحته يعتبر لعب صبيان اذا قيس بخريطة الادريسى المدققة •

الفنادق والحمامات كثير وبه «القصر القديم» الجامع الاعظم الذى كان بيعة فى الزمن الاقدم واعيد فى هذه المرة على حالته فى سالف الزمان ...

فاما الربض فمدينة اخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة ، التى كان بها سكنى السلطان والخاصة فى ايام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التى هي للانشاء والمياه بجميع جهات مدينة بالرم مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنتزهاتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالجملة فتنة للناظرين والقصر المذكور من اكثر القصور منعة واعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا يطاق على حال ..

والربض المحدق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو فى ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والاسواق وله سور يحيط به وخندق وفصل وله فى داخله بساتين كثيرة ومنتزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقعتها (١)

مسينـــا Messine

« ساحلها بهج وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات ثمار كثيرة ولها انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وهى من اجل البلاد واكثرها عمارة والسفر منها اليها قصدا وهى دار الانشاء وبها الحط والاقلاع وبهـا الارساء من جميع بلاد الروم الساحلية وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من بـلاد الروم والاسلام القاصدون اليها من جميع الاقطار ؛ واسواقها رائقة وتجارتهـا نافقة وقاصدها كثير وفى جبلها معدن الحديد الذى يتجهز بـه منه الى البـلاد المجاورة لها ومرساها العجب العجيب الذى يتحدث به فى كل البلاد وذلك ان اكبر ما يكون من السفن العظام يرسى بها من الشاطىء بحيث يتناول مـا فيها من البـر بالايـدى .

---

(١) يقول ابن حوقل ان مدينة بالرمة كانت تشمل خمس حارات :

طيـرمـين Taormina

« حصن منيع وبلد شامخ رفيع من عيون الحصون الازلية واشراف البلاد الدولية وهو على جبل مطل على البحر وله مرسى حسن والسفر اليه من كـل الجهات ويحمل منه كثير من الغلات وبه منازل واسواق وهو مجتمع القوافل والرفاق الواصلة الى مسينا وبه ضياع صالحة ومزارع طيبة زاكية وبـه الجبل المشهور المسمى بالطور الموصوف بالآيات المعروف بالعبادات وبه انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وبها جنات قلائل ولها واد عليه قنطرة عجيبة وبناؤها يدل عـلى قـدرة بانيهـا .

قطـــانيـة Catania

« وهى البلد الجميل المعروف ببلد الفيل الشامخة القدر العالية الذكر ، وهى على ساحل البحر وبها الاسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والخانات ، وبها مرسى حسن ؛ ويسافر اليها من جميع الآفاق ويحمل منها كل البضائع والاوساق وجناتها كثيرة ومياهها من انهارها وعيونها غزيرة، وبها نهر فى امره عجب عجيب وشان مستطرف غريب ؛ وذلك انـه في بعض السنين يفيض فيضا كثيرا فتنصب عليه الارحاء وتمتلى منه الاودية وفى بعضها ينضب فلا يوجد فيه ماء يشرب ؛ وعمارتها واسعة وباديتها ومـزارعها طيبة نافعة واسوارها منيعة ، واقطارها واسعة ؛ والفيل الذى اشتهرت به هو طلسم من حجر على صورة فيل ، كان منصوبا على بناء شاهق فى سالف الازمان ، ثم

---

(١) « القصر وفيه المدينة القديمة وحى التجار والمسجد الاعظم .

(٢) « الخالصة وهي مقر الامير والحاشية والدواوين ودار الصناعـة .
وليست بها حركة تجارة وصناعة وفيها الكثير من المساجد والمدارس

(٣) « حى الصقالبة وفيه المرسى والحـركة التجارية وكـان يسكنه الكثير من الصقالبة (من ناحيـة اسلوفاكيـا)

(٤و٥) « حى ابن صقلب والحى الجديد وفيهما عامة الناس »

ثم انه لا تزال الى يومنا هذا بالمدينة حارة تدعى « اتارينى » كانت سوق العطارين فيما مضى وكان سكان المدينة ايام المسلمين زهاء الثلاثماية وخمسين الفا وبها ٥٠٠ مسجد .

تقل الآن فنصب داخل المدينة بكنيسة الرهبان ·

لنتينـــي Lentini

« قلعة حصينة متحضرة الاسواق كالمدينة ، وهى من البحر على ستة اميال، وموضعها على ضفة النهر المنسوب اليها وتصعد فيه المـراكب باوساقها حتى تحط بين يديها من شرقيها ، وبغربيها ارض واسعة جدا فسيحة الارجاء ممتدة الفضاء ولها بواديها انـواع من السمك الجليل المعدوم المثال مـا يحمل منه الى جميع جهاتهـا ·

سرقـوسـة Syracuse

« من مشاهير المدن واعيان البلاد ، تشهد لها المطى من كل حاضر وبـاد ويقصد اليها قصاد التجار من جميع الاقطار ، وهي عـلى ساحل البحر ، وهو محدق بها دائر بجميع جهاتها والدخول اليها والخروج منها عـلى باب واحـد وهو بشمالهـا ، وشهرتها تغنى عن التكثير من وصفهـا اذ هى منبر مشهور ومعقل مذكور ، وبها مرسيان ليس مثلهما فى جميع البلدان احدهما اكبر من الآخر وهو بجنوبها والآخر اشهر وهو بشمالها وبها فـوارة النبودى تنبع من جرف على حاشية البحر وهى عجيبة الامر

« وبها ما باكبر المـدن من الاسواق ذوات السماطات والحـانات والديار والحمامات والمبانى الرائقة والاقنية الواسعة ؛ (لاحظ انه لم يذكر بها مساجد) ولهـا اقليم كبير طائـل وضياع ومنازل وهو خصيب المواضع زكى المـزارع وتوسق منه السفن بالطعام وغيره من سائر الاوساق الى سائر البلاد والآفاق·

نـــوطس Noto

« من ارفـع القلاع حصنا واشرف المـدن حسنا قطرها واسع المساحـة شريف المنافع والرجاحة وبه اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب

انهارها جارية بمياه غزيرة وعليها ارحاء كثيرة ولها عمل واسع المجال واقليم شريف الحال مزارعها ازكى المزارع ومواضعها اخصب المواضع وهى ازلية العمارة قديمة الآثار .

رغـــوص Ragusa

« وهي قلعة منيعة وبلدة شريفة قديمة العمران ازلية المكان محدقة بها الاودية والانهار كثيرة الارحاء والمطاحن حسنة الابنية واسعة الاقنية ولها بادية خصيبة ومزارع زكية رحيبة وبينها وبين البحر سبعة اميال ونهرها المنسوب اليها يجرى منها بجهتها الشرقية وبهذا الوادى عند مصبه فى البحر مرسى حسن والمراكب تدخله وبه توسق وتفرغ ولها اسواق يتصرف اليها من جميع النواحى والافاق .

بثيـــرة Butera

احسن البلاد بادية وحاضرة ، واشبه شيء بالمدن الكبيرة العامرة حسنة البنيان مشيدة الاركان ، ديارها رائقة عجيبة واسواقها مرتبة رحيبة وبها مساجد للجماعات ويدور بها واد من اعظم الاودية محدقة به الجنات من جميع الجهات ؛ ولها فواكه طيبة وخيرات كثيرة معجبة .

جـــرجنت Girgenti

مدينة متحضرة من اشرف الحواضر عامرة بالوارد والصادر ؛ وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران مشهورة فى جميع البلدان ؛ بل هى من اعظم الحصور منعة واجل البلاد رفعة يسعى اليها من سائر الافاق وتجتمع بها السفن والرفاق ديارها سامية فى الديار ومحلاتها تفتن الانظار وبها اسواق جامعة لاصناف الصنائع وضروب المتاجر والمبايع واصناف كثيرة من الثمرات ؛ ازلية اولية تدل آثارها على سلطنة علية ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن ما يتجاوز اوساقها فى الايام القلائل لاتساع ما بها من

مواد الطوائل وبها جنات وغلات مشهورات ؛ وهي على ثلاثة اميال من البحر ٠

مـــازرة Mazara

« مدينة فاضلة شامخة كاملة ، لا شبه لها ولا مثال ، في شرف المحل والحال واليها الانتهاء في جمال الهيأة والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التي لم تجتمع في غيرها من المواطن وهي ذات اسوار حصينة شائقة وديار حسنة فائقة بها ازقة واسعة وشوارع واسواق عامرة بالتجارات والصنائع وحمامات فاضلة وخانات واسعات وبساتين وجنات طيبات المزدرعات ، يسفر اليها من جميع الآفاق ويتجهز منها بوافر الاوساق واقليمها كثير الاتساع يشتمل على منازل جليلة وضياع ٠

مـرسى عـلى (مرصالا) Marsala

كانت مدينة ازلية من اشرف بلاد صقلية ، وكانت خربت ودثرت فعمرها النومس رجار وسور عليها سورا فصارت ذات عمارة واسواق وخانات ولهـا اقليم واسع وعمل شاسع وسفر اهل بلاد افريقيا اليها كثير ٠٠٠ ولها فنادق وحمامات وبساتين ومزارع طيبات ٠

اطـرابنش Trapani

مدينة ازلية قديمة المحل عـلى ساحل البحر والبحر يحدق بها من جميع جهاتها وانما يسلك اليها على قنطرة على باب شرقيها ومرساها بالجانب الجنوبي منها وهو مرسى ساكن غير متحرك تشتو به اكثر السفن آمنة من جميع الانواء هاد موجه عند هيجان البحر ويصاد به من السمك ما يفوق المقدار ويصاد به السمك الكبير ايضا المعروف بالتن بشباك كبار ويصاد ببحرها المرجان السني وعلى بابها سباخ الملح البحرى ولها اقليم واسع الاجناب ممتد الاطناب ارضها من اكرم الارضين في الزراعات كثيرة الفوائد والغلات ، وطرابنش في ذاتهـا

ذات اسواق رحيبة ومعائش خصيبة وبقربها جزيرة الراهب وجزيرة اليابسة وجزيرة مليطمة ولكل واحدة من هذه الجزائر مرسى وآبار ومحتطب •

بـــر طنيــق Partinico

« بلدة جميلة طيبة وطية حسنة المنظر بهية وبها ضياع زكية يعمل بهـــا القطن الكثير والحنـــاء وغير ذلك من انـــواع القطاني وبها ميـــاه غزيرة وعليها ارحـــاء كثيـــرة •

قـــرينش Carini

« بلدة طيبة جميلة حصينة وبهـــا اصناف من الفواكه كثيرة وبهـــا سوق كبيرة واكبر ما بالحوض من الاسواق والحمامات والديار الواسعة ومنها يحمل كثير من اللوز والتين الناشف والخرنوب ويوسق به المراكب والقوارب ويتجهز به الى الكثير من البـــلاد •

* * *

بعد هذه الجـــولة التي جالها الشريف الادريسي حـــول المـــدن البحرية الصقلية ؛ مبتدئيا ببالرمة ومسينا متجها من الشمال الشرقي صوب الجنوب ثم منه الى الشمال الغربي ؛ وقد اقتبسنا منه وصف اهم المدن ينتقل الى داخل البلاد واصفا المدن البرية فلنقتبس منه شيئا من ذلك ؛ قال عن :

الخـــــــــزان

« وهو حصن في اعلى جبل ، من اجمل القلاع وافضل البقاع ، وحاله افضل حال ولها عمارة وارحـــال ، ومنه يخرج النهر المسمى وادى الامير واصله من الخزان فيتزل مع الخنادق وتجتمع بـــه مياه قجانة ، (وهذا الخـــزان من جملة منشآت المسلمين لتنظيم الري في البلاد وتوزيع المياه على المزارع والبساتين)

الصنم Castelvetrano

« رحل كبير ؛ يحتوى على بشر كثير ، وعليه حصن مطل ومعقل سامي المحل ، اشجاره مصطفة وبساتينه ملتفة ومياهه مندفقة وخيراته محدقة ، ومن الصنم الى مازر سبعة اميال ·

قلعة النساء Calata Nisetta

« قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ومنابع جمة وغلات واشجار وفواكه ·

قصر ياني Gastro Giovanni

« وهى مدينة فى اعلى جبل ، ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ولها اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وامتاع ، ولها عمل واسع المجال ، واقاليم واسعة الحال ، مزارعها زكية وغلاتها مرضية وهواؤها بارد ومرافقها تشفى الصادر والوارد ، وبالجملة انها امنع بلاد الله مكانا واوثقها بنيانا ، ولها مع حصانتها في جبلها مزارع ومياه جارية لا تحتاج الى البسط ، وبها رقة رائقة ورقعة شاهقة ، لا تغلب فى الحال ولايمكن فيها القتال ·

(من اجل ذلك كانت آخر معاقل الروم التى سقطت بايدى المسلمين ، ثم كانت من بعد آخر معاقل المسلمين التى سقطت بين ايدى النرمان)·

حياة اللغة العربية ايام النرمان

كانت العربية كما رايت لسان البلاد الرسمى تستعمل فى كثير من الاحيان قبل اللغة النرمانية · وكان شعار الملك النرمانى عربيا والتخاطب فى البلاط باللغة العربية ، والنقود النرمانية عربية الضرب عربية الصيغة ، وانما نقش على احد وجهيها رسم الملك واسمه باللغة النرمانية ، واستمر العلم زاهرا

والتعليم العربي منتشرا يدل على ذلك اجلى دلالة شواهد القبور من العهد النرماني الاسلامي التي لا تزال قائمة الى يومنا هذا ·

من ذلك شاهد في مدينة بالرمة نقش عليه « الله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء · ولكم في رسول الله اسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلي عرف بابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان من سنة تسع وستين وخمسمائة (١) وهي تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ·

انظر بعينك هل في الارض من باقي · او دافع الموت او للموت من راقي
الموت اخرجني قسرا فيا اسفي · لم ينجني منه ابوابي واغلاقي
وصرت رهنا بما قدمت من عمل · محصى على وما خلفته باقي
يا من راى القبر انى قد بليت به · والترب غير اجفاني وآماقي
في مضجعي ومقامي في البلا عبر · وفي نشوري اذا ما جئت خلاقي

وامثال هذه الشواهد كثير في صقلية ايام العهد النرماني ، لا تكاد تحصى؛ وقد جمع اكثرها سيد كتاب صقلية وكبير المستشرقين ، ميكل عماري ، في كتاب جليل القيمة اسماه · **Le Epigrafi Arabiche di Sicilia** انما الذي يعطيك صورة صادقة لحياة العربية اذاك ، وانها كانت اللغة الرسمية ليس في الدوائر الحكومية فحسب بل حتى في الدوائر الدينية المسيحية ما نقش على قبر مسيحي :

« توفيت أنه ام القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله الملزوزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطالية وانكبرده وقلورية وصقلية وافريقية ، معزة امام رومية النصرانية سرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من او ست سنة ثلاث واربعين وخمسمائة (١) ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها

---

(١) ١١٧٣ م · ايام الملك النرماني غليوم الحسن

بالمستنجيد الى هـذه الكنيسة جنت مخايلة يـوم الجمعـة اول سـاعـة العشا العشرين ماية سنة اربع واربعين وخمسـمائة وبنى على على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة جنت انه على اسم ام مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين ، وانك لا ريب قد لا حظت ان التاريخ المستعمل كان التاريخ الهجرى ولم يذكر التاريخ المسيحي فى بناء كنيسة مقدسة للمسيحية وليس بعد هذا الاثر اثـر ولا افصح من هذا البيان بيان ٠



(١) ١١٤٨ م

القسم التاسع

العلوم والادب

في تلك الفترة الطويلة التي قضاها المسلمون في ربوع صقلية ، وقد جعلوها روضة غناء ، وحديقة يانعة ، وجنة تجرى من تحتها الانهار ، وسواء كانوا حاكمين يومئذاو محكومين ؛ ورغم جميع ما اجتازته الجزيرة من حروب خارجية واضطرابات وفتن داخلية ؛ ازدهرت العلوم والفنون والآداب ، ونبغ في الجزيرة رجال خلدوا على صفحات التاريخ اسمها ؛ ورفعوا ذكرها بين البلاد عليا ؛ فكانت العلوم تدرس هنالك في كل مدينة وكل قرية ، شانها في ذلك شأن بقية بلاد الاسلام ، حيث كانت المساجد والجوامع تقوم مقام المدارس الثانوية والعليا ؛ وحيث كانت الكتاتيب القرآنية المنتشرة انتشارا غريبا ، في كل حارة من حارات المدن والقرى ، تبث التعليم الابتدائي العربي الديني وتؤهل الاطفال لتسنم ذرى المعارف العليا في صقلية نفسها او ببلاد افريقيا او الاندلس او الشرق ٠

ويقص علينا ياقوت الحموي ، في كتابه معجم البلدان ؛ انه كان بمدينة بالرمة في عهده ثلاثمائة مدرس ؛ وان المدرسيين ومعلمي القرآن كانوا لا يكلفون بحمل سلاح ، وليس عليهم اى شيء من التكاليف الحكومية ٠

نشات هنالك ، خلال تلك المدنية الشامخة الذرى ، طبقات غفيرة من الاطباء كان لهم الفضل الاكبر ، لاختلاطهم بايطاليا وبقية اروبا ، في نشر آخر ما وصلت اليه قرائح اطباء العرب والاغريق في كامل القارة الاوروبية وسيأتيك نبأ قسطنطين الصقلي التونسي فيما بعد ، ونشأت هنالك طبقات عديدة من رجال العلم والفن والآداب ، كما نشأ هنالك جمهور صالح من كبار الشعراء من

افذاذ العباقرة الموهومين ترعرعوا بين احضان الروعة والجمال ، والعزة والجلال، فسجلوا لصقلية باشعارهم النفيسة صورة طيبة محببة الى النفس ، وانشأوا بدلك في صقلية ادبا قوميا صقليا عربيا متينا ، جزلا رقيقا ، كأنه الدرة اللامعة في عقد الادب العربي الرائع البهاء • وانما اقول ان شعراء صقلية قد انشأوا شعرا قوميا ، لأن تلك الطائفة الصالحة من كبار الشعراء ، كما سيمر بك فيما بعد ، قد صوروا لنا فابدعوا تصوير صقلية بلهجة شعرهم وبتشابيههم المنتقاة من صلب الحياة الصقلية ، وعلى الاخص بما وصفوه لنا من حيــاة صقلية ، ومن جهادها ومن عبثها ، ومن رياضها وجنانها ومن زهورها واشجارها ، ما يجعلك تشعر بعد تلاوة ذلك الشعر الحي المتين ، انك تغلغلت خلال ذلك الــوسط ، وعاشرت اهله ، واطلعت على تخفي نفوسهم من عظمة وقوة ، وما تخلل ذلــك من تهتــك ومجــون •

وانها لدراسة ثرية ، بعيدة الغور ، فسيحة الآفاق ، دراسة آداب صقلية وعلومها وفنونها ، وحياة الادباء والعلماء والفنانين فيها ؛ فعسى الله ان يقيض من ابناء هذا الشمال الافريقي من يتخصص لهذه الدراسة ، فهي جــديرة بان يهبها باحث كل حياته لا جزءاً من وقته ، وان من قضى حيــاته في ذلك العمل يكون قد خلد اسمه في سجل الاعلام •

ولنلق الآن نظرة وجيزة على اولئك النابغين الافذاذ الذين استحقت بهم صقلية كما يقول العلامة البحاثة كارل سيدهورف ، لقب « باب الشرق للتوغل في الغــرب » •

قسطنطــين الصقــلى
ومدرسة سالرنة

وانه لحري ان نفتتح به هذه السلسلة الذهبية ، وان كان آخر علماء صقلية وايطاليــا عهداً ؛ انما كان يمثل لنا طبقة من الرجال ، من اجــل العلم خلقوا ، وكل ميسر لمــا خلق له ، ومن اجــل العلم عاشوا ، وفي سبيل العلم جاهدوا

الجهاد العنيف ولم يتأخروا عن تقديم اعز التضحيات واثقلها على النفس في سبيل نشر المعرفة ، وبث الانوار في الاصقاع التي كانت يومئذ في ظلمات الجهالة ، اعني قارة اوروبا ٠

فقسطنطين الصقلي او الافريقي ، كان الطبيب المعلم الذي نقل الى الغرب كتب الطب والحكمة ، فترجمها للسان اللاتيني ، وجمع حولها رواد المعرفة والراغبين في العلم ، فأسس لهم « مدرسة سالرنة » (١) التي كانت اول مدرسة من نوعها في اوروبا ، والتي كانت مبعث انوار الطب الحديث في العالم الغربي باسره ؛ والتي بقيت عدة قرون حاملة راية الطب يتبع طريقتها التي سنها قسطنطين كل علماء اوروبا وجامعاتها ٠

حوالي سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٥ م) ولد بمدينة تونس ، ذلك الرجل الذي سيسجل التاريخ اسمه باحرف من نور ، وبها تعلم وتهذب وتثقف ، وكان يتعاطى التجارة في مقتبل عمره ويقبل بكليته على العلوم ، ويغامر في الاسفار ، ويعتكف على دراسة كتب الطب حتى استوعب منها الكثير ثم حل يومئذ في تجارة له بمدينة سالرنة ، واتصلت علاقته باميرها جيزولف وكان مترجمنا الذي سيدعى فيما بعد « قسطنطين » يجهل اللاتينية وكان قصارى امره يومئذ انه تاجر من تجار المسلمين ومثقف متنور بين جماعة غفيرة من المثقفين المتنورين ، فكان الطبيب العربي « عباس دي كوربا » يتولى مهمة الترجمة بين المسافرين والامير ، وسال قسطنطين الذي لم يكن يدعى يومئذ بهذا الاسم اثناء عملية تحليل البول ، هل لاطباء ايطاليا كتب طبية باللغة اللاتينية فاجيب سلبا ، واعلم ان الطب يتلقى هنالك شفويا ويعتمد على بعض التجارب ليس الا ٠

رجع الرجل للبلاد التونسية ، وانكب على استكمال معلوماته الطبية بين افريقيا وصقلية وبلاد الشرق ، وجمع من أحسن كتب الطب الشيء الكثير فبعد ان استوعب جميع ذلك ، أخذ معه تلك المكتبة الثمينة الثرية ، وسافر الى

---

(١) اصبحت جامعة رسمية بامر من الملك روجي الثاني سنة ١١٥٠ ؛ واستمرت عاملة مدى ٦٦٧ عاما ٠ ثم الغيت سنة ١٨١٧ ٠

صقلية ، ومنهـا اجتاز الى مـدينة ساليرنــة يحمل ذخيرة ستكون غذآء أوروبـا طيلـة قـرون .

هنالك انكب على دراسة اللغة اللاتينية حتى حذقها على يـد رجال الدين والكهنوت ، واصبح يـدعى يومئذ « قسطنطين الافريقى » تـارة « وقسطيطين الصقلى » تارة اخرى ، ثم اعتكف في دير جبل كاسان ، ولهذا الدير شهرة عالمية باقية منذ تلـك الساعة الى يـومنا هذا (١) ؛ وهنالك في ذلـك الـدير اخذ قسطنطين في بادىء امره ، يترجم اللغة اللاتينية اهم كتب الطب العربى وفى طليعتهـا : « زاد المسافـر » لابن الجـزار ، تـرجمة تحت اسم Viaticum وانتشر صيت ذلك الكتاب ، وعمت شهرته كافـة البلاد الاوربية ، واصبحت طريقة ابن الجزار فى الطب طريقة اوروبا كلها . ومكثت كذلك قرونا عديدة ثم نشـر شيئا من كتـاب عـلى بن العبـاس تحت اسم : Pratica Pantegni وترجم كذلك كتبا للرازى ؛ وكتبا اخرى لاسحاق ابن سليمان الاسرائيلى ؛ ولم يكتف بترجمة تلك الكتب ، بل اخذ يتبحر فى علم الطب ، والف نحواً من ٢٢ كتابـا فى مختلف شعب الطب وطريقة الـوقاية من الامراض والعلاج ، ولقد طبعت كتبه كلها ما بين سنتى ١٥٣٦ و ١٥٣٩ ومن اهمها :

قانون الطث ؛ ١٢ كتابا .

فياتيكوم فى الطب العام ، ٧ كتب :

البول وتحليله ـ الاعضاء الـداخلية فى جسم الانسان ـ الجماع ـ جسم المرأة واعضاؤها ـ النبض ـ كتاب الجراحة ـ كتـاب المعدة ـ كتاب العيون ـ النبـات الطبى ـ الماليخوليا ـ الحميـة للمرضى ـ طبيعـة الانسان ووظـائف الاعضاء ـ الحيوان . الخ . .

---

(١) حطمته الحرب العالمية الاخيرة الوحشية وقضت فيه على ثروة علمية ادبية تاريخية عزيزة المثـال ، واصبح كومـا من حجارة ورماد .

يؤخذ على قسطنطين الصقلي ، انه كان كلما ترجم كتابا نسبه الى نفسه ؛ ولم يذكر اسم المؤلف ، ويدافع عنه رجال من كبار العلماء ، امثال دارمبرغ (١) (Daremberg) وسيدهوف (Sudhoff) فيقولون ان العلاقات بين النصارى والمسلمين كانت يومئذ ردئية عدائية ؛ وقد تركت محاولات المسلمين لاستعمار الجنوب الطلياني اثراً عظيما في نفوس القوم ؛ فعندما ادرك قسطنطين ذلك علم انه اذا نسب كتب المسلمين لاصحابها ، عمل التعصب عمله وحال بينها وبين الانتشار ، فنسبها الى نفسه ، كانها عمل راهب من رهبان دير كسان ، يعلم الطب في مدينة ساليرنة ، فانتشرت تلك الكتب بتلك الطريقة ؛ وما كاد علماء عصر النهضة يدركون ذلك حتى كانت تلك الكتب قد تمكنت وعم ذيوعها وانتشارها ، واصبحت في العالم الاوروبي نبراسا منيرا ؛ ومات قسطونطين في دير جبل كاسان سنة ٤٨٠ (١٠٨٧) .

وقد طبعت مؤلفاته بمدينة بال بسويسرا في جزأين ضخمين ، صدر الاول منهما سنة ١٥٣٦ والثاني سنة ١٥٣٩ (٢) .

الامام محمد بن علي المازري — قال عنه صاحب سمط اللئال :

ابو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري ؛ اصله من مازرة (صقلية) اخذ عن اللخمي وعبد الحميد السوسي المعروف بابن الصائغ وغيرهما ؛ وهو احد الاعلام المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام وآخر المشتغلين بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر حتى لقب بالامام ؛ وممن اخذ عنه بالاجازة القاضي عياض كان يفزع اليه في الفتوى وفي الطب كما يفزع اليه في الفقه ، وسبب اشتغاله بالطب انه مرض ، وكان يطبه يهودي ؛ فقال اليهودي : يا سيدي مثلي يطب مثلكم ، واي قربة اجدها اتقرب فيها في ديني مثل ان افقدك للمسلمين ، فمن حينئذ اشتغل بالطب ، وقد هاجر الى افريقيا

---

(١) علامة فرنسي (١٨١٧ — ١٨٧٢) نشر قاموس الآثار الرومانية واليونانية

(٢) اسم الكتاب الاول MORBORUM COGNITIONE

واسم الكتاب الثاني OPERA RELIQUAT

وتولى قضاء القيروان وقضاء المهدية ؛

وله تآليف كثيرة جليلة ، منها شرحه على صحيح مسلم المسمى كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم ، وعليه بني القاضي عياض كتاب الاكمال تكملة له ؛ توفي رحمه الله في ١٨ ربيع الاول سنة ٥٣٦ ؛ وتربته خارج بلد المنستير من جهة البحر ؛ يزورها الناس افواجا الى يومنا هذا ٠

محمد بن يونس التميمي — من مدينة مازرة كذلك ، معلم من اعلام الفقه اخذ عن اللخمي وابن الصائغ وغيرهما وتبحر في العلم وشدت اليه الرحال للافتاء حتى لقب « بالامام الاكبر » وقد الف تآليف حافلة عن شرح موطأ الامام مالك بن انس رضي الله عنه والتعليق عليه ، ونال بواسطة ذلك شهرة ذائعة وصيتا عظيما ؛ وتوفاه الله بمدينة مازرة في اوج عزه وسؤدده العلمي سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م) ؛ وترك جماعة من العلماء الجلة ممن صحبوه واخذوا عنه ونفعوا الناس بعلمه وآثاره ٠

محمد بن محمد بن ظفر — من افذاذ صقلية الاعلام ايام حكم النرماو؛ قضى حياته كلها في التعلم والتآليف والتنقل بين البلاد ، من صقلية الى مصر الى بلاد الشام ، وصحب الملك رجار الصقلي ، وقدم له بعض الكتب المؤلفة باسمه ؛ مثل : « سلوان المطاع في عدوان الاتباع » وهو كتاب ثمين ؛ قام بترجمته للغة الطليانية المستشرق الصقلي الاكبر والعلامة الجليل ميكل عماري ٠

وتكاد كتب محمد بن ظفر الصقلي لا يحصيها عد ؛ منها : ينبوع الحياة في تفسير القرآن الكريم — فوائد الوحي الموجزالى فرآئد الوحي المعجز — المسند في الفقه على مذهب مالك — اساليب الغاية في احكام الآية — معاتبة الجرىء في معاقبة البرىء ، في اعتقاد ابى حنيفة والاشعرى — كتاب الجنة في اعتقاد اهل السنة خير البشر — ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه على حروف المعجم — ايهام الغواص في ايهام الخواص ، في بيان غلط ابى محمد الحريرى — الحوذ الواقية ، والعود الراقية ؛ كتابان في شرح الحريرى — كتاب الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى — كتاب الاشارة الى علم العبارة — القواعد والبيان

فى علم النحو ـ أنباء نجباء الابناء ـ مالك الاذكار فى مسالك الافكار ـ الخ٠الخ٠

ولم يزل فى حل وترحال بين صقلية وبلاد المشرق ، الى ان غادر صقلية نهائيا سنة ٥٥٤ (١١٥٩) ، بعد ان ألف كتابه البديع « سلوان المطاع ، فى عدوان الاتبـاع » وقال فى مقدمته : « ان ملكـا حسن السيرة مظنون حسن السريرة ، أمرنى ان أصنف له كتابا يكون لهمومه شافيا ، ولكليلة ودمنـة قافيـا ، فاجبته لذلك مكافيا » واستقر بعدئذ بمدينة حماه من مـدن الشام وبها أدركته الوفاة سنة ٥٥٦ ٠

وكان شاعرا رقيقا ، قال :

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم   بانـك محمـول وانـت مقيـم
الا ان شخصا فى فـؤادى محله   واشتاقـه شخص عـلى كـريـم
ومن قـل فيمـا يتقيه اصطباره   فقـد قل فيما يرتجيـه نصيبه

وقال: على قدر اهل الفضل تؤتى خطوبه   ويعـرف عنـد الصبر فيه نصيبه

عبد الرحمان ابن محمد بن عمر ـ من مدينة بثيرة ، بصقلية ، عاش ايام رجـار ؛ وقد كان حاملا كتاب الله ، واشتهر شهرة ذائعة فى الشعر والادب ، ولقد مـدح الملك رجار الصقلى بقصيد من عيون الشعر ، له قيمة تاريخية عالية ، كاغلب الشعر الصقلى ، يصف به حياة الجزيرة ويتغنى ببهائها وجمالها ، منه :

ادر العقيـق العسجديـة   وصل اصطحابك بالعشية
واشرب على وقـع المثانـ   ـى والاغـانى المعبـديـة
مـا عيشة تصفـو سوى   بـــذرى صقليـة هنيـة
فى دولـــة اربـت عـلى   دول الملـوك القيصـريـة

* * *

وقصـــور منصـوريـة   حـط السرور بها المطيـة
اعجـب بمنـزلهـا الـذى   قـد أكمل الـرحمن ريـه
والملعـب الـزاهـى عـلى   كـل المبـانى الهندسيـة

ورياضة الانف التي عادت بها الدنيا زهية
وأسود « شادر وانه » تهمي مياهها كوثرية
وكسا الربيع ربوعها من حسنه حللا بهية
وغدا يكلل وجهها بمصبغات جوهرية
عطرن انفاس الصبا عند الصبيحة والعشية

عبد الرحمان بن ابي العباس – شاعر اديب فنان ، لم يترك لنا صورا زينية تمثل حياة صقلية ، انما ابقى لنا من غرر الشعر قصيدا بديعا يصف به الجزرة ، وحياة بالرمة ، وقصر الفوارة التابع لقصر المعتزية ، الذى كان منتزه ملوك صقلية المسلمين ، فاستمع اليه يقول :

فوارة البحرين جمعت المنى عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك في جداول تسعة ياحبذا جريانها المتقسم
في ملتقى بحريك معترك الهوى، وعلى خليجك الغرام مخيم
لله بحر النخلتين وما حوى الـ ـبحر المشيد به المقام الاعظم
وكان ما المفرغين وصفوه در مذاب ، والنسيطة عدرم
وكان اغصان الرياض تطاولت ترنو الى سمك المياه وتبسم
والحوت يسبح في صفاء مياهها والطير بين رياضها يترنم
وكان نارنج الجزيرة اذ زها نار على قضب الزبرجد تضرم
وكانما الليمون صفرة عاشق قد بات من الم النوى يتالم
والنخلتين كعاشقين استخلصا حذر العدا حصنا منيعا منهم
او ريبة علقتهما فتطاولا يستمحنان ظنون من يتوهم
يا نخلتي بحرى بلرم سقيتما صوب الحيا (١) بتواصل لا يصرم
هنيتما امر الزمان ونلتما كل الاماني والحوادث نوم
بالله طيبا واسترا اهل الهوى فبأمن ظلكما الهوى يتحرم

عيسى بن عبد المنعم – هو الفقيه ابوموسي عيسى بن عبد المنعم الصقلى ، ذكر عنه صاحب خريدة القصر ، انه كان كبير الشان ، ذا الحجة والبرهان ،

نقيه الامة له المعانى والافكار البعيدة مراميها ومراقيها ، والالفاظ التى هى كالرياض . فمن بديع قوله فى الغزل ، فى فتاة نرمانية بلا ريب ، واعجب بفقيه مسلم يعشق فتاة نرمانية ويتغزل فيها :

يا بنى الاصفر (٢) انتم بدمى   منكم القاتل لى والمستبيح
امليح هجر من يهواكم   وحلال ذاك فى دين المسيح ؟
يا عليل الطرف من غير ضنى (٣)   واذا لاحظ قلبا فصحيح
كل شىء بعد ما ابصرتكم   من صنوف الحسن فى عينى قبيح

عمر بن حسن النحوى ـ كان شيخا من شيوخ اللغة ، واماما من ائمة النحو وبليغا من اكبر البلغاء فى عصره ، وكان ممن جاهد ضد النرمان ، وابلى البلاء الحسن الى ان اسر ونكب ، وجاء عهد الملك رجار فافرج عنه وقربه ، فقال يمدحه من قصيد :

طلب السلو لو أن غير سعاده   حلت سويدا قلبه وفؤاده
ورجا زيارة طيفها فى صدره   وغرامه يابى لذيذ رقاده
والله لولا الملك (رجار) الذى   اردى لجبته عظيم وداده
ما عاف كاس الوجد يوم فراقها   وراى محيا المجد فى ميلاده
يهتز للجدوى اهتزاز مهند   يهتز فى كفيه يوم جلاده
ويضىء فى الديجور صبح جبينه   فيخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء ارض خيامه   والنجم والقمران من اجناده
واذا الامور تشابهت فلقصبه   خط يبيض سودها بمداده

ابن القطاع ـ هو ابو القاسم على بن جعفر بن على السعدى ، المعروف بأبن القطاع ويرتفع نسبه الى ابراهيم بن الاغلب ، ولد فى صقلية سنة ٤٣٣ (١٠٤١ م) وبها عاش وتعلم وتأدب ، وقرأ على ابن البر الصقلى واضرابه من

---

(١) الحيا ، المطر (٢) بنو الاصفر النصارى ، يقول البهاء زهير :
واقسم ما ذاقت بنو الاصفر الكرى   وما حلمت الا باعلامه الصفر
(٣) الضنا ، المرض

رجال ذلك العصر وقال الشعر صبيا ، وجمع من اخبار اهل صقلية من الشعراء والادباء الشيء الكثير فالف كتابه «الدرة الخطيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة» جمع فيه طائفة صالحة من شعراء صقلية ، وذكر البعض من جيد شعرهم ، وهاجر آخر ايامه الى بلد الكنانة ، فعاش الى آخر زمان الملك الافضل ، وقد الف كتاب « تاريخ صقلية » ذكره ونقل عنه ياقوت الحموى فى معجم البلدان ؛ ولا نزال نجد فى البحث عنه ؛ وتوفى فى صفر سنة ٥١٥ ٠

ابو عبد الله محمد بن الحسن ــ المعروف بابن الطرى ؛ كان ايام الدولة الاسلامية ، صاحب ديوان الرسائل والانشاء ، وكان من ذوى الفضل والمكانة فصيحا بليغا مترسلا شاعرا ؛ وكان من اصحاب الباع الطويل الى جانب ذلك فى علم الطب ٠ قال يهجو منافقا :

يقرب قوله لك كل شيء — وتطلبه فتبصره بعيدا
فما يرجو الصديق الوعد منه — ولا يخشى العدو له وعيدا

الاصلاح الاسلامى ــ ولقد ترك لنا من ابيات ، صورة لما كانت عليه حالة المسلمين فى صقلية يومئذ ، من الركض فى ميدان البدع والمنكرات التى الصقت بالاسلام ظلما وعدوانا ، بدعوى انها من القربات الصوفية ؛ شانها فى ذلك شأن بقية العالم الاسلامى ، وما كان كرام الامة ومصلحو الاسلام يشنونه من غارة على تلك الاباطيل ، فيقول :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه — ولا بكاء اذا غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب — ولا تغاش كان قد صرت مجنونا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر — وتتبع الحق ، والقرآن ، والدينا
وان ترى خائفا لله ، ذا ندم — على ذنوبك طول الدهر محزونا

ابو الفضل مشرف بن راشد ــ من شعراء امجاده ، تغنى بذكر الجزيرة فاجاد ، مما يقوله مادحا احد كبار قوادها مفتتحا القصيد بالغزل حسب الطريقة المألوفة التقليدية :

سرت ورداء الليل اسحم حالك (١) ولا سائر الا النجوم الشوابك
عشية اعشى (٢) الدمع انسان مقلتي ونمت (٣) باسرار الدموع السوابك
وطاف انكرى (٤) بالطرف وهو محجب كما طاف بالبيت المحجب ناسك
سرت موهنا ثم استناءت فودعت تجاذبها حقف (٥) من الرمل عاتك
به غصن بان اثمر البدر طالعا عليه قناع من دجا الليل حالك
غريبة حسن يحسن الهجر عندها واعجب بها محبوبة وهي فاتك
واحور (٦) مكحول المدامع عافني عن الصبر فاستولت على مهالك
رعى الله اكناف الجزيرة ان رعى سوائمها الغراء ريس (١) ناتك
يشيد اعاديه الحصون منيعة وهل منع الافشين ما شاد بابك
واني لآتي الحق فيما اقوله وما انا فيما يعلم الله باتك (٢)
شهدت لقد حاز العلا بيمينه غداة تجداه الردى وهو ضاحك
ليوث وغى أذكت خلال ضلوعها لهيبا انارته لهن الحسائك (٣)

عمار بن المنصور الكلبي ـ الامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلبي من امراء بني الحسين الكلبيين ملوك صقلية نشأ في بيت الملك والعزة والجاه ، وانقطع للعلم والادب ، فكان من افاضل علماء زمانه المبرزين في الفقه والحديث له من اروع الشعر ، يصف بيته ويمجد قومه ، ويجمع بين شرف العلم وهمة الابطال :

تقول لقد رايت رجال نجد وما ابصرت مثلك من يمان
الفت وقائع الغمرات حتى كانك من رءاها في امان
الى كم ذا الهجوم على المنايا وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء ولم اسمع بكلبي جبان

---

(١) السحم ، اسود حالك شديد السواد (٢) اعشى ، اساءت بصره (٣) نمت فشت واذاعت (٤) الكرى ، النوم (٥) الحقف ، المعوج من الرمل والعاتك من الرمل ما تعقد وارتفع ؛ يعني بذلك ردفها ، كما قال الشاعر :

كيف اسلو وانت حقف وغصن وغزال لحظا وقدا وردفا (٦) واحور ، الحور

ويقول في ابن عمه الامير ، وقد أساء اليه :

ظننتك سيفا انتضيك (٤) على العدا ... وما خلت انى انتضيك على نفسى
وجئتك ابغى رفعة وكرامة ... فامسيت مقهورا يقربك فى حبس

الرشيد احمد بن قاسم ـ من ابناء صقلية وكبار علمائها ، هجر وطنه بعد توطد قوم النصارى فيه ، وجاب الآفاق حتى استقر بمصر واصبح ايام الملك الافضل قاضى القضاة بها ، ولقد دخل يوما على الافضل فوجد بين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فانشد :

الين لداود الحديد بقدرة ... يقدده فى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة ... على انه صعب المرام شديد

مجبر بن محمد بن مجبر ـ كان من رجال الادب والعلم بصقلية ، بها ولد ونشأ وتثقف ، ثم هاجر منها وأستقر بمصر مع القاضى الرشيد الآنف الذكر ، وكان زينة مجالس الادب ، وله من قصيد فى الغزل والمدح :

ليس الفراق بمستطاع ... فدعيه من ذكر الوداع
وعديه ما يحى به ... من طيب وصل واجتماع
يا وجه مكتمل البدو ... ر وحسن ما تحت القناع
يا اخت يوسف ان قلبى ... فى هواك هو الصواع
فلئن ظفرت به لديـ ... ـك وكنت سارقة المتاع
فلآخذنك من قبيـ ... ـلك اخذ ملك واقتطاع
يا نفس حسبك لا تهابى ... بالخطوب ولا تراعى
يكفيك انك فى حمى ... من ليس يرضى ان تضاعى

بالفتح شدة بياض بياض العين وسواد سوادها (١) راس الشىء ضبطه وغلبه والقوم اعتلى عليهم ، النتك جذب الشىء تقبضه ثم تكسره يعنى : ان رعاها قوى شديد قابض على زمام الامور (٢) باتك ، قاطع السيف (٣) الحسايك جمع حسيكة اداة للحرب تصنع من حديد على شكل الحسك المعروف (4) انتضيك ، اسلك .

مصعب بن محمد ـ ابو العرب مصعب بن محمد ابن ابى الفرات القرشى، ولد ونشأ وتعلم فى صقلية ؛ اما ولادته فقد كانت سنة ٤٦٤ (١٠٥٤ م) ، وام بلاط المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية بالاندلس ، قال يمدحه ويذكر وطنه الضائع :

الى م اتباعى للامانى الكواذب ... وهذا طريق المجد بادى المذاهب
اهم ولى عزمان ، عزم مشرق ... وآخر يغرى همتى بالمغارب
ولا بد لى ان اسأل العيش حاجة ... يشق على اخفافها والغوارب
على لآمالى اضطراب مؤمل ... ولكن على الاقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تستصحبى الهون انه ... وان خدعت اسبابه شر صاحب
ويا وطنى ان بنت عنى فانتى ... سأوطن اكوار(١) العتاق النجائب
اذا كان اصلى من تراب فكلها ... بلادى وكل العالمين اقاربى

عمر بن رحيق ـ شاعر رقيق الاحساس ، نشأ بصقلية وهجرها عند تغلب النرمان عليها ، وله من قصيد يذكر به مدينة بالرمة بعد ان زال عنها سلطان المسلمين :

نفسى تحن الى اهلى واوطانى ... وهل رايتم محبا غير حنان
كانوا بقلبى احياء وفى كبدى ... نار تأجج من شجوى (٢) واحزانى
ما ضر حين نأوا لو ودعوا (٣) دنفا ... رهن الحوادث فى كف الهوى عان (٤)
عز اصطبارى لرزء قد دهيت به ... وبان عنى لوشك البين سلوانى

محمد بن الحسن بن على ، ابوبكر الربعى ـ ولد بمدينة جرجنت ، وتفقه بها وتبحر فى العلوم العربية الاسلامية متما فى مدينة القيروان علمه ؛ وكان من خيار الرجال وافاضل المسلمين ، هاجر صقلية عند زوال سلطان المسلمين ، واستقر بمدينة الاسكندرية وبها توفى سنة ٥٣٧ .

محمد بن خراسان ـ يعرف بالنحوى الصقلى ؛ كان مولى لبنى الاغلب سمع من ابى جعفر النحاس مصنفاته ؛ وروى عن ابى بكر محمد ابن بدر القاضى ، ومروان بن عبد الملك بن بحر وروى عنه يوسف بن ابى حبيب بن

محمد وقد قضى رحمه الله كامل حياته في مجالس العلم ، وفي اوساط العلماء الى ان مات سنة (٣٨٦) عن ست وسبعين سنة ·

محمد بن ابي فرج بن فرج ـ هو ابو عبد الله ، المالكي الكتاني ، المعروف بالذكي النحوي ، كان من كبار العلماء ، مبرزا في علوم اللغة والنحو ، وسائر فنون الادب ؛ وكان مولعا بالمغامرات والاسفار ·

ساح جهات العراق وفارس وغزنة حتى وصل بلاد الهند وجرت له مخاصمات مع جماعة من الائمة ، آلت الى طعنه فيهم ، وبسط لسانه الى ما لا يليق بهم ·

مما يدل على علو كعبه وسمو مكانته في العلم والنزاهة ، انه حضر املاء محمد بن منصور السمعاني ، فلم يصادق ابن ابي الفرج على ما املاه السمعاني وقال للناس ليس الامر كما املاه عليكم بل هو كذا وكذا فقال السمعاني رحمه الله اكتبوا كما قال فهو اعرف به ، فغيروا الكلمة وكتبوا كما قال الذكي ، فبعد ساعة قال الذكي ياسيدى انا سهوت والصواب ما امليت انت فقال السمعاني اذن غيروه وارجعوه كما كان ومات محمد بن ابي الفرج متسوحا في ارض خراسان سنة ٥١٢ ؛ وقد كان مولده بصقلية سنة ٤٢٧ ·

الشريف محمد بن احمد الادريسي ـ ليس هذا النابغ الفذ من ابناء صقلية بل هو مغربي قح ، من سلالة الاشراف الادريسيين ، مؤسسي الدولة العلية الادريسية بالمغرب الاقصى ، لكنه قد سجل اسمه في التاريخ الصقلي ، بمآثرته الخالدة التي فتح بها فتحا جديدا في وجه التمدن العالمي ، وفجر بها ينبوعا حيا لعلم الجغرافيا ، وهو يعتبر حقا اول اساطينه ، وبالغ سدرة منتهاه في عصره ·

ولد الشريف الادريسي بمدينة سبتة سنة (٤٩٤ هـ) (١١٠٠ م) وابتدأ تعلمه ببلاد المغرب الاقصى ، ثم خرج سائرا في الارض راكضا وراء التعمق في العلم ؛ فأم مدينة قرطبة كعبة القصاد ومنبع الهدى والنور في القرون الوسطى ؛

---

(١) اكوار جمع كور ـ الرحل المتاق من الخيل نجايب يعنى انه يوطن سروج الخيل النجايب (٢) شجوى ، حزنى واحزانى مرادف (٣) دنف ؛ مريض مرضا مزمنا · (٤) عانى ، اسير

وهنالك اقبل على علم الجغرافيا والنجوم والطب ؛ فلما استكمل معلوماته خرج سائحايكتشف البلاد ويطلع على الامصار ، فـزار اسبانيا والبرتغال وايطاليا وسواحل فرنسا وبلاد الانكليز وبلاد اليونان وبـلاد الشرق التركي والعربي والرومي .

ادى به المطاف يومئذ الى جزيرة صقلية ؛ ايام ملكها الكبير رجار الثاني ، فاتصل به واكرم مثواه ، واختصه لنفسه ، وبذل له اقصى ما يبذله ملك حكيم عـالم ، لرجل في مثل قيمة الادريسي ؛ فاستقر الشريف في صقلية ، واصبح درة لامعة في بلاط الملك النرماني .

هنالك اخـذ الادريسي طـوعا لاشارة الملك رجار ينجـز مأثرته الكبيرة خريطة العالم ، كما كان معروفا يومئذ .

نقشها عـلى دائرة من الفضة وزنها ١٨٠٠ اوقية ؛ وقسم الدنيا المعروفة ادذاك الى سبعـة اقاليم متوازيـة ؛ يبتدىء الاقليم عند خط الاستواء تقـريبا وينتهي الاقليم السابع عند المتجمد الشمالي ، الذي يدعوه بحر الظلمات (١) .

ولكي يبين ما نقشه في الخريطة الف كتابه الجليل الشان : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ؛ وقد قسمه الى سبعة ابواب ؛ حسب تقسيم الاقاليم ، وكل باب مقسم على عشرة اقسام يقول مسيو لوريش ، في دائرة المعارف الفرنسية الكبـرى « هو اكمل كتاب جغرافي تركه لنا العرب ، وان ما دققـه الادريسي من تحديد المسافات ، وما حققه من دقـائق الوصف ، يجعل من هذا الكتـاب وثيقة نفيسة لعلـم الجغرافيا في مستهل القرون الوسطى .» وقـد اتم تاليفه سنة ٥٤٥ (١١٥٠) .

ويقول عنه حاجي خليفة في كشف الظنون « اورد اوصاف الممالك والبلاد مستوفيا وهي المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الا طوال والعروض » .

وقد ترجمت قطـع كبيرة من كتاب الادريسي ، لمختلف لغـات العـالم ؛ وكادت كل بلاد تترجم ما يتعلق بها من نزهة المشتاق ، امـا بالفرنسية فقد ترجمه برمته مسيو جوبير ، ونشره في جزأين ، سنة ١٦١٩ .

وله مع ذلك كتاب : الجامع لصفات اشتات النبات ·

وتوفى الشريف الادريسى فى صقلية ودفن ببالرمة بعد ان ادى للعالم خدمة تذكرها الاجيال ، خلال سنة ٥٦٢ ؛ (١١٦٦)

جمهرة من العلماء والكتاب والشعراء

عدد جسيم ممن اشتهر فى صقلية بالعلم والادب ، وتبرز فى الشعر ، وركض فى ميدان النفع والتأليف ، لا نستطيع أن نترجم لهم ترجمة وافية ، لان ذلك ربما اخرجنا عن دائرة الايجاز التي حددناها لانفسنا في هذا البحث ؛ ولكننا لا نستطيع كذلك ان نغفل اسماءهم ، ونترك ذكرهم ، وهم ممن شادوا صرح المدنية الاسلامية في صقلية ورفعوا عاليا ذكر هذا القطر الذى جعلوه منبع نور وهدى ، ومركز حضارة ومدنية ، فلنذكر اسماءهم فى ايجاز واختصار ؛ الى ان تسمح الظروف لى او لغيرى بتاليف خاص عن تراجم وآثار علماء وادباء صقلية الاعلام :

ابو الحسن احمد ابن الحسن الكلبي – من امراء الكلبيين من عائلة بني الحسن كان اديبا فاضلا ، وكان ميالا للشعر له فيه باع وابداع ، يقول :

شنيت البيض حين شنين شيبى   وتأبانى التى ملكت فؤادى
وهل يختار ذو عقل ولب   بياض المقلتين على السواد

ابو القاسم عبد الله ابن سليمان الكلبي – من الامراء الكلبيين كذلك ، كان مثل بقية امراء تلك العائلة الزكية ، من رجال العلم والفن والادب ، انما ادركته حرفة الملوك ، فكان اكثر قوله فى الغزل والنسيب والصهباء ، يقول :

كفى حزنا على البلوى مقامى   اخص عداك دونك بالسلام
فجد بالنوم اذ منعوك عنى   لعلى ان ازورك فى المنام
رجوت بمقلتيك شفاء قلبى   وهل يشفى السقيم من السقام
وما ابقى الحمام على عطفا   ولكني خفيت عن الحمام

---

(١) اعادها المجمع العلمى العراقى الى اصلها العربى سنة ١٩٥١ ، ونشرها (٢)ميتر × ١) وصحح بها الخريطة التى نشرها ميلر ، بما جمعه من خرائط الادريسى ·

واذا ما جاريت الادبــاء فى ابحاثهم ، قلت ان قــوله هذا ماخوذ عن ابى الطيب المتنبى ·

كفى بجسمى نحولا اننى رجل — لــولا مخاطبتى اياك لم تــرنى

ثم يقول من خمرية وقــد ابــدع :

ما ان سمعت ولا رايت بمثلها — نــار على ايــدى السقات تــدار
وجلوتهــا غلس الظــلام فراعنى — ان قــام فى غلس الظلام نهــار

محمد بن عيسى بن عبد المنعم ـ من علماء علـم الهندسة ، وله فى علـم النجوم بـاع طويل وقد ذكــر بهاذين العلمين ، خاصة بكتاب تــاريخ الحكماء للخطيبى ·

على بن حبيب ابو الحسن ـ يقال له اللغوى الصقلى ؛ كان من علماء اللغة المعدودين واكابر البلغاء المبرزين ؛ وكان ممن يشار اليهم بالبنان ، فى نقــد الشعر وتحليل معانيه ·

عمر بن خلف بن مكي ـ من اكبر علماء عصره ، وافــاضل المبــرزين في مصره ، جمع الى علم الدين علوم الادب ، فكان من المتقدمين فى كليهما ؛ وقد ادى به علمه الى تقدمه لمنصب قضاء حضرة تونس فوليه ، وروى انه كان خطيبا مفوها بليغا يخطب كل جمعة خطبة من انشائه تفوق خطب ابن نبــاته حسبما يقــول الشيبانى فى انباء الرواة ، وقــد كان آخــر قضاة المسلمين بصقليــة الأسلامية خرج منها مع آخر امرائها ابن الحواس عند الانجلاء النهائى وتغلب النــرمــان ·

طاهر بن عمر بن الرقباني ـ من علماء صقلية الاعلام فى اللغــة والادب وكلام العرب ؛ قال الشيبانى انه لم يكن فى زمانه اعلم منه بلغة العرب وكلامها ونثرها ونظمها ، وكان بينا مقدما ، جليلا معظما ، قصده العلماء من كل جهــة الى صقلية فلقوا منه بحرا طاميا ·

عمر بن على بن عمر السرقوسنى ـ من كبــار علماء العربية بصقلية لــه تاليف في القرآت والنحو والعروض ، وقد استوطن مصر ، وكانت لــه حلقة

للقراء ، يؤمها الطلاب ٠

محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر ـ التميمي القرشي الصقلي ، نبغ في موطنه ، ثم رحل لأتمام التفقه في الدين ومـلء الوطاب من علـوم العربية والادب ، وعاد الى الجزيرة بحرا من العلم والفضل والهدى ؛ واستقر في مدينة مازرة وصحب اميرهـا الذى قربه واكرم مثواه وكان امير مـازرة يومئذ ابن منكور ، على غاية من الزهد والورع والتقوى ، وكان محمد مـوجودا الى سنة ٤٠٠ (١٠٥٩ م) وقد انتفع به وتخرج عليه جمهور كبير من العلماء الجلة ، ومن اشهر تلاميذه ابن القطاع الآنف الذكر والترجمة ٠

يوسف ابن احمد ابو يعقوب الدباغ ـ من علماء العربية الاعلام بصقلية كان حافظا لكتب الاقدمين ، وله شعر جيد حسن ٠

ابـو محمد الدمعـة ـ كان معدودا من كبار الشعراء ؛ وكان من اكابـر المعلمين ورؤسائهم بصقلية تخرج عليه جمهور كبير من الادباء ٠

سليمان بن محمد الصقـلي ـ قال عنه صاحب مسالك الابصار ، صقل الفهم الجلي مرآته ، وصور في هياة المصباح المضيء ، مشكاته ، وداوى به سقم الادب حتى ازا لشكاته » وكان من اهل الادب والشعر وحافظا لكلام العرب ؛ وتقدم بفضل ادبه عند الكبراء ٠

بعض مؤلفـات الصقليين

مما ورد ذكره في كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون للعلامة المحقق المدقق مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة التركي :

الاشتراك اللغوى والاستنباط المعنوى : للشيخ محمد بن عبد الله بن ظفر؛ المتوفى سنة ٥٦٨ (سبقت ترجمته) ٠

اعراب القرآن ـ لابي طاهر اسماعيل بن خلف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٥ ؛ في تسع مجلدات ٠

اعلام النبوءة : للشيخ ابن ظفر الانف الذكر

الافعال وتصاريفها : للشيخ ابى القاسم ابن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ وقد ذكر ابن خلكان ان تاليفه اجود من افعال ابن القوطية ٠

انباء نجباء الابناء ؛ للشيخ ابن ظفر ٠

تاريخ صقلية لابن القطاع السالف الذكر ٠

الدرة الخطيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة ؛ لابن القطاع ايضا ؛ اورد فيه ذكر ماية وسبعين شاعرا ، من شعراء صقلية ٠

تثقيف اللسان ؛ لابن القطاع ايضا

تجويد ، لبغة المزيد ؛ كتاب فى القرآت السبع ، للشيخ ابى القاسم عبد الرحمن ابن ابى بكر بن الفحام الصقلى ، المتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٦

تفسير القرآن لابن ظفر

تهذيب المطالب ، لعبد الحق الصقلى ؛

المعلم ، للامام المازرى الشهير ، المتوفى سنة ٥٣٦

سلوان المطاع ، فى عدوان الاتباع ، لابن ظفر ،

الشافى ، فى علم القوافى ، لابن القطاع ؛

طبقات الشعراء ، لابن القطاع ؛

الملح العصرية ، له ايضا ؛

المختار فى النظم والنثر ، لافاضل اهل العصر ، تأليف ابن بشرون الصقلى؛ كتاب المشى والسير ، لابن القطاع ؛

التنقيب ، على ما فى المقامات من غريب ، لابن ظفر ؛

الروضة الانيقة ، ليحى ابن عبد الرحمن بن عبد المنعم

ينبوع الحياة فى التفسير ، لابن ظفر ؛

عبد الجبــار بن حمــديس

هو رابع اربعة اعلام ذاع صيتهم في كل الاصقاع والبقاع ؛ وتــردد ولا يزال اسمهم يتردد دوما واستمرارا ، كلما ذكــر العلم والادب والشعر هم : المازري وابن الطقاع ، وابن ظفر وابن ظفر وابن حمديس ؛ وان صقلية لو لــم تنجب من ابنائها الكرام البررة الا هــؤلاء الاربعة لكفاها ذلك فخــرا على مــر الايــام ، ولبقي بهم ذكرها حيا خالدا لا تعتدي عليه عوادي الزمان ٠

كان ابن حمديس علما من اعلام الشعر ؛ وفذا من أفــذاذ البيان ٠ وكان روحا سامية ، ونفسا ابية ، وفيضا نورانيا يشع بنفسه كالراديوم ، كان يمثل اجلى تمثيل وطنه صقلية ؛ في عبثه ترى عبثها ، وفي لهوه ترى لهوها ، وفي حماسه ترى حماسها ، وفي اوصافه ترى اوصافها ذات الالوان الزاهية الخلابة ، وفي تنديده باهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بابنائها الذين اضاعوها : وفي رثائه لها ، وبكائه عليها ، يخيل لك انك تسمعها تبكي وتنتحب ؛ تندب سلطانا ضائعا ، وملكا مفقودا ٠

بل ان شعر ابن حمديس في مجموعه ، يعد ملحمة من ابــدع ما اخــرج الشعراء للناس من الملاحم ٠

ولد ابن حمديس في مدينة سرقوسة من صقلية سنة ٤٤٦ (١٠٥٥ م)في وقت كان حكم المسلمين فيه يسلم الروح ؛ وقد فتح عينيه النافذتين فــراى مصائب قومه وفتنهم وتغلب الافرنج عليهم ؛ وصورها لنا كما قلت ، فابــدع تصويرها ، ثم نزح عنها اذ لم يستطع البقاء تحت حكم النصارى ؛ فجاب بلاد المغرب والاندلس واتصل بملوكها وامرائها ؛ ومــدح ابن علناس في بجــاية ؛ ويحي ابن تميم ابن المعز بن باديس في المهدية والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الشاعر وغيرهم وكان اينما حل وحيثما ارتحل يترنم بذكر صقلية ويزفر حار الزفرات كانه يستحث المسلمين عامتهم وخاصتهم امراءهم وسوقتهم على الاخذ بيدهــا واستخلاصها من يــد العدو الغاصب الى ان هــرم ، وجــاوز الثمانين واصبــح يقــول :

اسلمنى الـدهـر للـرزايـا   وغيـر الحـادثـات نفسـى
وكنت امشى ونست اعيـا   فصـرت اعيا ولست امشى
كـاننـى اذ كبـرت نسـر   يطعمـه فـرخـه بعش

سأله بعض الادباء عن تشبيهه نفسه بالنسر ، فقال ليس فى الحيوان من يطعمه ولده اذا هرم الا النسر »

واصبح يسير الهـوينا متكئا عـلى عصاه :

ولى عصا من طريق الذم احمدهـا   بهـا اقـدم فى تاخيرهـا قـدمى
كانهـا وهي فى كفى اهش بهـا   عـلى الثمانين عامـا لا على غنمى
كاننى قـوس رام وهي لى وتـر   ارمي عليها زمـان الشيب والهرم

ومات رحمه الله كئيب النفس ، مجـروح الفؤاد ، سنة ٥٢٧ (١) ؛ وانى لذاكر لك ، فى خاتمة هذا الباب بل فى خاتمة هذا الكتاب ، شيئا من مـلاحم ابن حمديس كانها تلخيص لجميع ما مـر فى هذا السفر ، او استدراك لمـا لم يتوصل هذا القلم لبسطه وتسجيله عن صقلية الاسلامية .

يقول فى قصيد رائع ؛ يذكر شبابه وشباب صقلية

قضت فى الصبا النفس اوطـارها   وابلغهـا الشيـب انـذارهـا
ومـا غـرس الدهـر فى تـربـة   غـراسا ولـم يجـن اثمـارهـا
نعـم واجيلـت قـداح الهـوى   عليهـا فقسمـن اعشـارهـا
فـافنيت فـى الحـرب الاتهـا   واعـددت للسلـم اوزارهـا
كميتـا لهـا مـرح بـالفتـى   اذا حـث باللهـو ادوارهـا

مجـالس الشرب واللهـو :

تنـاولهـا الكـوب من دنهـا   فتحسبـه كـان مضمارهـا
وسـاقيـة زررت كفهـا   عـلى عنـق الضبى ازرارهـا
تـدير بيـاقـوتـة درة   فتغمس فى مـائهـا نارهـا

---

(١) ببجاية ، وهو الاصح . وقيل بجزيرة ميورقة .

وفتيــان صدق كزهر النجــ ـــوم كرام النجـادة أحـرارهـا
يــديرون راحـا تفيض الكــ ؤوس على ظلم الليل انوارها
كـان لها من نسيج الحبـاب شبـاكـا يعقـل اطيـارهـا

راهبــة ديــر ؛ او مــديرة ماخور ؟:

وراهبــة اغـلقت ديــرهـــا فكنـا مـع الليـل زوارهـا
هــدانـا اليها شـذى قهـوة تـذيـع لانفـك اسـرارهـا
كـان تـراقـجـه عنـدهـا دنـــان مضمنـة قـارهـــا
طـرحت بميـزانهـا درهمى فاجـرت من الدن دينارهـا
خطبنـا بنـات لهـا اربعـا ليفتـرع اللهـو ابكـارهـا
من اللاء اعمار زهر النجـوم تكـاد تطـاول اعمـارهـا
تـريـك عـرائسها ايـديـا طـوالا تصافـح اخصارهـا

خبيــر بنت الحــان

تفـرس في شمهـا طيبهـــا مجيـد الفـراسة فاختارهـا
فتى دارس الكاس حتى درا عصير الخمـور واعصـارهـا
يعـد لمـا شئت من قهـــوة سنيهـا ويعـرف خمارهـا

مجلس الطـــرب :

وعـدنـا الى هـالـة اطلعت عـلى قضب البـان اقمارهـا
نفى ملك الهم عنـا الهمـوم تشـور فيقتـل ثـوارهـــا
وقـد سكنت حركات الاسى قيـان تحـــرك اوتـــارهـا
فهذى تعـــانق عـودا لهـا وتلـك تقبـل مـزمـارهـا
وراقصـــة لقطـت رجلهـا حساب يـد نقـرت طارهـا
وقصب من الشمـع مصفرة تـريـك من النـار نـوارها
كـان لهـا عمـــدا صففـت وقـد وزن العدل اقطارهـا
تقل الديـاجى عـلى هامهـا وتهتـك بالنـور استـارهـا
كـانـا تسلـط آجـالهـــا عليهـا فتحمـق اعمـارهـا

الحنيــن لصقليــة :

ذكـرت صقليـة والاسـى — يهيج فى النفس تـذكارهـا
ومنـزلـة للتصـابى خـلت — وكان بنو الظـرف عمارهـا
فأن كنت اخـرجت من جنـة — فـانـى احـدث اخبـارهـا
ولـولا ملوحـة مـاء البكـاء — لخلـت دمـوعـى انهـارهـا

التــوبة والنــدم :

ضحكت ابن عشرين من صبوة — بكيت ابن ستين اوزارهـا
فلا تعظمن لـديـك الـذنـو — ب اذا كان ربـك غفـارهـا

* * *

ثم يبكى صقلية بكاء مراً ، كأنه قد ضاقت به الارض على سعتها بعدها وكأن ما لاقـاه من عطف الملوك والامراء ، ورعـاية اكابر القـوم لا يعد شيئا مذكورا امام « جنته المفقودة » فيقول :

فبت من الليـل فـى ظلمـة — فيا غـرة الصبح هاتى الضياء
ويا ريح اما مريت (١) الحيـا — ورويت منه الربـوع الظماء
فسوقى الى جمام (٢) الغيوم — لامـلاهـا لـك بالدمع مـاء
ويسقى بكـائى ربـع الصبـا — فما زال فى المحل يسقى البكاء
ولا تعطشى طلـلا (١) بالحمى — تدانى عـلى مزنة او تنـاء (٢)
فـلا تعجبى فمغـانى الهـوى — يطيب طيب ثـراهـا الهـواء
ولى عنـدهـا مهجـة صبـة — تـزودت فى الجسم منها ذمـاء
ديـار تمشت اليهـا الخطـوب — كما تتمشى الذئاب الضراء (٣)
صبحت بها فى الغياض (٤) الاسود — وزرت بها فى الكناس الظباء (٥)
ووراءك يـا بحـر لى جنـة — لبست النعيـم بهـا لا الشقـاء

---

(٢) جمام جمع جم وهو الكثير من كل شئ — يريد هنا الكثير من الغيوم .
(١) مـرى الناقة مسح ضرعها ، يريد الشاعر من الريح اما ان تحلب المطر الخ.

اذا انـا طالعت منهـا صباحـا ... تعـرضت من دونهـا لى مساء
فلـو اننى كنت اعطـى المنـى ... اذا منـع البحـر منهـا اللقـاء
ركبـت الهـلال بـه زورقـا ... الى ان اعـانق فيها ذكـاء (٦)

* * *

ويذكر فى ديار الغربة ، اسود العرين ، ابطال صقلية الذين لم يتركوا السيف حتى فارقهم النفس الاخير ؛ فان كانوا فيما بينهم ذئابا ، فقد كانوا تجاه الاعداء اسودا ؛ فيقول من قصيد طويل :

ويـا رب نبت تعتريـه مـرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبى امـورا جهلتها ... وقـد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن امواه الزواخر عـذبة ... قضى بخـلاف انظن عند المشارب
ركبت الهوى فى رحل كل حبيسة (١) ... تـواصل اسبـابى بقطـع السباسب
قـلاص (٢) حنـاهن الهـزال كانها ... حنيات نبـع (٣) فى اكف جـواذب
اذا وردت فـى زرقـة المـاء اعينـا ... وقعـن عـلى ارجـائهـا كـالحـواجب
بصـادق عـزم فى الامـانى يحيلنى ... عـلى امـل من همـة النفس كـاذب
ولا سكـن الا منـاجـاة فكـرة ... كـانى بهـا مستحضـر كـل غـائب
فلمـا رأيت النـاس يـرهب شـرهم ... تجنبتهـم واختـرت وحـدة راهـب
احتـى خيـال كنت احظى بـوصلـه ... له فى الكرى عن مضجعى صد غـائب

فخـر : ٠

فهل حـال من شكـلى عليـه تغيـر ... نحـافـة جسمى وابيضاض ذوائبـى
اذا عـد من غـاب الشهـور لغـربـة ... عددت لها الاحقاف (٤) فوق الحقائب
ولى فى سمـاء الشرق مطلـع كـوكب ... جـلا من طلـوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجـوزاء فى الجـو منطقى ... تصح من معـانى الارتجال الغـرائب

---

(١) الطل ؛ الشاخص من آثار الدور ؛ (٢) التناءى ، البعد ؛ يعنى ترانى على مقربة من مزنـة .و بعد منها ؛ (٣)الضرآء ، جمع ضرو ، والضارى من الوحوش الذى تعود أكل لحم الصيد ودمه واولـع بـه ؛ (٤) الغياض ، جمع غيضة ، الاجمة مجتمع الشجر فى مغيض المـاء (٥) الكناس بالكسر مستتر الظبى من الشجر ؛ (٦) الذكاء ، بالضم ، الشمس

اخوان الانس والصفاء :

وكم لي من صفو وود محافظ   لذي العيب من اعدائه غير عائب
اخي صبوة نادمته الراح والصبا   له من يد الايام غير سوالب
معتقة دع ذكر احقاب عمرها   فقد ملئت منها انامل حاسب
اذا خاض منها الماء في مضمر الحشا   بدا الدر منها بين طاف وراسب
ليالي لم يذهبن الا لثالثا   نظمن عقودا للسنين الذواهب

مصيبة صقلية بين اعداء الخارج واعداء الداخل :

ولو ان ارضي حرة لاتبعتها   بعزم يعيد السير ضربة لازب
ولكن ارضي كيف لي بفكاكها   من الاسر في ايدي العلوج الغواصب
احين تغاني (١) اهلها طوع فتنة   يضرم فيها نارة كل حاطب
ولم يرحم الارحام منهم اقارب   تروى سيوفا من دماء الاقارب

وصف ابطال صقلية في الجهاد

وكان لهم حذب (٢) الاصابع لم يكن   رواجب (٣) منها حاتيات رواجب
اناس اذا ابصرتهم في كريهة   رضيت من الآساد عن كل غاصب
اذا خالدوا في مازق الحرب جردوا   صواعق من ايديهم في سحائب
لهم يوم طعن السمر ايد مبيحة   كلا الاسد في كراتهم للثعالب
تخب (٤) بهم قب يطيل صهيلها   بارض اعاديهم نياح النوادب
اذا ما ادارتها لذكر حسبتها   تدور على اتهامات فوق الكواكب
اذا سكتوا في غمرة الموت انطقوا   على البيض بيض المرهفات القواضب
ترى شعل النيران في خلج (٥) الضبا   تذيق المنايا من اكف المواهب
اولئك قوم لا يخاف انحرافهم   عن الموت ان حامت اسود الكتائب
اذا ضل قوم عن سبيل الهوى اهتدوا   واى ضلال للنجوم الثواقب ؟

---

(١) الحبيسة ، من الخيل المحبوسة في سبيل الله ، هذا هو الاصل (٢) قلاص حمع قلائص وهذا جمع قلوص ، وهي الناقة الطويلة القوائم (٣) نبع ، شجر للقسي وللسهام (٤) الاحقاف ، جمع حقف وهو المعوج من الرمل ، كما تقدم ، والحقائب جمع حقب وهو مدة ثمانين سنة وقيل غير ذلك .

وكم فيهم من صادق الناس مفكر ... اذا كر في الاقدام لا في العواقب

غزواتهم في بلاد ايطاليا :

اذا ماغزوا في الروم كان دخولهم ... بطون الخلايا (١) في متون السلاهب
يموتون موت العز في حومة الوغى ... اذا مات اهل الجبن بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائدا ... اعدت لهم في الدفن تحت المناكب
فعادوا افول الشهب في حفر البلا ... وابقوا على الدنيا سواد الغياهب

التوجع والحنين :

امثلها في خاطرى كل ساعة ... ومرى لها قطع الدموع السواكب
احن حنين البنت للموطن الذى ... مغانى غوانيه اليه جواذبى
ومن سار عن ارض ثوى قلبه بها ... تمنى له بالجسم اوبة آيب

ثم استمع اليه يشدو بذكر وطنه وقومه فيرفع ذكر صقلية الى السماك الاعزل ويسموا باهلها الى منزلة الابطال :

رجال الحرب الصقليون :

رعوا ورق البيض الذى زهره دم ... لهم ورق عن زهرة الروض تبسم
جبابرة في الروع تعدو جيادهم ... بهم فوقها رشح الوشيج (٢) المقوم
تنوء (٣) بهم في ذيل الخط انجم ... سحائبها نقع وامطارها دم
ترحل من آجارها (١) الاسد خيفة ... اذا نزلوا لترعى فيها وخيموا
ترى كل جو من قناهم ونقعهم ... بكوكب ان ساروا اليه ويعتم
فصاح غداة الحرب عز سكوتهم ... والسنة الاغماد عنهم تترجم
كان بايديهم اذا ضربوا الطلا (٢) ... عزائمهم لو انها تتجسم

---

(١) تغانى إهلها ، استغنى بعضهم عن بعض (٢) حذبه بالسيف - ضربه او قطع اللحم دون العظم (٣) الرواجب - المفاصل اصول الاصابع ؛ حاتيات - حتيته خطته واحكمته وفتلته يعنى انها - بعد قطع الاصابع - لم يكن فى امكانها ان يحكم بعضها بعضا (٤) تخب ، تسرع ، قب اى خيل ضامرة البطون (٥) الخلج - بالفتح الفساد ؛ والضبا يقال ضبته النار غيرته وشونه ؛ والضابى الرماد ولعله يريد انك ترى شعل النيران فى رماد فاسد من جثثهم وامتعتهم فليحرر .

اذا ما استوى فعل المنايا وفعلهم ... بارواح ابطال الوغى فهموا هم
اعاريب ابقى فى تباريح (٣) حبهم ... لهم اعوج (٤)مايوجفون(٥)وشدقم(٦)
صحبتهم فى موحش الارض مقفر ... به الذئب يعوى والغزالة تنغم
سقى الله عنا عذبة (٧) الدمع ان بكـ ... ـت ديارا بها للجسم قلب متيم (٨)
بارض يميت الهم عنك سرورها ... ويمحو ذنوب البؤس فيها التنعم
وكم لى بها من خل صدق مساعد ... مهين العطايا وهو للعرض مكرم
يفيض على ايدى الكماة سماحة ... على انه من نجدة يتضرم
اذا فرت الابطال كر وسيفه ... محسل ودم العلج فيه محرم (٩)
يموج به بحر كان حبابه (١٠) ... عليه دلاص (١١) سردها منه محكم
ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم ... اذا عبست حرب لهم تتبسم
ومن حلب الاوداج (١) يغذى فطيمنا ... بحجر من الهيجاء ساعة يفطم
لنا عجز الجيش اللهام (٢) وصدره ... بحيث صدور السمر فينا تحطم
يضاعف ان عد الفوارس عدنا ... كان الشجاع الفرد فينا عرمرم
نؤخر للاقدام فى كل ساعة ... تاخر ما يلقى الحتوف تقدم (٣)
فان كان للحرب العوان معول ... علينا فما كل الكواكب ترجم
وننسج يوم الروع من نسج جردنا(٤) ... علينا ملاء (٥) للقشاعم (٦) ترقم
فمن كل صنديد على اعوجية ... بكراتها طير الملاحم تلجم

اسطول المسلمين الصقلى :

وطائرة بالدمر ملء عنانها ... لها السبق فى شأو البروق مسلم

---

(١) بطون الخلايا ، الخلايا جمع خلية ، ما يعسل فيه النحل ؛ والسلهبة من الخيل ، الجسيمة ؛ والسلهابة الجريئة . ولم يتضح لنا ما يريده الشاعر هنا ، ولعله يريد انهم اذا ما غزو فى الروم كان دخولهم فيهم دخول الزنابير فى بطون الخيل فليحرر (٢) الوشج الاشتباك والوشيج فى الاصل شجرة تصنع منها الرماح وتطلق على الرماح ذاتها . (٣) ناء به الحمل ينوءه اثقله وامال . بذبل الرماح الدقيقة ؛ الخط مرفا للسفن بالبحرين حيث تباع الرماح – يعنى تثقل بهم فى حمل الرماح الدقيقة اسنة الرماح الحديدية اللامعة كالنجوم ، النقع الغبار

رمينا عداة الدين في عقر دارهم بعادية في غمرة الموت تقحم
تعوم بها بين العلوج مظلة كما حلقت فتخ على الجو حوم (٧)
فمن حامل من غير فحل وفرخها لدى وضعها في ساحل الروم صيلم (٨)
ومنسوبة للحرب منشاة لنا طوائر بالآساد في الماء عوم
كان قسيا في مؤاخرها التي يفوق منها في المقادم اسهم
وترسل نفطا يركب الماء محرقا كمهل (١) به تشوى الوجوه جهنم
مدائن تغزو للعلوج مدائنا فتفتح قسرا بالسيوف وتغنم
ومتخذي قمص الحديد ملابسا اذا نكل (٢) الابطال في الحرب اقدموا
كانهم خاضوا سرابا بقيعة ترى للثريا فيه عينا عليهم
صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ لنا الشهد الا بعد ما ساغ علقم (٣)
فغادر افواها بهسم هبر ضربنا بواحدها من مرهفات يثلم
وان بأيدينا الحديد لناطق اذا ما غدا في غيرها وهو ابكم

الراية الحمراء :

واجنحة الرايات فينا خوافق كان دم الابطال فيهن عندم (٤)
امن ابرق بالدار او مض بارق كطائش كف بالبنان يسلم
مرى من عيون ساهرات مدامعا وكحلها بالنور والليل مظلم

---

(١) آجارها جمع وجار ، حجر الاسد يعني نرحل من اجحارها (٢) الطلا ، بالكسر الاعناق او اصولها (٣) تباريح الحب توهجه (٤) اعوج ، فرس شهير لبني هلال وتنسب اليه الاعوجيات (٥) أوجف الفرس ، جعله يعدو ؛ (٦) شدقم : فحل للنعمان ومنه الشدقميات من الابل يعني ان خيلهم العتاق وابلهم الفحلة ن جودتها لا تستحق تسييرها واسراعها بل تسير وتعدو وحدها؛ أعلم انه لقرار الابطال وكره على العدو يختص به وحده فيبقى لسيفه حكم الحل ولدم العدو فيه (٧) عذبته الدمع ، مانعته وتاركته ، شحيحته ؛ (٨) متيم ، معبد مذلل بالحب ؛ (٩) يعني واسه الحرم لا حق لاحد دونه ؛ (١٠) الحباب بالفتح ، ما يعلو الماء من العقاقيع ؛ (١١) دلاص ، يقال درع دلاص أى ملساء لينة ؛ سردها ، نسجها

الحنين لصقلية البائسة الاسيرة :

ويا عجبا من روضة زار طيفها جفونا من التهويم فيها توهم
ألم بساقي عبرة حد قفرة بمنسم حرف كلما بل يلطم
واهدى اريجا من شذاها ودونها بمقتحم الاهوال شهب وحضرم (٥)
وللصبح نور في الظلام كما اكتسى حميما(٦) بطول الركض في الصدر ادهم
احن الى ارضى التى فى ترابها مفاصل من اهلى بلين واعظم
كما حن فى قيد الدجى بمضلة (٧) الى وطن عود من الشوق يرزم
وقد صفرت (١) كفاى من ريق الصبا ومنى ملآن بذكر الصبا فم

* * *

أليس هذا الشاعر الفحل ، جديرا بما قاله فيه ابن بسام : « هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعانى البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف فى التشبيه المصيب ، ويغوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب »؟

رثـــاء صقليـــة

واخيرا بلغ بابن حمديس الياس من انقاذ صقلية ، مبلغا جعله يعلن عن ذلك اليأس اعلانا فيه حرقة الموجوع ، وزفرة الملتاع فيقول ، ونحن نجعل من قوله هذا خاتمة هذا الباب ، ونهاية هذا الكتاب :

---

(١) الاوداج عروق بالعنق ـ يعنى من دم عروق أعناق الاعداء يغذى فطيمنا حال فطامه وهو فى أحضان الحرب (٢) اللهام بالضم العظيم من الجيش (٣) يعنى اننا نؤخر لاجل الاقدام فى كل ساعة ما دام التقدم يفضى الى الحتف المحقق ؛ (٤) الاجراد الفرس القصير الشعر رقيقه والسباق، (٥) ملاء . جمع ملاءة ـ الربطة وهى من الثوب ما يكون من نسج واحد غير ذى لفقتين او كل ثوب لين رقيق : (٦) القشاعم جمع قشعم ، القشعم الاسد ، اى قشعم الموت ؛ (٧) كان شاعرنا الملهم ، قد اطلع على الغيب فوصف في هذه الابيات الثلاثة الطائرات المدمرة الحديثة (٨) الصيلم . الداهية ، والامر الشديد

اعاذل دعني اطلق العبرة التي عهدت لها من اجمل الصبر حابسا
اود لارضي ان تعود لقومها فساءت ظنوني ثم اصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رايتها تكابد داء قاتل السم ناحسا

* * *

صقلية كان الزمان بلادها وكانت على اهل الزمان محارسا
فكم اعين بالخوف امست سواهرا وكانت بطيب الامن عنهم نواعسا
ارى بلدى قد سامه الروم ذلة وكان بقومي عزه متقاعسا (٢)
عدمت اسودا منهم عربية ترى بين ايديها العلوج فرائسا
اما ملئت رعبا « قلورية » بهم واردوا بطاريقا بها واشاوسا (٣)
وساقوا بايدي السبي بيضا حواسرا (١) تخال عليهن الشعور برانسا
افي « قصريانا » رقة يعمرونها واسيما من الاسلام اصبح دارسا
ومن عجب ان الشياطين صيرت بروج النجوم المحرقات مجالسا
واضحت لهم « سرقوسة » دار منعة يزورون بالدربين فيها النواوسا (٢)
مشوا في بلاد اهلها تحت ارضها وما مارسوا منهم ابيا ممارسا
ولو شققت تلك القبور لاخرجت اليهم من الاجداث اسداً عوابسا
ولكن رايت الغيل (٣) ان غاب ليثه تبختر في ارجائه الذئب مائسا

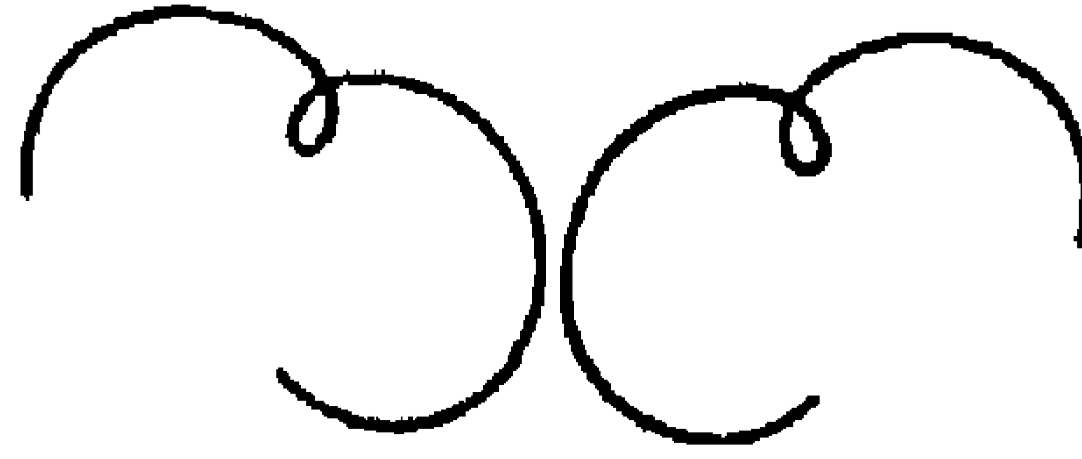
---

(١) المهل بضم الميم ، القطران الرقيق وما ذاب من صفر او حديد ؛ (٢) اذا نكل نكص وجبن؛ (٣)العلقم ، الحنظل ؛ (٤) العندم ، دم الاخوين ؛ (٥) حضرم القوس ، شد توتيرها (٦) حميما عرقا ومنه سمي الحمام لانه يعرق (٧) مضلة ارض يضل فيها ؛ ـ عود المسن من الابل والشاء ؛ ـ يرزم ، رزم ، البعير يرزم لا يقدر ان يقوم من هزال .

(١) صفرت ، خلت ؛ ريق الصبا ، لمعانه ۔ (٢) متقاعسا ، ثابتا منيعا ؛ (٣) أشاوسا ، جمع اشوس ،الشديد الجرىء فى القتال ۔

تـم الكتـــاب

والحمد لله رب العـالمـين



---

(١) حواسر ، منكشفات (٢) النواويس ، جمع ناووس ، مقبرة النصارى (٣) الغيل ، الاجمة مـوضع الاسد .

اهـم المصـادر العـربية



كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
كامل التواريخ	لابن الاثير
اتحاف اهل الزمان	احمد بن ابى الضياف
مروج الذهب	للمسعودى
الامامة والسياسة	لابن قتيبة
نهاية الارب	للنويرى
الفارسية	لابن قنفذ
تقويم التواريخ	لحاجى خليفة
المؤنس	لابن ابى دينار
رحلة	ابن جبير
رحلة	التيجانى
معجم البلدان	لياقوت الحموى
وفيات الاعيان	لابن خلكان
مسالك الابصار	لشهاب الدين العمرى
نزهة المشتاق فى اختراق الافاق	للشريف الادريسى
الوافى فى الوفيات	للصفدى
نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب	للمقرى
كشف الظنون	لحاجى خليفة
طبقات اللغويين	للسيوطى
خريدة القصر	عماد الدين الاصفهانى
طبقات علماء افريقيا (نشر الدكتور ابن ابى شنب)	محمد بن الحارث
الفتح القدسى	عماد الدين الاصفهانى
ديوان	ابن حمديس

دائرة معارف القــرن العشرين — محمد فريد وجدى
اعمال الاعــلام ، فيمن ولى قبــل الاحتــلام من ملــوك الاسلام — لابن الخطيب
تعاليق وحواشى على اعمال الاعــلام — حسن حسنى عبدالوهاب
بساط العقيق فى حضارة القيروان — « « «
المنتخب المدرسى من الادب التونسى — « « «
الى غير ذلك من نصوص عربية جمعها العلامة المحقق الاستاذ ميكال عمارى فى كتابه الجليل : « المكتبة العربية الصقلية » Bibliotéca Arabo-Sicula (Lipisa) 1857

اهــم المصادر الغــربية

La grande Encyclopédie Française.
Le Épigrafi Arabiché de Sicilia - M. AMARI
Les Civilisations des Arabes - G. LEBON
Storia Dei Musulmani de Sicilia M. AMARI
Les Civilisations de l'Afrique du Nord - Vitor PIQUET
L'école Méditinale de Kaïrouan - D. A. BEN MILAD
La Domination Musulmane en Sirile - H.H. ABDELWAHAB
Le Moyen âge - Albert MALET
Histoire de l'Algérie - H GARROT
Histoire de la Tunisie - G LOTH
Les Siètles obscurs du Magreb - E. F. GAUTIER
La Berberie Orientale sous la dynastie des Benous l'Aghlab - Von Derheyden
Origine de la Renaissance en Italie - GEHART
Contribution des Arabes aux Progrès des Sciences Médicales - ABDALLAH MANSOURI
Les Invasions Barbares - Ferdinant LOT
Histoire du Moyen Age - G. MARÇAIS
Histoire de l'Afrique du Nord - Ch. André JULIEN
Manuel d'Art Musulman - G. MARÇAIS
Essai sur l'Architecture des Arabes - Girauld DE PROGEY

الفهرست

تـاريخ صقلية.ـ

فهرست ابجدى

* * *

* * *

ن

انتهى

الإيداع القانوني : 2007-515
ردمك : 978-9947-24-140-0

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007




ISBN 978-9947-24-140-0

